الدكتور عماد الدين خليل

ملامح الانقلاب الإسلامي

في خلافة عمر بن عبد العزيز

مؤسسة الرسالة
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

ملامح الانقلاب الإسلامي


صفحة فارغة

الطبعة الثالثة
١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

مؤسسة الرسالة — بيروت — شارع سورية — بناية صمدي وصالحة
هاتف ٢٩٥٥٠١—٢٤١٦٩٢ ص ب ١١٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

أتأذن لي يا خامس الخلفاء الراشدين أن أتقدم
بتجربتك العظيمة هذه إلى أبناء جيلي ؟!


صفحة فارغة

بسم الله الرحمن الرحيم

« وعَدَ اللهُ الذينَ آمنوا منكُمْ وعَملوا الصّالحات ، لَيَسْتَخْلِفنَّهمْ في الأَرضِ ، كما اسْتخلفَ الذينَ منْ قبلِهمْ ، ولَيُمكننَّ لَهُمْ دينَهُمُ الذي ارْتَضَىٰ لَهُمْ ، ولَيُبَدِّلنَّهمْ من بعْدِ خَوفِهمْ أَمْنا . يَعبدُونَني لا يشركونَ بي شَيْئا ... »

النور ٥٥


صفحة فارغة

المقدّمة

(١)

هذه محاولة ، لا أدري مدى نجاحها أو إخفاقها ، لتطبيق المنهج الإسلامي في كتابة (التاريخ) و (السيرة) . المنهج الذي يقوم على التوازن بين الذات والموضوع ، ويسعى إلى إحياء الموقف التاريخي ، ويستهدف النظرة الكلية الكونية للاحداث والحركات والاشياء . المنهج الذي يخترّق الجدران الخارجية للوقائع ، ويتجاوز حدود الحسّ الثقيل الظاهر للعيان صوب ساحات الروح والوجدان ، ويرى في التاريخ حركة حياة دائمة لا حركة أحداث متقطعة ، ويبحث - رغم الجهد والعناء - عن التوافق الذي يسود العلاقات بين الإنسان وبين الأرض التي يتحرك عليها ويسعى فوقها . المنهج الذي يوضح للناس كم هي عظيمة نتائج اللقاء بين السماء والأرض ، وكم هي خطيرة حاسمة معطيات رجل أو جماعة أو أمة تتلقى عن الله وترفض التلقي عن العبيد . المنهج الذي يقول لهم ما يجب عليهم أن يعملوه إزاء كل مطالعة أو بحث في التاريخ .

والالتزام التاريخي بمفهومه البعيد هو هذا : ان يبعث في نفوس الناس الفهم الصحيح لما يحيط بهم من قوانين وسنن وأحداث ، سبقتهم أو عاصرتهم أو ستجيء فيما بعد ، وأن يفجر فيهم الرغبة في (الحركة) ، والسعي الجاد

الملتزم إلى إعادة توجيه القوانين والعلاقات والاحداث وفق منطق الكون القائم على التوافق والانسجام ، وأن يبعث في قلوبهم الحرص على صياغة العالم من جديد على ضوء ما يقدمه لهم التاريخ من تعاليم . ومن ثم فلا قيمة للتاريخ ان ظل أسير المناهج التي استعبدته طويلاً : سرداً ميتاً للأحداث ، وتجميعاً آلياً للنصوص ، ونظرات مبعثرة للوقائع التي لا يشدها خيط ، ولا يضمها إطار .... وتجميداً قاسياً للحركة والحيوية اللتين تكمنان في احداث التاريخ ووقائعه ، وتحليلاً مبتسراً متكلفاً للجزئيات والتفاصيل . وفوق هذا وذاك ، رفضاً للأسلوب الجميل ، ولجوءاً إلى أقصر الطرائق اللغوية والتعبيرية للوصول إلى المعنى ، وابعاداً للذات عن الممارسة الفعالة في دراسة الموضوع واكتناه أبعاده وأغواره . الذات بكل ما تحويه من قيم وطاقات وجدانية وروحية وفكرية ، يمكنها – إذا اجتمعت ووجهت توجيهاً صحيحاً – ان تحقق من النتائج ما لم يستطع أيّ من الاكاديميين أن يحققوه .

(٢)

ان الذي أريد أن أقوله هنا هو أن على (المؤرخ) أن ينهي قطيعته (للفنان) ، أن يمحو جفاء قرون طويلة بين الطرفين ، ان يهدم الجدران التي تفصل احدهما عن الآخر . إن المؤرخ سوف يجتاز – عن طريق هذا اللقاء – مرحلة الشكل إلى المعنى ، ويسعى إلى استثارة الفكر والوجدان ، وإلى تقديم التفاسير الشاملة لما يحيط بالإنسان . إن المؤرخ الاكاديمي يؤكد على الأجزاء ، وعلى تضخيمها حتى تستحيل على يديه إلى شيء ثقيل واسع يحتل كل مساحات الرؤية التاريخية ، وكأنه لا شيء هناك سوى ما نقله إلينا ، مقتطعاً إياه من بنية التاريخ اقتطاعاً تعسفياً . أما المؤرخ – الفنان فإنه – على العكس – يسعى للبحث في أعماله عن كل الارتباطات الظاهرة والخفية بين سائر ما يعرضه علينا التاريخ من أحداث ووقائع ومعطيات .

والمنهج الذي ينبثق عن لقاء المؤرخ بالفنان هو الذي يستطيع أن يقول لنا الكثير الكثير .. ان يمد رؤياه إلى شتى المساحات ، وان يتوغل بعيداً في أغوار الوقائع والاحداث . وهناك من الأمثلة ما يعطينا صورة عن روعة النتائج التي تمخضت عن هذا اللقاء . فالحقائق الموضوعية التي تحفل بها (دراسة للتاريخ) لارنولد توينبي ، و (تدهور الغرب) لاشپنجلر و (رصيد التاريخ) لغروسيه ، و (قصة الحضارة) لول ديورانت ، لا يُستهانُ بها ، وهي نفس الحقائق التي تعرض لها مؤرخون اكاديميون أمثال جب وبرنارد لويس وفيشر .... إلا أنك تقرأ لهؤلاء ولهؤلاء فتشعر – فعلاً – بفاصل هائل يمتد بين الطرفين ، فتوينبي ورفاقه قدموا لنا التاريخ كفعل ، بينما قدمه لنا فيشر ورفاقه كعالم مسطح تعرض فوقه الأحداث كقطع متراكمة من الأشياء نفض عنها المؤرخ غبار القرون . ويجدر هنا أن نشير إلى العبارة الرائعة التي قالها المؤرخ الالماني اشپنجلر ثائراً على القيود الاكاديمية ، قال : « إن ما يصنع المؤرخ الحقيقي – ليتميز عن منظف الأتربة الاكاديمي ! ! – يكمن في معرفته الفطرية للمعاني الكامنة وراء الحوادث »[1] .

ان اسهام العنصر الذاتي في دراسة أي (موضوع) – إذا التزم حدود التفاعل الخلاق القائم على الخيال والرؤية والفطرة المدركة والموازنة بين الفن والمنطق ، وابتعد عن العاطفية والانفعال السلبي – فإن النتيجة ستكون عملاً ضخماً في مجال المعرفة ، أو خطوة عملاقة في مجال الحياة والتطور . وهذا لا يقتصر على الدراسات الاجتماعية الانسانية فحسب ، بل يشمل النظريات العلمية الضخمة أيضاً ، ولا يختص بالدراسات والبحوث فحسب ، بل يشمل كل الحركات الضخمة في تاريخ البشرية ، حيث تقف دعوات الأنبياء عليهم السلام في القمة . من أجل هذا يمكن أن نجد بعض التشابه بين مفهوم توينبي للتاريخ ، وثورة اينشتاين في دنيا العلم « لأن اينشتاين هدم فكرة

(١) انظر بالتفصيل بحثاً للمؤلف بعنوان (نقد للأكاديمية وتأمل في التاريخ) مجلة « المثقف العربي » العدد الأول ، شباط ١٩٦٩ .

القياسات المطلقة الخاصة بالزمان والمكان ، وأصر على الدور الذي يلعبه الإنسان الذي يقوم بالإحصائيات العلمية . وإننا لنجد أن رؤيا توينبي للتاريخ تعتمد على أمرين هما : قابليته كمؤرخ وخياله ... وهو يصر قائلاً ان المفكر يجب أن يظل مستقلاً جهد امكانه »[٢] .

والرؤية التاريخية في نظر توينبي هي « نظام متعمد لتمرين الخيال على المشاركة الشخصية في التاريخ » وهذا يذكرنا بابطال الفكر الصوفي في التاريخ الاسلامي : ذي النون المصري ، والحارث المحاسبي ، والبسطامي ، والجنيد ، والشبلي ، والغزالي ، والجيلاني ، والرومي وغيرهم ، أولئك الذين تمكنوا — عن طريق نظامهم القاسي في تمرين الخيال والفطرة المدركة والطاقة الروحية — من المشاركة الشخصية في مشاهدة جوانب رائعة من الملكوت . وتقدم لنا تراجم حياتهم وكفاحهم قصصاً رائعاً ، واحداثاً روحية عظيمة تتحدى منطق الحس والمادية ، وتجتاز بالانسان حدود الملموس إلى ساحات الباطن والروح[٣] .

أما اشپنجلر فقد تمكن — هو الآخر — من تحطيم القيود الاكاديمية بالتزام أبعاد ثلاث في مجال العمل التاريخي ، يتمثل أولها بهذه الثقافة الشاملة والذهنية الواسعة التي كان اشپنجلر يتمتع بها ، والتاريخ لا يدرك إلا بذهنية كهذه ، بما انه تجربة عطاء في شتى مجالات المعرفة والحركة الانسانية[٤] . ويتمثل

---

(٢) و (٣) انظر المرجع السابق .

(٤) إن أحد الأخطاء الخطيرة التي يقع فيها الاكاديميون ، هي أنهم ، بتأكيدهم على التخصص في حقل واحد ، وعلى ضرورة الإلمام بتفاصيل وجزئيات ذلك الحقل ، يشيحون عن أية محاولة جدية لفهم الجوانب الأخرى من الثقافة ، والقطاعات الأخرى من الحياة . إن مناقشة أي واحد من هؤلاء توضح مدى تشبثهم بالمكان الذي اختاروه لتخصصهم ، وعدم رغبتهم — مطلقاً — في تهديم الأسوار التي أحاطوا بها أنفسهم . ومن ثم فإن أية محاولة للخروج بهم بعيداً عن الأسوار ، سوف تعرضهم للضياع . إن أبحاثهم تبدو — للوهلة الأولى — جهوداً علمية موضوعية ممتازة ، لأنها تخدع بهذا العدد الكبير من الهوامش الذي تذيل به كل صفحة من صفحات البحث . ولكن أية محاولة جدية للنفاذ إلى الجهد الحقيقي الذي بذل في كتابة هذه الأبحاث ، يطلعنا على خواء ثقافي محزن في فكر صاحبه ، وعلى ضآلة مضحكة في الإدراك الداخلي للنصوص ، وفي استبطان الأحداث

ويتمثل ثاني هذه الابعاد بالرؤية الموحدة للتاريخ ، لأن حصر النظر في حدود التفاصيل والجزئيات يفقد المؤرخ القدرة على فهم التاريخ باعتباره حصيلة سنن ثابتة تحكم الطبيعة والإنسان والعالم . ويتمثل ثالثها بتحطيم الحواجز الخارجية للعقل والمنطق المادي ، وفتح المجال أمام القوى الروحية للإنسان في تقييم التاريخ للنفاذ إلى أعماقه واستبطان معناه . وهذا يعني ايضاً ان على المؤرخ أن يحيل التاريخ إلى عملية حيوية ويخلصه من التجريد ، ان يدخل إلى صميم الحدث ، لا أن يقف خارج الأسوار وينظر من بعيد . وهذا البعد الأخير على درجة كبيرة من الأهمية ، لأن التاريخ ليس حصيلة احداث خارجية فحسب ، بل هناك القوى الداخلية ، والطاقات الروحية التي تمثل دائماً العامل الأهم في رسم مجرى التاريخ وتحديد مصيره ، وهنالك القوى الغيبية التي تتدخل في عالم الحضور بشكل مباشر ، أو غير مباشر ، ولحكمة إلهية بعيدة المدى ، لتوجيه التاريخ وجهة دون أخرى ، وفهم التاريخ لا يتم – إذن – إلا باسهام الطاقات الروحية والحيوية للإنسان في عملية التقييم .

(٣)

وتاريخنا الإسلامي بالذات بحاجة أكثر إلحاحاً إلى تطبيق منهج دقيق في دراسته ، منهج يمتلك من الامكانات ما يستطيع بها ان يتوغل إلى أعماق هذا التاريخ ويستبطن معناه ، ويحلل منعطفاته ، ويحدد معالمه الرئيسية ، ويستكنه الأهداف التي كان – ولا يزال – يصب طاقاته في بحرها العظيم.. ان هذا التاريخ يختلف عن غيره اساساً لأنه يمثل أوسع وأعمق تعبير عن (تاريخ) ينبثق عن

= وتقديمها موحدة حية ، ووضعها في مكانها الصحيح من حركة التاريخ .

إن البحث التاريخي يحتاج – أكثر من أي حقل آخر – إلى إلمام واسع بشتى جوانب المعرفة ، وإلى إدراك عميق لقضايا الأدب والفن والفلسفة ، فضلا عن أنه يحتاج إلى تجربة ذاتية وإدراك باطني ، وهذان لا يتأتيان إلا بدراسة الجوانب المختلفة من الحياة .

دين عظيم ، وعن حضارة يبعثها لقاء خلاق بين قوى السماء والأرض . ان هذا التاريخ لم تسهم في صنعه فاعلية دون فاعلية ، ولا دفعه إلى الوجود عنصر دون عنصر ، أو عامل دون عامل . انه يتميز بأنه نتاج كلّ القوى والعوامل والطاقات التي أودعها الله في الكون والعالم ، والتي منحها للإنسان . لذا فاننا نجد في هذا التاريخ قوى المادة والروح ، والطبيعة والغيب ، والتراب والحركة ، والقدر والحرية .. وان تطبيق أي منهج قاصر في دراسة هذا التاريخ ، من شأنه ان يغفل أحد هذه العوامل ، سيؤدي — ولا شك — إلى فهم ناقص ، وتحليل مضطرب لمعنى هذا التاريخ وطبيعة مجراه .

ان المهندس الميكانيكي لا يطلب منه رسم تصميم لعمارة شاهقة ، وعالم الفيزياء لا يجازف باقامة جسر على نهر عظيم ، والمهندس المعماري بدون أدوات الرسم ومستلزماته — لا يستطيع تجسيد ما في مخيلته من مساحات وابعاد . وهكذا فإن تطبيق المنهج المادي ، العلماني ، الغربي ، في دراسة تاريخنا ، احدث من الاخطاء والمهازل ما يجب علينا ان نوقفه عند حده ، وان نبدأ — نحن — من جديد ، بتقديم تاريخنا ودراسته وفق منهج يقدم من الأدوات والامكانات ما يساعد المؤرخ المسلم على دراسة هذا التاريخ .

ولا ريب أنّ من أهم سمات هذا المنهج ، أنه منهج شامل لكل الدوافع والقيم التي تصنع التاريخ ، غير عاجز أمام حدود الواقع الملموس الظاهر للعيان، ومنهج يتيح من الرؤية ما يستطيع المؤرخ معها ان يقدم تقييماً اصيلاً لاحداث التاريخ الإسلامي وشخصياته . إن تاريخنا الإسلامي بحاجة ماسّة إلى طبقة جديدة من المؤرخين ، يعيدون تحليل هذا التاريخ وعرضه بكل حيويته وتدفقه ، وعناصره الظاهرة والباطنة ، مما سيتيح بلا شك ، فهماً أعمق لهذا التاريخ ، وادراكاً أشد تركيزاً لعناصر تطوره ، ورؤية أكثر وضوحاً لخطوط سيره ومنعطفاته الفاصلة . لقد عثر التاريخ الأوربي — كما رأينا — على مؤرخين أعادوا إليه الحياة ، وقدموه في اطار حي ، كصورة فنية رائعة بكل عناصرها : الخلفية والتكوين ، والأضواء والظلال ، والألوان والمساحات . ومن زاوية عرقية

اقليمية، أو مذهبية متعصبة ، قدموا تاريخ العالم . ونحن نلمح في صورهم الشاملة هذه اغفالاً متعمداً ــ أو غير متعمد ــ لمساحة من أهم مساحات التاريخ البشري تلك التي يحتلها التاريخ الإسلامي الذي يتصف ــ أكثر من غيره ــ بأن بناءه قام على جل عناصر تقويم الإنسان والعالم . ومن ثم فإن عرضه وتفسيره لا يتم إلا وفق منهاج حي شامل . وحينذاك سيجد التاريخ الإسلامي مفتاحه الضائع الذي ما حاول الاكاديميون بواسطته يوماً الدخول إلى هذا التاريخ من بابه الواسع المفتوح(٥) .

(٤)

والحق ان تجاوز الشكل إلى المعنى ، وتحطيم الاطر المادية للوقائع صوب عوالم الشمول وما وراء الحس ، لن يتم إلا باعتماد الدافع الروحي لتحقيق هذا الهدف العظيم . إن ما يسمونه اليوم بالمذهب الحضاري ليس سوى تأكيد على هذا المعنى ، على أن التشبث بالروح هو المنفذ الوحيد لاختراق الجدران المادية التي تحيط بمؤرخي الحضارة المعاصرة . والمؤرخ المسلم لا يتعسّف هذا التشبث الصوفي ، انه يريد فقط الاندماج في الحقيقة الكلية بكل ما تحويه من مادة وروح ، والانطلاق إلى عالم الشفافية والصفاء ، والاستعلاء على الجزئيات الثقيلة الجامدة إلى عالم الحركة والمعرفة الأكيدة . انه ــ بهذا ــ لا يتعدى منطق الوجود ، ولا يتمرد على ناموس الكون .. على العكس .. انه بهذا يلتزم منطق الوجود ، ويبحر في المجرى العظيم للنواميس الكبرى ..

ومن ثم يجيء الجواب في مكانه الطبيعي عن السؤال الملح الذي يتبادر إلى الأذهان : لماذا عمر بن عبد العزيز ؟ ذلكم هو سبب الاختيار : ان عمر بن عبد العزيز تمكن ، بانقلابه العظيم ، من اعادة الانسجام بين الإنسان وبين

---

(٥) انظر : نقد للاكاديمية وتأمل في التاريخ .

نواميس الكون ، وتحقيق وفاق رائع بين بني آدم وبين ما يحيط بهم من أشياء . وضرب لنا مثلاً عملياً مشهوداً عن امكانية العودة إلى هذا الانسجام ، وذلك الوفاق ، في أي لحظة ،أو في أي عصر يصح العزم فيه وتخلص النية لله .. هذا هو مفهوم الإسلام الذي جاء به رسل الله جميعاً ، ووضع محمد ، عليه السلام ، ملامحه الأخيرة الثابتة ، وسماته التي لا تزول .

إن الإسلام معناه أن يسلم الإنسان نفسه ووجوده كلية لخالق الملكوت ولشريعته بمعنى آخر أن يندمج في الناموس الذي يحرك الكون إلى هدفه ، وان يغدو متساوقاً معه في مجرياته الأبدية ، التي تتحرك بين ضفتي الحق والعدل الأزليين صوب مصيرها العظيم. إن الأشياء والحيوات جميعاً ، ما عدا الإنسان، مفروض عليها هذا التساوق مع الناموس ، هذا الاندماج فيه والتحرك خلاله ، ومن ثم فهي جميعاً مسلمة أمرها لله ، وهي جميعاً تمجده بهذه الطاعة ، وتسبح بحمده ، وتقدس لقدرته المعجزة الخلاقة .

أما الإنسان ، فلم يفرض عليه هذا التساوق ، أو هذا الإسلام فرضاً ، اعطي العقل والإرادة ، وله بهما أن يحقق هذا الانسجام أو أن يتمرد عليه ، فيشذ ويضيع . ومهمة المؤرخ والفنان المسلم ان يبين للناس كم هو محزن هذا الضياع المتأتي عن الشذوذ عن الناموس ، عن عدم الإسلام لله والطاعة له . وكم هو نشاز وقبيح هذا المروق عن النواميس الكبرى التي تضم في طياتها مخلوقات الله جميعاً . ان المؤرخ أو الفنان المسلم يمكن أن يعرضا للناس صوراً وسيراً واحداثاً وقصائد ومقطوعات وتشكيلات عن عظمة الارتباطات في بنية الكون، وعن ايجابيتها وجمالها من جهة ، وان يقولا للعالم – من جهة أخرى – ان الإنسان ما دام في مداه البعيد محكوماً بأمر الله وقدره – شاء أم أبى – فلماذا يتمرد ويخرج عليه في مدى عقله وارادته ، أي في مدى اختياره ، هذا المدى الضئيل في مساحات الكون ، والذي اعطي للانسان تكريماً له وتفضيلا عن باقي مخلوقات الله ؟ ، وانه – بعدم استفادته من هذا العطاء – يكون قد دمر نفسه وسحق امكاناته ، وضحى بالفرصة الثمينة التي وهبت له : فرصة الاختيار

في ان يسهم – عن علم وارادة – في التساوق والانسجام مع نواميس الكون . ان مؤرخاً أو فناناً كهذا ، بكشفه عن العلاقات الظاهرة والخفية في مسرح الكون يكون قد أدى دوره، وذلك بمحاولة الوصول الى الحق المتمثل بهذه الارتباطات وتساوقها مع الناموس الأكبر . ولن يتأتى له تحقيق هذا الهدف إلا بتجاوز المظاهر الخارجية للوقائع والأشياء صوب حقائقها ومعانيها .

(٥)

ان الذي يقف في الجهة المضادة للمؤرخ أو الفنان المسلم هو المؤرخ أو الفنان الماركسي الذي يؤكد على كل ما هو حسّي ، مادي ، يومي ، ثقيل . انك لن تجد في اعماله سوى المطرقة الحديدية ، والمنجل الفولاذي ، والتروس الضخمة ، والأيدي ذات العضل الضخم المفتول .. ولكن الأرضية والهدف لن تقدم لنا أبداً ما يريده أصحاب هذا المذهب من خلق الوجدان الثوري أو الانقلابي في نفس الإنسان ، وبعث التمرد على الظلم والتفاوت الطبقي في حسّه ان ما تقدمه لنا – أعمال كهذه – هو الحسّي الكئيب الثقيل المشدود إلى الأرض والشعور العميق بالقهر المادي المسلّط على الإنسان ، بالحتمية التي تحكمه من خارج ، وتسد منافذه الداخلية والخارجية إلى الحرية ، إلى تجاوز الطعام والشراب صوب عالم القيم والمعتقدات، والانفتاح على مساحات الكون الواسعة الممتدة بلا حدود .

ان ما يريده عملٌ كهذا من الإنسان هو أن يتجرد هذا الإنسان عن وجدانه عن حسّه الباطني ، عن تطلعاته ومطامحه الروحية ، وان يدخل ساحة الفكر الماركسي انساناً مادياً لا يملك غير اللحم والدم ، ولا يستجيب إلا لنداءات اللحم والدم .. ان يتخلى عن مطامحه الذاتية ، ويجمد شعوره الحاد وتوفزه الذي لا ينتهي ، ويوقف استجابته الحسّاسة للأشياء والحوادث في مدى العالم الفسيح .. وأنى لمؤرخ أو فنان أن يتساوق – بفطرته الصافية وحسّه الكوني العميق – مع

ما هو خارج عن الفطرة ، مقيد للحركة في مدى محدود تضيق معه الأنفاس ؟!

ان المدرسة المادية عموماً ، تسعى ليس إلى توسيع مساحة الجزئيات ، بل وإلى تكثيفها وتثقيلها كذلك ، حتّى تغدو — كما قلنا — سوراً يسد طريق الإنسان إلى الأشياء الأخرى ، وإلى ادراك ما بينها من علاقات كلية .. وهذا ، إذا ما انتقلنا به إلى حياتنا الاجتماعية الراهنة ، يفسّر لنا إلى حدّ كبير كم هي تافهة وجزئية وثقيلة هذه الحياة .. ان الحدث اليومي .. اسعار المواد الغذائية .. سعينا المادي التافه الممدود .. اتصالاتنا الفردية العادية .. تستهلك معظم احاديثنا ، ومن ثم تتضخم وتتسع حتّى تغطي على كل مطامحنا الكبرى وآمالنا ، وتعزلنا عن بقية العلائق والأشياء ، فتسحق وجداننا وتجردنا من آدميتنا .. ان تكثيف هذه الجزئيات وتعميمها يشكل احدى مآسي حضارتنا الراهنة التي يرفضها الإسلام على لسان رسوله العظيم : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً ، أو ليصمت) .. ولو أن كل إنسان أراد أن يتحدث قال خيراً ، ولو أن كل مفكر أراد أن يعمل عمل خيرا ، لاستحالت حياتنا إلى ينبوع أبدي لا ينضب له معين من مشاعر وجدانية ، وصفاء نفسي ، واتقاد ذهني ، واتصال دائم بالناموس العظيم الذي يربط بين الأشياء والحيوات والخلائق في مجراه الأبدي صوب الهدف ، عبر ضفتين من صنع الله وقدره : الحق والعدل ! !

لقد عشت طيلة حياتي الاكاديمية ، في مرحلتي الدراسة والتدريس ، فيما يمكن تسميته حصاراً مدرسياً يفرض على الباحثين أقصى درجات الجفاف والسطحية في البحث التاريخي ، ويطلب منهم ان يطفوا على سطح النصوص ، يجمعونها ، ولا يسبرون غور الأشخاص والأحداث ، لأن كل محاولة من هذا القبيل ليست سوى نزعة أدبية لا تنسجم وعلم التاريخ . ومن ثم جاء بحثي عن (عماد الدين زنكي) ثمرة لهذا الاتجاه الاكاديمي بكل ما يحويه من نقائص وعيوب .

أما هنا ، فقد سعيت — قدر طاقتي — إلى تجاوز تلك القيود ، ولكن ليس أبداً على حساب (العلم) و (الموضوعية) و (الحياد) ، وهذا يبدو واضحاً في اعتماد الطريقة الأمينة في تثبيت المصادر والمراجع في كل صفحة من صفحات البحث ، وعدم اغفال ذكر مصدر أية كلمة أو عبارة أو حادثة في مكانها من الموضوع ، هذا فضلاً عن التزام الأسلوب المنطقي في تقسيم البحث إلى فصول تناولت في كل منها ، وبوضوح ، جانباً واحداً من الجوانب العديدة لمنجزات عمر : اقتصادياً كان أم سياسياً أم حربياً ، ثقافياً كان أم إدارياً .

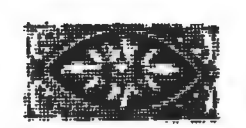
ان معظم الأبحاث الحديثة تتطرف أما صوب الاكاديمية فتملأ صفحات بحوثها بالهوامش التي لا حصر لها ، تثقل على القارىء ، وتختنق معها المتون نفسها ، وتسعى إلى تكديس النصوص تكديساً آلياً لا حركة فيه ، أو — أن هذه الأبحاث — تتطرف صوب الاتجاه المضاد فتقرب من الأدب المحض ، والرواية التاريخية ، والخواطر والمذكرات التي لا تغني عن التاريخ الجاد شيئاً .

ان عشرات من الابحاث التاريخية الحديثة نقرؤها ، من ألفها إلى يائها ، فلا نجد اشارة إلى مصدر واحد مما اعتمد عليه الباحث ، وهو حتى في حالة اشارته لهذا المصدر فإنه لا يكلف نفسه عناء تحديد الجزء أو الصفحة التي نقل عنها النص التاريخي . وهذا — بدون شك — يضعف الثقة في ابحاث كهذه ، ويعرضها للكثير الكثير من الشكوك .

وآخرون يكتفون فقط بذكر قائمة بالمصادر في نهاية البحث ، وهذا أيضاً لا يغني عن الحق شيئاً .. والحل الوسط العادل ، في مجال الأسلوب ، هو احداث توازن في شتى مجالات البحث التاريخي : توازن بين المتون والهوامش ، وتوازن بين مساحات الفصل وتوازن بين التحليل الشخصي وبين النقل والاقتباس عن المصادر ، مع ضرورة تحديد هذه المصادر في مكانها من البحث .. واخيراً ، توازن بين النزعة الجمالية للاسلوب التاريخي ، وبين التركيز والجد العلمي ، وعدم الخروج عن وحدة الموضوع .

ان التعاليم التي تقدمها لنا رحلتنا هذه مع حفيد ابن الخطاب .. كثيرة ، لا حصر لها .. ولماذا نطيل على القارىء ، ونقف به طويلاً على الاعتاب ؛ ألم يأن لنا بعد ان نفتح الباب ، وأن ندخل لنرى بأم أعيننا ؟!

د . عماد الدين



الفصل الأول

خطوات ثلاث على طريق الانقلاب


صفحة فارغة

(١)

المنحنى النفسي

« إن لي نفساً تواقة ، لم تتق إلى منزلة ،
إلا تاقت إلى ما هي أرفع منها . حتى
بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدهـا
منزلة ، وانها اليوم قد تاقت إلى الجنة ! !

عمر بن عبد العزيز


صفحة فارغة

كثيرون هم اولئك الذين رحلوا ، في يوم من أيام العمر ، في ساعة من ساعات الوعي العميق ، في لحظة من تلك اللحظات التي تتمزق فيها الحجب عن المعاني والأشياء ، فتبدو أشد نضارة وأعمق مغزى .. كثيرون هم أولئك الذين رحلوا ، صاعدين هابطين ، منحنى حياتهم ، ليصلوا إلى أهدافهم المنشودة التي بعثهم إليها ذلك اليوم الفريد من أيام العمر ، كاشفاً أمامهم القيم والأقدار.. كل منا ، أحس ، وهو يصل قمة المنحنى ، عبث حياته الماضية ، وتفاهة أيامه الخاوية ، وسخف ملايين من اللحظات التي عاشها ، قبل الرحيل ، وقبل ان يعبر حدود ذاته المغلقة على المظاهر والتكرار واللامسؤولية ، مجتازاً الثغور إلى مصيره العظيم ..

ومن ثم تختلف الرحلات .. فمن الناس من يرحل من الخارج إلى الداخل ليكشف عالمه الذاتي ، ويشده إلى ما يسعده ويمنّيه . ومن الناس — وهنا تبدو الروعة والمأساة في وقت واحد — من يرحل من الداخل إلى الداخل ، على منحنى صعب ، لأن الرحلة هذه ليست رحلة خطوات على الأرض ، ولكنها رحلة روح واعصاب ، على مساحات الوجدان . والإنسان العظيم هو الذي يبلغ قمة المنحنى ورأسه دائماً إلى فوق ، واعصابه دائماً مشدودة ، مشيحاً عن كل الاغراءات ، التي تبرز هنا وهناك ، معرضاً — ببطولة — عن كل النداءات التي تدعوه إلى الرجوع والانحدار ثانية إلى أسفل المنحنى حيث يطفو الإنسان — خارج حدود ذاته — على المظاهر والتكرار واللامسؤولية .

في رحلة كهذه يهيىء الله سبحانه للبصيرة النافذة وعياً أبدياً دفاقاً ، وإرادة حديدية قاطعة ، وقولاً فصلا في لحظات الاختيار المخيفة ، وسماحة ونبلاً لا حدود لهما في الأيام التي يجد الإنسان نفسه فيها مدفوعاً دفعاً إلى القتل وسفك الدماء . في رحلة كهذه — لم تتهيأ إلا للقلة الفذة — يرنو الإنسان إلى مصيره عبر مصير أمته ، بشوق عظيم . ثم إذا بشوقه هذا ينصب كالمطر السخي على رمال الصحراء المحترقة فيحيي الموات ، وينشر الخضرة في كل مكان ، وينبت أشجاراً ظليلة ، ممتدة الجذور في أعماق الأرض ، ومرفوعة الأغصان في أعالي السماوات .. في رحلة كهذه — مصنوعة على عين الله ورعايته — يصنع تاريخ الأمم والأجيال ، تقام الدول وتشمخ الحضارات ، وتذوب كل الآلام القديمة في وجدان الأمة ، وتندمل كل الجراحات المتقرحة في جسد الجماهير ويزول كل عذاب مضنٍ عن أرواحها . وفي رحلة كهذه ينصب العدل والحب على الجميع ، فيشدهم ، قلباً إلى قلب ، ووجداناً إلى وجدان ، فتسقط من أيديهم السكاكين ، ويتلاشى من قلوبهم الحقد ، ويرفعون أعينهم جميعاً ، في لحظة جماعية نادرة ، إلى المثل الأعلى .. سائرين صفاً واحداً ، وراء الرحالة العظيم الذي استطاع ، وهو في قمه منحناه ، ان يصنع ، في سنتين وخمسة أشهر فحسب ، تاريخاً جديداً للمسلمين ، ان يتصدى ، كالطود الشامخ ، لتيار التاريخ الصاخب الدفاق باتجاه لا يرضي الله ورسوله ، وان يلوي عنقه ويوجهه وجهة راشدة من جديد ، كتلك الوجهة التي تدفق فيها في عهد الرسول العظيم وخلفائه الراشدين ..

اظنكم قد عرفتم من هو الرحالة العظيم هذا .. انه عمر بن عبد العزيز ، واظنكم تتساءلون : لماذا عمر ؟ وكثيرون هم الذين بعث الإسلام فيهم تعشقاً عجيباً لصعود المنحنى النفسي ، عبر الجوع والألم والحزن ، إلى القمة ، مجتازين درجات لا قياس لها من الإسلام والإيمان والتقوى .. ثم الاحسان ، حيث يتحمل الإنسان — وهو هنا في القمة — المسؤولية العظمى التي أبت السماوات والأرض ان يحملنها .. الاحسان .. حيث يتصل الإنسان بالله ، بعد أن يكون الجوع

والألم والحزن ، قد غسل كل ما يعلق بوجدانه مما لا يؤهله لهذا الاتصال العظيم برب الملكوت ..

كثيرة إذن هي الرحلات التي شهدها تاريخ الإسلام من الخارج إلى الخارج ومن الخارج إلى الداخل ، ومن الداخل إلى الداخل .. والحق معكم .. فهي جميعاً رحلات فذة في عالم الحركة والعقيدة ، وفي عالم النفس والوجدان .. ولا بد أن نتملى حقيقتها وابعادها في يوم من الأيام .. ولكن هذا !! هذا الإنسان الذي عاش مترفاً يجر أثوابه على الأرض بخيلاء ، وتفوح رائحة عطره عبر الطرقات التي يمر بها ، ويمشي مشيته (العمرية) التي كانت الجواري يتعلمنها من حسنها وتبختره فيها !! هذا الذي ولد في بيت حاكم ، ونشأ نشأة الأمراء المترفين ، والذي ما عرف عنه يوماً إلا الظرف والاناقة في اللباس والمظهر .. هذا الذي كانت الحلة تشترى له بألف دينار ، فإذا لبسها استخشنها ولم يستحسنها !! هذا الذي كان يتأخر أحياناً عن الصلاة لكي تتم مرجلته تصفيف شعره ، والذي كان العنبر يرى على لحيته كالملح !! هذا الذي كانوا يقولون عنه أنه أحسن الناس لباساً ، واطيب الناس ريحاً ، واحفل الناس في مشيته !! هذا الذي بلغت غلته أربعين ألف دينار في السنة ، والذي كان يقول : لو ضافني أهل قرية لوجدت ما يعمهم .. هذا الذي وصف بأنه كان من أعظم الأمويين ترفهاً وتملكاً ، وانه غذي بالملك ونشأ فيه .. هذا الذي عرف أنه (شامة بين الناس) وحرص على تقليده الظرفاء والمتنعمون .. هذا الذي كان يقول : لقد خفت ان يعجز ما قسم الله لي عن كسوتي ، وما لبست ثوباً قط فرآه الناس إلا خيل إلي أنه قد بلي !! هذا الذي فتح خلفاء كبار طريق الحياة والنعمة واسعاً عريضاً أمام شبابه الدافق الزاهي الريان .. هذا الرجل يقفز في لحظة من نعمائه هذه ، ومن زهوه ، وترفه هذا ، ومن الطريق الذي تملؤه الروائح العطرة والجواري والألوان .. إلى قمة منحنى حياته العظيمة ، ويحمل مسؤوليته الثقيلة ببطولة لم يشهد لها التاريخ إلا في القليل النادر ، نظيراً في يوم من أيامه الطويلة الحافلة .. انظروا :

ها هو ، بعد ان ينتهي من خطبته الأولى أثر تسلمه الخلافة ، يهم بمغادرة المسجد لمباشرة مهام منصبه التي لا تنتهي ، فإذا بموكب الخلفاء ينتظره عند الباب أشبه بالمهرجان .. خيول ومراكب وسرادقات وفرسان .. وألوان وصخب .. فيشيح عن هذا كله ويقول : ائتوني ببغلتي !! ويتقدم إليه أصحاب المراكب يسألونه العلوفة وارزاق خدمة الخيول فيجيبهم : «ابعثوا بها إلى أمصار الشام يبيعونها فيمن يريدون، واجعلوا أثمانها في مال الله، تكفيني بغلتي هذه الشهباء!!»[1]

ويجتاز الطريق ، من المسجد صوب الدار ، فإذا بالطريق مغطى بالفرش والسجاد الثمين الذي لم يستعمل من قبل ، والذي كان من تقاليد بني مروان ان يضعوه لكل خليفة جديد كي تطأه قدماه أول ما تطأ ، فجعل عمر يركله برجله ، حتى يفضي أخيراً إلى الحصير ، ويلتفت إلى مزاحم مولاه قائلاً : ضم هذا لأموال المسلمين !![2]

ويتقدم إليه أهل سليمان بن عبد الملك ، مشيرين إلى مخلفات سليمان في دار الامارة وقائلين : هذا لك وهذا لنا !! فيسألهم عمر : وما هذا وما هذا ؟ فيقولون : هذا مما لبس الخليفة — السابق — من الثياب ، ومس من الطيب فهو لولده ، وما لم يمس ولم يلبس فهو للخليفة بعده ، وهو لك .. فيجيبهم عمر بالقول الفصل : ما هذا لي ولا لسليمان ولا لكم، ولكن .. يا مزاحم ضم هذا كله إلى بيت مال المسلمين !![3]

لقد تغيرت سيرته ، ساعة تحمله المسؤولية، فكأنه لا يتصل بماضيه وذكرياته ولا بآبائه وأهله بصلة ، ولا يعرف غير جده عمر أسوة له : رد الجواري إلى أهلهن وبلادهن ، ورد المظالم ، والغى المجالس التي اشبهت مجالس الأباطرة ، وتمسكت بسنن كسرى وقيصر ، إلى بساطتها الأولى ووضعها الإسلامي، فنهى

---

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٥٣ .
(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٣٩ .
(٣) ابن عبد الحكم ص ٣٩ — ٤٠ .

عن القيام له ، وابتدأ بالسلام وأباح دخول المسلمين عليه بغير إذن [٤].

والآن ، تعالوا معي لندخل بيت عمر بن عبد العزيز ، لنرى حياته الداخلية عن كثب ، ولنبحث عن الخيط الذي يشد حياته الجديدة هذه بحياته القديمة وذكرياته . وعبثاً بحثنا عن هذا الخيط .. ان عمر قد اجتاز مسافةً شاسعة في أعماق نفسه وهو يصعد المنحنى ، وخلف وراءه آمالاً جمة وترفاً واسعاً ونعيماً وملكاً كبيراً .. وها هو الآن في القمة وكأنه ليس ذاك .. ويقيناً أنه ليس ذاك . ان تجربته النفسية قد صيغت من جديد على عين الله ورعايته ، وتمزقت كل الخيوط التي تربط دائماً وحدة الإنسان النفسية وتشده إلى منحدرات ماضيه .

ان الشاب الذي كان يرفض هناك حلة بألف دينار ، لأن خشونتها تؤذي مسّ بشرته الطرية ، نجده هنا ،ماذا ؟ انظروا : ها هم المصلون — يوم الجمعة— ينتظرون خليفتهم ليلقي خطبته عليهم .. المسجد مكتظ بهم ، والأفواج التي جاءت متأخرة بعض الوقت لم تجد لها مكاناً إلا في الشوارع والطرقات المحيطة بالمسجد .. وعمر لم يأت بعد .. انه لا زال غائباً عن آلاف العيون المترقبة التي تنتظر كلمات صانع التاريخ الجديد ، كما ينتظر العطشى ، في الأرض المجدبة ، قطرات المطر وقطع السحاب .. ثم ..

ها هو عمر يأتي ، وقميصه لما يجف بعد .. ويعتذر للمنتظرين أنه اضطر إلى هذا التأخر انتظاراً لقميصه الوحيد ان يجف .. وانظروا : ها هن بناته يقبلن كارهات على الطعام ، الذي ظل يتكرر عليهن حتى عافته أنفسهن عدس وبصل ويعرف عمر — باحساسه الرقيق العميق — كم هي مرة هذه القسوة التي سلطها على بناته اختياره لحياة جديدة مسؤولة ، صعبة قاسية ، فيبكي .. « يا بناتي ما ينفعكن ان تتعشين الألوان ، ويمر بأبيكن إلى النار ؟ » ! !

ونظل مع عمر في بيته لنطلع — عن كثب — على جوانب أخرى من الحياة الداخلية لأكبر حاكم في الأرض ، ونرى رغباته الذاتية ، وسلوكه الشخصي ،

---

(٤) الندوي : رجال الفكر والدعوة في الإسلام ، ص ٣٢ — ٣٣ .

بعيداً عن منصب الخلافة العظيم ..

ها هو موسم الحج قد أقبل .. والمسلمون بدأوا رحلتهم إلى بيت الله الحرام من كل مكان ، وعلى كل ضامر ، وعبر كل فج عميق . ويتخيل عمر نفسه واقفاً على عرفات جنباً لجنب مع الملايين من أبناء أمته .. حفاة عراة ، متجردين أمام اللهالواحد القهار..متذكرين – بشوقوخوف – اليوم الأعظم الذي سيقفون فيه هكذا أمام الله ليوفيهم حسابهم . وهو هو المشهد الذي ما فارق حس عمر لحظة من زمن خلافته ومسؤوليته .. ثم يتخيل نفسه يطوف حول الكعبة متنكباً خطى الرسول الشريفة .. ثم ما يلبث ان يرى نفسه في المسجد النبوي في المدينة . ذارفاً دموع الشوق عند قبر جده ابن الخطاب .. ولكن خيال عمر سرعان ما يصطدم بالواقع القاسي .. فمن أين لديه المال الكافي ليحج به ؟ ويسأل مولاه :

– اني قد اشتهيت الحج فهل عندك شيء ؟

– بضعة عشر ديناراً !!

– وما تقع مني ؟

وتمر لحظات حزينة يلتفت بعدها مولاه قائلاً :

– يا أمير المؤمنين ! تجهز فقد جاءنا سبعة عشر ألف دينار من بعض مال بني مروان ..

فيرد عليه عمر دون تمهل ولا تردد ، كابتاً شوقه في زاوية من زوايا وجدانه المفتوح :

– اجعلها في بيت المال .. فان تكن حلالا فقد أخذنا منها ما يكفينا ، وان تكن حراماً فكفانا ما أصبنا منها !!

وأنى لعمر أن يحج .. ومن أين له ان يجمع المال الكافي لرحلته هذه ، بينما نفقته اليومية لا تزيد على درهمين !![5]

وينظر يوماً فيرى لدى زوجته – فاطمة بنت عبد الملك – عقداً رائعاً من

---

(٥) ابن عبد الحكم ص ٦٢ – ٦٣ .

جوهر ثمين ، لم ير مثله ، كان أبوها عبد الملك قد أهداها إياه .. وبدافع من تقوى عمر العارمة ، وحرصه العجيب على مصلحة المسلمين ، وخوفه الدائم من كل ما فيه شبهة ظلم ، يتقدم إلى زوجته ليضعها أمام لحظة اختيار فاصلة :

ـ اختاري ، أما ان تردي حليك إلى بيت المال ، وأما ان تأذني لي في فراقك ، فاني أكره أن أكون أنا وهو في بيت واحد ! !

ـ لا .. بل أنا اختارك عليه وعلى اضعافه ..

اجابة متوقعة من زوجة عمر بن عبد العزيز الذي سرعان ما يأمر بالعقد فيوضع في بيت مال المسلمين .. وعندما يموت عمر ، ويتولى الخلافة من بعده يزيد بن عبد الملك ، يقول لاخته فاطمة : ان شئت رددته إليك . لكن فاطمة ، هذه الزوجة البرة التي علمها زوجها كيف يكون التطوع والتنازل عن كل ما هو شخصي في سبيل المصلحة العامة ، هذه الزوجة الوفية ترد على العرض قائلة : لا والله ! ! لا أطيب به نفساً في حياته ، وارجع فيه بعد موته ! ![6]

ومرة ، بعثت إليه ابنته بلؤلؤة وقالت له : ان رأيت ان تبعث لي بأخت لها حتى اجعلها في أذني ، فأرسل عمر إليها جمر تين قائلاً : ان استطعت ان تجعلي هاتين الجمرتين في أذنيك ، بعثت إليك بأخت لها ! ![7]

ونمضي مع عمر في بيته ، وخلال حياته الخاصة .. فهنا يمكن ان نجد بوضوح مزيداً من الاشارات على الانقلاب النفسي الذي احدثته هزة العقيدة والمسؤولية والخوف من الله في كيان الخليفة .. فيما مضى كان يستخشن الحلة المشتراة بألف دينار ولا يستحسنها ، واليوم يستلين عمر قميصاً بدواهم معدودات[8] . فيما مضى كانت الروائح والعطور تفوح من ثياب عمر ، فتعمر الأزقة والطرقات التي يجتازها .. وها هو اليوم يتورع عن شم مسك الفيء ! ! .. فيما مضى لم

---

(٦) ابن عبد الحكم ص ٦٢ ، ابن الأثير : الكامل ٥ـ ٤١ – ٤٢ .

(٧) ابن عبد الحكم ص ١٥٦ .

(٨) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام ١ـ ٣٣٠ .

تكن قوة في الأرض تستطيع ان تجبره على تغيير مشيته المتبخترة ، واليوم يذكر بها فيقول : والله ما رأيتها كانت إلا جنوناً ! ! [٩] .. والشاب الذي كانت تساق إليه ألوان الأطعمة في الماضي ، ها هو اليوم يتورع عن تسخين الماء على مطبخ العامة .. والمترف المدلل الذي كانت الأضواء تغمره فيما مضى ، ها هو اليوم يسرع باطفاء الشمعة التي زيتها من بيت المال ، إذا شغله أحد بالسؤال عن شخصه ، كراهة لانفاق مال المسلمين في غير حاجاتهم ! ![١٠].. وحاجاتك يا حفيد بن الخطاب .. أليست لك حاجات ، وأنت أكبر خليفة في الدنيا ؟ ورغباتك الشريفة يا حفيد العادل .. أليست لك رغبات ، وأنت الذي كنت (شامة الناس) و (فتى بني أمية الذي يحرص على تقليده الظرفاء والمتنعمون)؟!

وقبل ان نغادر بيت عمر تعالوا لننظر .. ماذا ؟ ها هو ابنه قد مات ، وها هو أحد عماله يكتب إليه يعزيه فيه .. ويلتفت عمر إلى كاتبه : أجبه عني ! ! وبينما ينهمك الكاتب ببري القلم استعداداً للكتابة الواضحة العريضة.. يتلقى هذه التعليمات الصارمة من عمر الذي لم تستطع أحزان الموت والفراق ان تجعله يغفل لحظة عن مسؤوليته ازاء أموال الأمة ، وازاء حقيقة الموت : « أرق القلم فإنه أبقى للقرطاس ، وأوجز الحروف واكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإن هذا الأمر ، أمر كنا قد وطنا أنفسنا عليه ، فلما نزل لم ننكره والسلام »[١١] .

* * *

مئات الأمثلة والوقائع والشهادات ، يمكن أن نجدها في حنايا البيت الصغير الذي كان عمر يسوس منه الدنيا .. امثلة ووقائع وشهادات على التغيير العظيم الذي شهدته حياة عمر الجديدة بعد الخلافة .. تغييراً ارادياً بدأه عمر بأعماق

---

(٩) ابن سعد : طبقات ٥-٢٧٥ .
(١٠) ابن عبد الحكم ص ١٥٥ - ١٥٦ .
(١١) الطبري : تاريخ ٦-٥٧١ .

وجدانه وأخذ يصعد به صوب علاقاته الشخصية وزوجته وأبنائه . وبدون هذا التغيير ، وهذا التجرد في خلايا النفس ، وعلاقات الأهل والولد لا يمكن – بأي حال من الأحوال – ان يشهد التاريخ انقلاباً حقيقياً عميق الجذور .

مئات الأمثلة والوقائع والشهادات ، كل واحدة تسند الاخريات وتؤكدها وتقويها .. كل واحدة تتناغم مع الاخريات وتتوافق ، وتحيل حياة عمر سيمفونية بطولة لم يشهد لها التاريخ مثيلا إلا في القليل النادر .. يدخل على امرأته يوماً ويقول : يا فاطمة ، اعندك درهم اشتري به عنباً ؟ فتجيب ، والدهشة الممزوجة بالأسى ترتسم على وجهها : أنت يا أمير المؤمنين لا تقدر على درهم تشتري به عنباً ؟! فيجيب عمر ، كشأنه دائماً : هذا أهون علينا من معالجة الاغلال غداً في جهنم[١٢] !!

ويزوره يوماً جماعة من بني مروان ، فيحبسهم عنده ويقول لخبازه : إذا دعوت بالطعام فلا تعجل به .. ويتعالى النهار .. وبنو مروان قوم لم يعتادوا الجوع .. ويمر الخباز فيقول له عمر : ويحك ائتنا بطعامك !! فيهز الخباز رأسه ويتعمد الابطاء ، ويلتفت عمر إلى بني مروان قائلاً : هل لكم في سويق وتمر ؟ كان الجوع قد بلغ بهم مبلغاً لا يطاق .. وأنى لهم ان يرفضوا السويق والتمر ؟ فيؤتى به ويلتهمه الجميع بلذة ونهم ، وما أن يملأوا بطونهم حتى يجيء الخباز بالطعام ... فيمسكون عن الأكل .. ويبتسم عمر ابتسامة النصر ويسألهم : ألا تأكلون ؟ فيجيبون : والله – يا أمير المؤمنين – ما نقدر عليه .. ويلح عليهم فيمتنعون ، وأنى لهم ان يأكلوا وقد أشبعهم سويقاً وتمراً ؟! رهنا يكشف عمر عما دعاه إلى ذلك كله قائلاً : ويحكم يا بني مروان ، ففيم التقحم بالنار ؟! ثم يبكي ويبكي معه بنو مروان[١٣]!! . إذا كان الجائعون يستمرئون الطعام البسيط ، ويجدون فيه لذة لا تعد لها لذة ، ففيم الغلو والاسراف

(١٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٥٥ .

(١٣) ابن الجوزي : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١١٩ – ١٢٠ .

وفيم الترف والنعيم على حساب آلاف الجائعين والمحرومين .. وفيم التقحم بالنار ؟! هكذا كان جده ابن الخطاب يأكل الزيت والخبز اليابس ، ويصوم عن الطيبات ، ويقول أيام المجاعة : كيف يهمني أمر الرعية ، إذا لم يعنيني ما يعنيهم ؟

ـ كان عمر بن عبد العزيز يعجبه ان يتأدم بالعسل ، فطلب من أهله يوماً عسلاً ، فاعلموه أن ليس في البيت شيء منه ، ثم ما لبثوا ان جاءوه بمقدار منه ، فأكل منه فاعجبه ، فقال لأهله : من أين لكم هذا ؟ قالت امرأته : بعثت مولاي بدينارين على بغل البريد فاشتراه . فقال عمر : اقسمت عليك ان تأتيني به . فجاءته بعكة فيها عسل . فأمر عمر ببيعها ورد ثمنها إلى بيت المال ، ثم التفت إلى زوجته مؤنباً : اتعبت دواب المسلمين في شهوة عمر ، لو ينفع المسلمين قيئي لتقيأت[١٤] !!

وجاءته مرة سلتان من رطب الأردن فقال : ما هذا ؟ قالوا : رطب بعث به أمير الأردن . قال : علام جيء به ؟ قالوا : على دواب البريد . قال : فما جعلني الله أحق بدواب البريد من المسلمين . اخرجوهما فبيعوهما ، واجعلوا ثمنهما في علف دواب البريد[١٥].. وفي أحد الأيام جاءته عمته لتطالب بأموالها فرأته يتعشى خبزاً وملحاً وزيتاً . فقالت : يا أمير المؤمنين ، أتيت بحاجة لي ، ثم رأيت أن ابدأ بك قبل حاجتي . قال : وما ذاك يا عمة ؟ قالت : لو اتخذت لك طعاماً ألين من هذا !! قال : ليس عندي يا عمة ، ولو كان عندي لفعلت[١٦]

ومرّ في أحد أسفاره بدير على طريق دمشق ، فقدمت بين يديه اطباق مليئة بالفستق ، فقال : ما هذه ؟ قيل له : صاحب الدير يطعم الناس . قال : وهل يعرض عليهم كهذه الأطباق ؟ قيل : لا . فالتفت إلى صاحب الدير قائلاً :

---

(١٤) المصدر السابق ص ١٥٨ – ١٥٩ .
(١٥) ابن عبد الحكم ص ٥٤ .
(١٦) المصدر السابق ص ٦٣ – ٦٤ .

خذ طعامك[١٧]!!. ويدخل بيته يوماً ، يصحبه أحد ضيوفه . وما أن يحين موعد الطعام حتى يجذب عمر مائدة صغيرة عليها طبق واحد مغطىً بمنديل .. ويلمح دهشة ضيفه فيقول له : كل !! أين عيشنا اليوم من عيشنا إذ كنا بمصر؟! يرد عليه ضيفه لا شيء يا أمير المؤمنين .. فيقول عمر ، والعبرة تخنق الكلمات في صدره : لقد رأيتني ، ولو ضافني أهل قرية لوجدت ما يعمهم ، أين عيشنا هذا من عيشنا بالمدينة ؟! ثم ما يلبث ان يغلبه البكاء[١٨]. وذات يوم يمر بزوجته فاطمة ، فيضرب على كتفيها برفق ويقول : يا فاطمة ، لنمن ليالي دابق أنعم منا اليوم . فقالت : والله ما كنت على ذلك أقدر منك اليوم . فادبر عنها ، والحنين يعتصره ، وهو يقول : يا فاطمة اني أخاف النار .. يا فاطمة اني أخاف عذاب يوم عظيم[١٩] !!

كان أول شيء بدأ عمر به سياسةالتجرد الذاتي هذه أنه باع كل ممتلكاته، مزارع وماشية ومتاع وخيول وملابس وعطور وآلات ، وأشياء كثيرة أخرى بلغ ثمنها جميعاً ثلاث وعشرين ألف دينار ، ثم جعلها في سبيل الله ، واكتفى بدرهمين يأخذهما يومياً من بيت المال، غلت الأسعار أم رخصت[٢٠] . وأعلن : أنه لينبغي ان لا أبدأ بأول من نفسي !! ثم انتقل بعد هذا إلى أهل بيته فرد ما كان بأيديهم من المظالم ، ثم انتقل بعد ذلك ، ففعل بالناس ما فعله بنفسه وأهليه[٢١]وتأكيداً لتجرده من أمواله الخاصة ، قام بتمزيق سجلات مزارعه جميعاً[٢٢] .

جاءه يوماً من ماله بالبحرين ثلاثون ألف درهم ، فاسترجع ، ثم دعا

---

(١٧) ابن عبد الحكم ص ٥٧ .
(١٨) ابن الجوزي ص ١٥١ .
(١٩) ابن عبد الحكم ص ٤٩ — ٥٠ .
(٢٠) المصدر السابق ص ١٤٦ .
(٢١) ابن سعد ٥-٢٥١ — ٢٥٢ .
(٢٢) ابن عبد الحكم ص ٦٠ — ٦٢ .

مزاحماً مولاه وأمره برد هذه الأموال إلى بيت مال المسلمين[٢٣]. وكتب إلى أحد بنيه : بلغني أنك اشتريت فصّاً بألف درهم ، فبعه واشبع به ألف جائع ، واتخذ خاتماً من حديد[٢٤]. وتقدم إليه — مرة — أحد بنيه يطلب منه ان يزوجه ، وان يجعل صداقه من بيت المال ، وكان هذا الابن متزوجاً ، فلم يتمالك عمر من الغضب وكتب إلى ابنه : لعمر الله ، لقد أتاني كتابك تسألني ان أجمع لك بين الضرائر من بيت مال المسلمين ، وأبناء المهاجرين لا يجد أحدهم امرأة يستعفّ بها ، فلا اعرفن ما كتبت بمثل هذا .. ثم عرض عليه ان يبيع ما عنده من آنية ومتاع ، ويستعين بثمنه على الزواج[٢٥].

وما أروع هذا الحوار بين الأب وابنه ، وما أعمق مغزاه !! اجتمع الناس على عمر يبايعونه ، إثر دفن سليمان بن عبد الملك ، فتمزق جيب قميصه ابنه ، فقال عمر : يا بني ، اصلح جيب قميصك فانك لم تكن قط احوج إلى ذلك منك اليوم[٢٦] .

حتّى الموت ، وساعاته الصعبة ، لم تجعل عمر يحيد — ولو قيد شعرة — عن فهمه العميق للتجرد .. في هذه الساعات يدخل عليه مسلمة بن عبد الملك ليقول : يا أمير المؤمنين انك قد فغرت أفواه ولدك من هذا المال ، فلو وصيت بهم إلي وإلى نظرائي من قومك فكفوك مؤونتهم . ويتلفت عمر إلى أصحابه الجالسين جواره ويقول : اجلسوني . وما أن يجلسوه حتى يبدأ الكلام .. كلاماً يتدفق من رؤية واضحة لما يجب ان يكون عليه الحاكم إذا أراد فعلاً ان يحكم بما انزل الله .. « قد سمعت مقالتك يا مسلمة . أما قولك اني قد افرغت أفواه ولدي من هذا المال ، فوالله ما ظلمتهم حقاً هو لهم ، ولم أكن لاعطيهم شيئاً لغيرهم . وأما ما قلت في الوصية فان وصيي فيهم (الله الذي نزل الكتاب

(٢٣) ابن الجوزي ص ١٦٥ — ١٦٦ .
(٢٤) المصدر السابق ص ٢٧٥ .
(٢٥) ابن عبد الحكم ص ١٢٥ .
(٢٦) المصدر السابق ص ١٤٦ .

وهو يتولى الصالحين) » .. ويمضي عمر قائلاً « إنما ولد عمر بين أحد رجلين : أما رجل صالح فسيغنيه الله ، وأما غير ذلك ، فلن أكون أول من اعانه بالمال على معصية الله .. » ثم ما يلبث الخليفة ان يطلب احضار بنيه . وما ان يجتمعوا حوله ، وينظر إليهم ، حتّى تترقرق عيناه ويقول : بنفسي فتية تركتهم عالة لا شيء لهم .. ثم ينفجر بالبكاء وهو يناديهم ويطبع في اذهانهم الصغيرة رؤياه « يا بني اني قد تركت لكم خيراً كثيراً ، لا تمرون بأحد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لكم حقاً . يا بني اني قد مثلت بين الأمرين : أما أن تستغنوا وأدخل النار ، أو تفتقروا وأدخل الجنة[27] ، ثم يلتفت إلى مسلمة — وكان هذا قد أتى بمائة ألف دينار ليوصي عمر بها لبنيه — ويقول : أو خير من ذلك يا مسلمة ؟ ردها من حيث أخذتها .. ويؤخذ مسلمة بهذا الحق الواضح والتجرد العجيب ، فيهزه معناهما الإنساني ، فما يلبث ان يقول : جزاك الله عنا خيراً يا أمير المؤمنين ، والله لقد النت لنا قلوباً قاسية ، وجعلت لنا ذكراً في الصالحين ! ![28]

ولعلكم تتساءلون — وعمر بين يدي الموت — كم ترك خليفة الدنيا لبنيه ؟ إذن فاعلموا أنه لم يترك لهم سوى بضعة وعشرين ديناراً ، قسمت — بعد وفاته — اثني عشر ذكراً وست بنات[29] .. ويوماً جاءت امرأة إلى دار عمر لتعرض شكواها ، فرأت زوجته فاطمة وهي تغزل قطناً . أدارت بصرها في البيت فلم تر فيه شيئاً ذا بال ، فصاحت والدهشة تملك لبها : إنما جئت لاعمر بيتي من هذا البيت الخرب ؟! ويجيئها الجواب من فاطمة : إنما خرّب هذا البيت عمارة بيوت أمثالك[30] ! !. ومن ثم نعلم يقيناً ، ونحن نرى هذه الصورة المؤثرة ، ونسمع هذه الكلمات .. كيف تنجح الانقلابات الحقيقية في تاريخ الأمم والشعوب ! !

* * *

(٢٧) ابن عبد الحكم ص ١١٥ — ١١٦ .
(٢٨) المصدر السابق ص ١٢٤ .
(٢٩) ابن الجوزي ص ٢٩٥ .
(٣٠) ابن عبد الحكم ص ١٦٩ .

ليس هذا فحسب .. بل ان تجرد عمر وانسلاخه العجيب ، تجاوز حدود الماديات والأشكال ، وامتد بعيداً ، هناك في أعماق الوجدان ، وخفقات القلب وعصب الوجود .. ان قصته مع جاريته تهزنا من الأعماق .. قصة حب عميق لم تتح لها أعباء الخلافة ، واثقال المسؤولية ان تأخذ مجراها .. كانت هذه الجارية لفاطمة زوجة عمر ، وكانت تتميز بجمال فائق ، وكان عمر – قبل ان تفضي الخلافة إليه – معجباً بها .. ومراراً عديدة طلبها من زوجته وألح في الطلب ، فأبت فاطمة تلبية شوقه مدفوعة بغيرة النساء للنساء . وتفضي الخلافة إلى عمر وتحيط به المسؤولية من كل مكان ، وتشفق زوجته عليه وهي تراه يذوب حزناً وكمداً يوماً بعد يوم ، وهو يسوس الملايين ويجتاز بهم آلامهم وظلاماتهم ، فتدفع الجارية إليه ، بعد ان زينتها فزادتها جمالاً ، وما أن يراها عمر حتى ترتسم الفرحة على وجهه ، ولكنه ما يلبث أن يسألها : اخبريني لمن كنت ؟ وتحكي له قصتها .. ودون أي تردد يستدعي عمر غلاماً كانت الجارية قد استصفيت من أبيه ظلماً ، والحقت بجواري أحد امراء بني أمية .. وما ان يحضر الغلام ، قاطعاً مسافات الطريق الطويلة ، حتى يعلمه عمر عن عزمه على رد الجارية إليه ، فيقول الغلام : يا أمير المؤمنين هي لك . فيرد عمر : لا حاجة لي فيها .. فيقول الغلام : فابتعها مني إذن !! لكن عمر لم يتردد يوماً ، ازاء لحظة الاختيار ، مهما يكن جانبها الآخر صعباً ، ومراً كالعلقم ، ما دام الأمر يمس عقيدته الصلبة في التجرد والانسلاخ .. يلتفت إلى الغلام ويقول : لستُ إذن ممن ينهى النفس عن الهوى !! ويمضي الغلام بالجارية ، وقبل ان يغيبهما الطريق تلتفت الجارية إلى عمر قائلة : أين موجدتك بي يا أمير المؤمنين ؟ فيقول أمير المؤمنين ، الذي يعتصر الأسى قلبه : انها لعلى حالها ، ولقد ازدادت !! وتبقى – كما تقول الروايات – قصة هذا الحب العميق ، وهذا الأسى ، في نفس عمر ووجدانه حتى ساعة موته[٣١] .

* * *

---

(٣١) ابن الجوزي ص ١٥٥ – ١٥٦ .

وتتوالى الشهادات على تجرد عمر وانسلاخه .. من كل مكان .. علماء كبار ، ورجال حاشية وشهود عيان ، وملوك وأبناء وأقرباء وأمراء، ومتصوفون في القمة ، ومؤرخون .. كل منهم يقدم شهادته ويحكي رؤياه عن الخليفة الذي آثر الجوع والحرمان لكي تشبع أمته ، وتطوى صور الفقر والظلم والألم .. الحاكم الذي بلغ قمة الصفاء الروحي ، والدنيا بملذاتها ومتاعها بين يديه وتحت قدميه ... ونستدعي الشهود :

رجاء بن حيوة : لما استخلف عمر قوموا ثيابه اثنا عشر درهماً : كمته وعمامته وقباءه وخفيه ، وقميصه ورداءه[٣٢] .

مواطن من أهل الشام : رأيت عمر بخناصره يخطب الناس ، عليه قميص مرقوع[٣٣] .

امبراطور الروم : اني لست اعجب من الراهب ان اغلق بابه ورفض الدنيا ، وترهب وتعبد . ولكن أعجب ممن كانت الدنيا تحت قدميه فرفضها وترهب[٣٤] !!

خادم عمر : ان عمر لم يتملأ من طعام من يوم ولي حتى مات[٣٥] .

مواطن من أهل المدينة : رأيت عمر بالمدينة وهو أحسن الناس لباساً ، وأطيب الناس ريحاً ، واحفل الناس في مشيه ، ثم رأيته ، بعد ، يمشي مشية الرهبان ، فمن حدثك أن المشي سجية فلا تصدقه بعد عمر[٣٦] !!

مواطن من دمشق: ولي عمر بعد صلاة الجمعة ، فانكرت حاله في العصر[٣٧] !!

يونس بن أبي شبيب : شهدت عمر بن عبد العزيز ، وان حجزة ازاره لغائبة

---

(٣٢) ابن الجوزي ص ١٤٦ .

(٣٣) المصدر السابق ص ١٥٣ .

(٣٤) المصدر السابق ص ٢٨٩ .

(٣٥) ابن سعد ٥-٢٥٤ .

(٣٦) المصدر السابق ٥-٢٤٤ .

(٣٧) المصدر السابق ٥-٢٥١ .

في عكنه ، ثم رأيته بعد ما استخلف ، ولو شئت ان أعد اضلاعه من غير ان أمسها لفعلت[٣٨] .

عبد العزيز بن عمر : كانت غلة أبي حين افضت الخلافة إليه أربعين ألف دينار ، فلما توفي غدت اربعمائة دينار ، ولو بقي لنقصت[٣٩] .

عبدالله بن دينار : لم يرتزق عمر من بيت مال المسلمين شيئاً ، ولم يرزأه حتى مات[٤٠] .

مسلمة بن عبد الملك : رحم الله عمر بن عبد العزيز ، والله لقد هلك وما بلغ ابن له حظ شرف العطاء[٤١] .

عمرو بن ميمون : أتيت سليمان بن عبد الملك فرأيت عنده عمر وهو كأشد الرجال واغلظهم عنقاً . فما لبثت بعد ما استخلف إلا سنة ، حتى أتيته فخرج يصلي بنا الظهر ، وعليه قميص ثمنه دينار .. وقد نحل ودفت عنقه[٤٢] .

أبو سليمان الداراني : كان عمر أزهد من اويس القرني ، لأن عمر ملك الدنيا بحذافيرها وزهد فيها ، ولا ندري حال (اويس) لو ملك ما ملكه عمر كيف يكون ؟! ليس من جرب كمن لم يجرب[٤٣] !!

مالك بن دينار : يقولون مالك زاهد !! أي زهد عندي ؟! إنما الزاهد عمر ابن عبد العزيز ، أتته الدنيا فاغرة فاها ، فتركها جملة[٤٤] .

ولا أروع ، قبل ان نختتم شهادات الشهود ، ان نترك الاختيار هذه المرة لعمر بن عبد العزيز نفسه ، ليختار شاهده .. ها هو يستدعي المحدث الكبير أبا هريرة ليحدث عن الرسول العظيم بشهادة القمة : « ان من ورائكم عقبة كؤودا لا يجوزها إلا كل ضامر مهزول !! » حديث .. لو وضعنا — ونحن مزودون — صورة عمر ، الضامر المهزول ، نفسه ، وهو يردده ، لهز وجداننا وملأ أعيننا بالدموع .. وصدق رسول الله .

---

(٣٨) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٥٥ .

(٣٩) المصدر السابق ص ١٥٥ .

(٤٠) ابن سعد ٥-٢٩٦ .

(٤١) ابن الجوزي ص ٢٧٤ .

(٤٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٩-٢٠٨ .

(٤٤) المصدر السابق ٩/٢٠٢ .

(٢)

الوقــود

« ... فأجاب الرسول : أن تعبد
الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه
فإنه يراك ! ! » .

حديث شريف


صفحة فارغة

عبر الصفحات الماضية ، تابعنا عمر بن عبد العزيز وهو يصعد المنحنى الصعب الطويل صوب القمة ، وشد هنا .. ونحن نراه ، من بعيد ، وهو يخطو خطواته العملاقة مخلفاً وراءه ماضيه المترف ، وعالمه الطريف ، وحياته المليئة بالمتاع .. صاعداً صوب قمم التجرد والانسلاخ والزهد والحرمان .. ورأينا كيف أنه لم ينجح أحد يوماً نجاح عمر في رحلة الوجدان هذه .. رحلة أمير مدلل إلى عالم الزهد والجوع ، ليس من أجل نفسه ، وحاشاه ، ولكن من أجل أمته ، وبعد ذلك أو قبله من أجل يوم الحساب .. ولقد بلغ عمر القمة التي غبطه عليها كبار الزهاد وربانيو الأمة ، وتملينا ما قالوا كلمة كلمة ، وحرفاً حرفاً . .

وهنا يأتي السؤال الملح .. ترى .. ما هو الوقود الذي أحرق وجدان عمر واعصابه ، وأعطاه هذه الطاقة الهائلة على الاجتياز والصعود ؟ ما هي القوة الداخلية التي فجرت في قلب عمر وضميره هذا العشق للحق والعدل ، وهذا الهيام بتحمل العذاب وهو يجتاز رحلته القاسية الصعبة ؟ ما هو المحرك الذاتي الذي أتاح لعمر ان يمد خطواته عبر المنحنى كالعملاق ، لا يثنيه عائق ، ولا ترده قوة في الأرض من اغراء أو ارهاب ؟!

هنا في الصفحات التالية من هذا البحث ، سنسعى إلى أن نضع أيدينا على الوقود ، ونتملى القوة الداخلية ، ونتمعن في المحرك الذاتي ، تلك التي اسهمت

جميعاً في تمكن عمر من معانقة مصيره المقدور ، ونجاحه في انقلابه العظيم .

ولنعد إلى الساعات الأولى من تحمله المسؤولية ، فالجواب الحاسم يمكن أن نجده — دائماً — هناك في البدايات .. انظروا : ها هو كتاب العهد باسمه يقرأ عليه فيقسم « والله ان هذا الأمر ما سألته الله قط » .. ولكن ما دامت الارادات الصالحة قد اختارته ، في لحظة حاسمة خطيرة كهذه ، فليكن رجلاً ، وليقبل الأمانة . ولكنه قبل ان يضع خطواته الأولى على الطريق يجب أن يتأكد فيستدعي الفقيه الكبير سالم السدّي .

عمر : أسرك ما وليت ، أم ساءك ؟

السدي : سرّني للناس ، وساءني لك ! !

عمر : اني أخاف أن أكون قد اوبقت (اهلكت) نفسي ..

السدّي : ما أحسن حالك ان كنت تخاف ، اني أخاف عليك ألا تخاف ! !

عمر : عظني ..

السدّي : أبونا آدم اخرج من الجنة بخطيئة واحدة[1] ! !

تلك إذن البداية المذهلة (عظني .. فاني خائف) ، وما كان عمر ليخاف هذا الخوف الجبان المهزوم ، وحاشاه ، ولكنه خوف الله على مصير أمة تمتد من حدود الصين إلى بحر الظلمات . وها هو يعود إلى داره ، بعد الفراغ من تشييع جنازة سليمان ، والغم يعتصر قلبه ، ويلقي ظلاله الكئيبة على وجهه ، فيسأله مولاه : ما لي أراك مغتماً ؟ فيجيبه : لمثل ما أنا فيه فليغتم ، ليس أحد من الأمة إلا وأنا أريد أن اوصل إليه حقه غير كاتب لي فيه ولا طالبه مني ! ! وبخطى سريعة يصعد المنبر ، ويعلن للملأ « أيها الناس انه لا كتاب بعد القرآن ولا نبي بعد محمد عليه الصلاة والسلام . ألا واني لست بقاض ولكني منفذ ، ولست بمبتدع ولكني متبع ، ولست بخير من أحدكم ، ولكني أثقلكم حملاً .

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ٢-١٦٨ .

ان الرجل الهارب من الامام الظالم ليس بظالم . ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[٢] !! » .

ويكتب إلى يزيد بن المهلب ، عامل الأمويين على المشرق ، مؤكداً المعاني والقيم والأهداف ذاتها التي أعلنها في خطابه الحاسم السريع « أما بعد : فإن سليمان ابن عبد الملك كان عبداً من عبيد الله أنعم الله عليه ، ثم قبضه واستخلفني ، ويزيد بن عبد الملك من بعدي إن كان !! وان الذي ولاني الله من ذلك ، وقدر لي ليس علي بهين . ولو كانت رغبتي في اتخاذ أزواج ، واعتقاء أموال ، كان في الذي أعطاني من ذلك ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ بأحد من خلقه !! (ولكني) أخاف – فيما ابتليت به – حساباً شديداً ، ومسألة غليظة ، إلا ما عافى الله ورحم[٣] ... » .

يا الله .. ان هذه الكلمات الواضحة العميقة الحاسمة ، لتذكرنا بأيام عمر ابن الخطاب ، بكل ما فيها من حرص على حقوق الأمة ، وتأكيد على المساواة المطلقة أمام الله ورسوله ، وتهديد مرعد بالظلم والظالمين ، وذكر الله في كل خطوة وكل كلمة ، لأن الله سبحانه هو وحده صانع الخطوات والكلمات .. وها هو الحفيد .. يعود.. بعد دورة مضنية للتاريخ .. ليذكرنا بعهد جده العظيم عهد التقوى وخوف الله ، والرؤية الواضحة الحساسة للحياة والفناء والخلود .. والانفعال العميق بمشاهد الجنة والنار .. ان هذه التقوى وهذا الخوف ، وتلك الرؤية وذلك الانفعال هي التي تصنع المسؤولين .. ليس هذا فحسب ، ولكنها تحملهم مسؤوليتهم بأمانة نادرة المثال ، وتجعلهم يرتعدون فرقاً ان هم انحرفوا قيد شعرة عما يريده الله الذي يراهم ولا يرونه .. وأنى لهم أن ينحرفوا ، والحياة الدنيا هي فرصتهم الوحيدة التي ستمضي بهم إما إلى جنة وإما إلى نار ؟!

وقد عبر عمر عن هذه الحقيقة بوضوح في احدى رسائله حيث يقول :

(٢) ابن عبد الحكم ص ٤١ – ٤٢ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ١-٣٢٧ – ٣٢٨

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٦-٥٦٧ .

ان أحق العباد باجلال الله ، والخشية منه ، من ابتلاه بمثل ما ابتلاني به . ولا أحد أشد حساباً ولا أهون على الله ــ ان عصاه ــ مني . فقد ضاق بما أنا فيه ذرعي ، وخفت أن تكون منزلتي التي أنا بها هلاكاً لي . إلا ان يتداركني الله منه برحمة[٤] » . ثم اسمعوه .. انصتوا جيداً إلى ما يقول .. ماذا ؟! « ان الدنيا ليست بدار قرار . دار كتب الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها منها الظعن فاحسنوا ــ رحمكم الله ــ منها الرحلة باحسن ما يحضر بكم من النقله،وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » ويمضي عمر قائلاً ، والدموع تنساب على خديه وتبلل لحيته « إنما الدنيا كفيء ظلال قلص فذهب!! بينما ابن آدم في الدنيا منافس ، وبها قرير عين ، إذ دعاه الله بقدره ، ورماه بيوم حتفه ، فسلب آثاره ودنياه، وصيّر لقوم آخرين مصانعه ومغناه !! إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر . انها تسر قليلاً وتجر حزناً طويلاً[٥] !! » . ويزيد عمر تصوره للحياة والموت في خطبة أخرى جاء فيها « ... إنما خلقتم للأبد ، ولكنكم من دار إلى دار تنقلون.. انكم في دار لكم فيها من طعامكم غصص ، ومن شرابكم شرق ، لا تصفو لكم نعمة تسرون بها إلا بفراق أخرى تكرهون فراقها ، فاعملوا لما أنتم صائرون إليه ، وخالدون فيه[٦] » .

وما أروع كتابه إلى أحدهم يعزيه في أبيه « إنا قوم من أهل الآخرة ، سكنّا الدنيا ، أموات أبناء أموات ، فالعجب كل العجب لميت يكتب إلى ميت يعزيه عن ميت[٧] !! » . ويبلغه ــ يوماً ــ ان أخاً من اخوانه مات ، ثم ما يلبث ان يأتيه نفي ذلك ، فيكتب إليه « .. بلغنا خبر ريع له اخوانك ثم أتانا تكذيب ما بلغنا .. فانعم بذلك ان يسرنا ، وان كان السرور بذلك وشيك الانقطاع ،

---

(٤) ابن سعد : طبقات ٥-٢٩١ – ٢٩٢ .
(٥) ابن الجوزي : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٩٧ .
(٦) المصدر السابق ص ٢٠٤ .
(٧) ابن الجوزي ص ٢١٤ .

يتبعه عما قليل تصديق الخبر الأول . ! ! فهل أنت يا عبد الله إلا كرجل ذاق الموت ثم سأل الرجعة ، فاسعف بطلبته ؟! فهو متأهب .. إلى دار قراره .. ولم ولم يزل الليل والنهار سريعين في نفاذ الأيام ، وطي الآجال ، ونقض العمر .. ولا يزالان على ذلك يفنيان ويبليان ما مرا به ، هيهات .. هل أنت إلا كرجل قطعت اعضاؤه عضواً عضواً ، فلم يبق إلا حشاشة نفسه ، فهو ينتظر الداعي لها صباحاً ومساء[8] ؟! » .

لو أن كل انسان ملك حسّه وادراكه هذا التصوّر للموت والزمن .. هذه الرؤية لأيام وشهود وسنين تمر ، وتمر ، وهي تفني في مرورها الأعمار ، وتطوي الآجال ، حتماً يقف الإنسان يوماً أمام الداعي ، كأن لم يلبث ألا ساعة من نهار .. لو أن كل انسان ملك هذا الحسّ وهذه الرؤية ، هل يبقى بعد ذلك خوف أو حزن أو تردد ، ازاء ما تعرضه الأيام والليالي من تقلبات الآمال والآلام وهل يبقى بعد هذا خور وذلة ازاء القوى التي تفرض على الإنسان إذلالاً وخضوعاً يأباه خالق الإنسان ؟! ان تصور الموت يغدو — في حسّ المسلم — طاقة هائلة ، تتجاوز به كل منغصات الحياة الحقيقية ، وكل عراقيلها ..

ولكن عمر لا تقف به التقوى عند حدود الحياة والموت ، انه ينظر إلى هناك « ليلة تمخض بالساعة ، فصباحها القيامة . يا لها من ليلة ، وياله من صباح[9] . ويوماً يلبث عمر ساكتاً متأملا حزيناً ، وأصحابه يتحدثون ، تجرهم مسارب الكلام إلى شجون شتّى . ويلفت عمر — بسكوته — أحدهم فيسأل : ما لك لا تتكلم يا أمير المؤمنين ؟ ويجيئه الجواب : كنت مفكراً في أهل الجنة كيف يتزاورون فيها ، وفي أهل النار كيف يصطرخون فيها .. وبكى[10] .. » .

ان وعيه وحسّه معلقان أبداً بيوم الحساب .. وهو لا يخطو خطوة ، ولا يقول كلمة ، إلا وهو يرنو ، مشدود الأعصاب ، مرتجف الوجدان ، إلى يوم

---

(٨) ابن عبد الحكم ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(٩) ابن الجوزي ص ١٠٢ .

(١٠) المصدر السابق ص ١٨١ .

الفصل هذا ، بكل وعده ووعيده ، بكل عذابه ونعيمه .. مرّ يوماً بقبور بني أمية فاستعبر وبكى ، ثم التفت إلى ميمون بن مهران : انطلق بنا فوالله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور ، وقد أمن من عذاب الله[11].

كانت آيات القرآن التي تتعرض للموت ، أو تعرض مشاهد الجنة والنار ، تهز عمر من الأعماق ، وتستثير وجدانه ودموعه .. سمع مرة (وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً ، مقرنين ، دعوا هنالك ثبورا . لا تدعوا ثبورا واحداً ، وادعوا ثبوراً كثيراً !!) فغلبه البكاء ، وغادر المجلس إلى بيته ، فتفرق المجتمعون[12]. وأمّ الناس مرة وراح يقرأ .. حتى إذا بلغ (وقفوهم انهم مسؤولون) جعل يرددها ولا يستطيع ان يتجاوزها ، وأنى له ذلك وهو يهتز بكاء[13] ؟!. وقرأ بالناس ذات عشاء(والليل إذا يغشى) فلما بلغ (فانذرتكم ناراً تلظى) خنقته العبرة فلم يستطع ان يتلوها ، فعاد ليقرأ من جديد حتى إذا بلغها خنقته العبرة فلم يستطع أن يتلوها ، فتركها وقرأ سورة غيرها[14]. ونظر المصلون يوماً إلى مكان سجوده فرأوه مبتلاً بالدموع[15]!!

ويظل يوم الحساب مطبوعاً على أعصاب عمر .. يوم قريب لا يدري انسان متى يقع ، ولا في أية لحظة ينزل بأسه ، ويكتب إلى أحد عماله يذكره « ... كأن العباد وقد عادوا إلى الله لينبئهم بما عملوا .. أكثر ذكر الموت الذي لا تدري متى يغشاك فلا مناص .. وأكثر ذكر يوم القيامة وشدته فإن ذلك يدعوك إلى الزهادة فيما رغبت فيه ، والرغبة فيما زهدت فيه .. وأكثر النظر في عملك في دنياك الذي أمرت به ثم اقتصر عليه .. ولن تدرك العلم حتى تؤثره على الجهل ، ولا الحق حتى تذر الباطل[16] » .

---

(١١) ابن الجوزي ص ١٨٣ .
(١٢) المصدر السابق ص ١٨٤ .
(١٣) المصدر السابق ص ١٨٥ .
(١٤) ابن عبد الحكم ص ٤٩ .
(١٥) ابن الجوزي ص ١٨٦ .
(١٦) المصدر السابق ص ٢١٨ .

تلك هي الايجابية التي تبعثها التقوى في دنيا الناس : الزهادة .. مقاومة الاغراء ببطولة نادرة .. العمل حتى الرمق الأخير .. التزام العلم والحق، ومطاردة الجهل والباطل في كل مكان .. وليس بعد هذا الوضوح ، وهذا التصميم من يقول ان عمر بن عبد العزيز دعا بتقواه هذه إلى سلبية تقف بالإنسان خائفاً ، مشلول الإرادة ، سلبياً : ازاء الموت والفناء وانعدام الفرح .. ثم ما كان لإنسان تقوده تقواه إلى هذا الدمار الذاتي ان يحدث ذلك الانقلاب العجيب في دنيا الناس ، ويحفر للتاريخ الإسلامي مجرى جديداً . وما كان لمؤمن يخاف الله واليوم الآخر ان يجبن إزاء الموت .. على العكس سيعطيه هذا الموقف رؤية أوضح لحقيقة الموت والحياة ، ويجعله يقف بشجاعة وفهم أمام هذا الحدث الذي هو في حس المؤمن ليس أكثر من نقلة .. نقلة طبيعية من حياة إلى حياة « إنما خلقتم للأبد ، ولكنكم من دار إلى دار تنقلون » ، وسلاح حاسم يستخدمه المؤمن في لحظات الاختيار الصعبة بين الاغراء والصمود ، وبين الغم والانسحاق لهزائم الحياة الدنيا ، والفرح الحقيقي الذي لا يزول بمجرد أن يتذكر الإنسان .. الموت « إذا رأيت شيئاً من الدنيا فاعجبك فاذكر الموت فإنه يقلله في نفسك ، وإذا كنت في شيء من أمر الدنيا قد غمك ونزل بك فاذكر الموت فإنه يسهله عليك[١٧] !! » .

في أيام متتابعة يجلبه الموت عمر بأعز من يملك : ابنه الورع عبد الملك .. أخاه سهل..مولاه الرفيق مزاحم..ويتقدم إليه رجل فيقول : عظم الله أجرك يا أمير المؤمنين ، فما رأيت أحداً اصيب بأعظم من مصيبتك في أيام متتابعة .. ويطأطىء عمر رأسه ، فيقول رجل آخر للرجل الأول : لقد هيجت على أمير المؤمنين !! وما يلبث عمر أن يرفع رأسه ويطلب من الأول ان يعيد ما قاله ، ثم يقول: لاوالذي قضى عليهم بالموت ما احب ان شيئاً من ذلك كان لم يكن[١٨]!! ويرفع يديه إلى السماء : اللهم إنك قد علمت ما كان من عونهم ، فاخذتهم ،

---

(١٧) ابن عبد الحكم ص ١٦٨ .

(١٨) ابن الجوزي ص ٢٦٥ .

فلم يزدني ذلك إلا حباً، ولا إلى ما عندك إلا شوقاً [١٩]! ! ويكتب إلى الأمصار ينهاهم ان ينوحوا على ابنه قائلاً : ان الله تعالى أحب قبضه واعوذ بالله ان اخالف محبته[٢٠] .

ويبلغ عمر القمة وهو يعلن ، ليس فقط عن فهم أكيد للموت ، ولكن عن تقدير كامل وعشق عجيب لقدر الله الذي يعلم ما لا يعلمه الإنسان ، ويفجر في أعمار الناس أحداثاً يرونها مرة حيناً ، وهي في مداها البعيد حلوة ، ويرونها خيراً حيناً آخر ، وهي في مداها البعيد شراً .. ومن تم يجيء قول عمر في مكانه الحق من تصور المؤمن لقدر الله سبحانه : « ما لي في الأمور هوى سوى مواقع قضاء الله فيها [٢١]» ويدعو الله: اللهم رضني بقضائك ، وبارك لي في قدرك حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ، ولا تأخير ما عجلت .. ويظل يدعو هذا الدعاء حتى يستجيب الله له ويبلغه المرحلة التي ما بعدها مرحلة .. مرحلة العشق لمواضع القضاء[٢٢] .

* * *

ونمضي خطوات أخرى مع الخليفة ، وهو يكشف بكلماته المضيئة عن عن تجربته ورؤياه اللتين زرعتا في قلبه ووجدانه تقوى عبرت به طريق المنحنى الصعب الطويل ، بعد ان فجرت في عالمه الباطني : نار الحب والخوف والاشفاق تقوى عرفها هو نفسه بكلماته الواضحة: ان لكل شيء معدناً، ومعدن التقوى قلوب العاقلين ، لأنهم عقلوا عن الله، فاتقوه في أمره ونهيه[٢٣] . أرأيتم ؟! وحدة أروع من هذه الوحدة بين العقل والقلب..؟! تآلفاً أكثر انسجاماً من هذا بين فكر الإنسان وعاطفته ..؟ تناغماً أشد توافقاً بين قوى الأنسان ؟ هذا هو

(١٩) ابن الجوزي ص ٢٦٦ .

(٢٠) المصدر السابق ص ٢٦٤ .

(٢١) المصدرالسابق ص ٢٧١ .

(٢٢) ابن عبد الحكم ص ١١١ .

(٢٣) اليعقوبي : تاريخ ٢-٣٠٦ ، ابن الجوزي ص ٢٠٣ .

تصور عمر .. وتصور كل مؤمن أدرك معنى التقوى التي هي الدرجة التي لا يصلها الإنسان إلا بعد ان يجتاز رحلة الإسلام والإيمان ...

ازاء الله سبحانه ، يقف الإنسان المسلم موحد الذات ، متوازن الخطوات ، وهو يجتاز الحياة في حوار رائع بين العقل والقلب .. ليس ثمة تمزق في كيان الإنسان ، ليس ثمة ازدواج أو انفصال . ان التقوى — هذه التجربة التي يتطلبها الإسلام من الإنسان المؤمن — ليست سوى الادراك الصحيح لوضع الإنسان في الكون ازاء خالقه ، تحاوره من الداخل حركة القلب وخفقات الفؤاد ، فتحيل الإنسان إلى فهم كامل وحركة وجدانية لا بدء لها ولا انتهاء .

ويدرك عمر أن هذا الفهم يتطلب أبداً ذلك الوقود لكي تصح التقوى .. الوقود الذي تفجره ومضات القلب ودموع العين .. ويلتفت إلى أحد أصحابه : يا أبا الجودي ، اغتنم الدمعة تسيلها على خدك[٢٤] !! ثم يقول : لا ينفع القلب إلا ما خرج من القلب[٢٥] . ويمضي عمر يهز وجدان الناس ويحرك افئدتهم بكل ما يتفجر في عالمه الباطني من نار !! « أيها الناس ، إنما نحن من اصول قد مضت وبقيت فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ؟ وإنما الناس في هذه الدنيا أغراض تنتضل فيهم المنايا ، وهم فيها نهب المصائب .. لا يعمر معمر يوماً من عمر إلا بهدم آخر من أجله[٢٦] ». وفي حشد آخر يريد عمر ان ينقل الكهرباء التي تهزه من الداخل إلى سائر الناس فيصرخ بهم « أيها الناس ، عليكم بتقوى الله فإن تقوى الله خلف من كل شيء ، ولا خلف من التقوى .. أيها الناس اني لم أجمعكم لأمر أحدثته ، ولكني نظرت في أمر معادكم ، وما أنتم صائرون إليه ، فوجدت المصدق به أحمقاً والمكذب به هالكاً[٢٧]... » .

ويوماً .. حذّره بنو أمية من سياسته الصعبة ازاءهم ، فغضب وقال : كل يوم أخافه غير يوم القيامة ، فلا أمنت شره[٢٨].. وهو هو اليوم الذي احدث

---

(٢٤) ابن الجوزي ص ١٩٩ .
(٢٥) المصدر السابق ص ٢٠٠ .
(٢٦) المسعودي : مروج الذهب ٣-١٨٤ .
(٢٧) ابن عبد الحكم ص ٤٢ .
(٢٨) ابن الأثير : الكامل ٥-٦٤ .

هزة في ماضيه غيرت مجرى حياته ، وجعلته ينيب إلى الله .. لقد أراد يومها ضرب غلام له ، فقال له هذا : اذكر ليلة صبيحتها يوم القيامة(٢٩).. ومنذ ذلك اليوم وعمر تورّقه هذه الليلة ، تشد أعصابه صوب يوم الحساب ، وكأنه واقع الآن ، هذه اللحظة .. وليس غداً !! ويقرأ « الهاكم التكاثر حتّى زرتم المقابر » ثم يتساءل : كم عسى الزائر يلبث عند المزور حتّى ينكفىء إما إلى جنة وإما إلى نار(٣٠). وفي اجتماع حاشد يصرخ في الجماهير « .. لقد عنيتم بأمر لو عنيت به النجوم لانكدرت ، ولو عنيت به الجبال لذابت ، ولو عنيت به الأرض لتشققت ، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة ، وانكم صائرون إلى احداهما ؟(٣١) ».

أرأيتم أي مدى بلغه الاشفاق من يوم الفصل في حسّ عمر ؟؟ ان ما يقوله للآخرين يعيشه هو نفسه ، بل انه لينقل للآخرين معاناته الداخلية ، انه يعاني – ببطولة – تجربة الخوف والاشفاق التي لو عانتها النجوم والأرض والجبال لغدت هباء منثورا ؟! ان هذا الخوف ، وهذه التقوى .. تتكرر دائماً في حياة عمر ، بعد توليه الخلافة .. في البيت وفي الشارع .. في خطبه على المنابر ، في كتبه ورسائله إلى العمال والولاة في مشارق الأرض ومغاربها .. وفي لقاءاته المستمرة مع أبناء الأمة المسلمة في ساحات الشام .. انه يعبد الله كأنه يراه .. يرى جحيمه ويرى نعيمه .. ومن خلال هذا كله يرى الموت !! هذه الكلمة الفاصلة التي تسلم الإنسان – في لحظة – إلى يوم الحساب ، وترده للمعاد ..

ولنتأمل معاً ، كلمات عمر وهي تنساب من يقين الإيمان ، وينابيع التقوى في وجدانه .. وكأنه يرسم بها لوحة رائعة للحياة يركض عبرها الناس بحثاً عن أرزاقهم ، وسعياً وراء التكاثر بالأموال والأولاد .. ولكن الخلفيه التي يركضون عليها تذكر دائماً بالموت والحساب .. انها لوحه رائعة رسمتها يدا عمر المؤمنتان

(٢٩) ابن الأثير ٥-٦٢ .

(٣٠) ابن عبد الحكم ص ١٣٦ – ١٣٧ .

(٣١) ابن الجوزي ص ١٩٧ .

وتجربته المليئة بالالهام « ... فاتقوا الله ، فانها نصيحة لكم في دينكم ، فاقبلوها : الرزق مقسوم فلن يغدو المؤمن ما قسم له ، فاجملوا في الطلب ، فإن في القنوع سعة وبلغة وكفافاً . ان أجل الدنيا في أعناقكم ، وجهنم أمامكم ، وما ترون ذاهب ، وما معنا فكأن لم يكن ، وكل أموات عن قريب . وقد رأيتم حالات الميت وهو يسوق ، وبعد فراغه وقد ذاق الموت ، والقوم حوله يقولون : قد فرغ رحمه الله !! وعاينتم تعجيل اخراجه وقسمة تراثه ، ووجهه مفقو د ، وذكره منسيّ ، وبابه مهجور ، وكأن لم يخالط اخوان الحفاظ ، ولم يعمر الدنيا . فاتقوا هول يوم لا تحقر فيه مثقال ذرة في الموازين[٣٢] » .

وكل ما يفقده المؤمن ، حتى لو كانت حياته نفسها ، يجب ان يقابل بالصبر والسلوان .. لأن الإنسان وكل ما ملكت يداه ليس سوى عارية سيسترجعها الله في يوم قريب أو بعيد .. ولأن الصبر – بمعناه هذا – هو مفتاح وعي الإنسان لقيم الموت والحياة « ... ومعوّل المؤمن الصبر ، وما أنعم الله على عبده نعمة ثم انتزعها منه ، فاعاضه مما انتزع منه الصبر ، الا كان ما أعاضه خيراً مما انتزع منه .. و ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب[٣٣]﴾ » .

ويوماً .. يدخل عليه رجل ، وبين يديه كانون فيه نار ، فيقول للرجل : عظني !! فيجيبه الرجل : يا أمير المؤمنين ، ما ينفعك من دخل الجنة إذا دخلت أنت النار .. وما يضرك من دخل النار إذا دخلت أنت الجنة ؟!

فما يكون جواب عمر ؟ ان الكلمات لتعجز عن أداء الجواب .. انه في هذه اللحظة وجدان يذوب خوفاً وحباً واشفاقاً .. أهناك غير الدموع من يستطيع الجواب؟وتظل – من ثم – عينا الخليفة تذرفان حتى ينطفيء الكانون بين يديه[٣٤]

ولنستمع أخيراً إلى خطبته الأخيرة ، في احدى مدن الشام .. ولنقف معاً .. بقلوبنا وخيالنا ووجداننا مع آلاف المسلمين التي كانت تنصت إلى هذه الخطبة

(٣٢) الطبري ٦-٥٧١ – ٥٧٢ .

(٣٣) المصدر السابق ٦-٥٧٢ .

(٣٤) ابن عبد الحكم ص ١٠٧ .

التي قيم فيها حفيد ابن الخطاب قدر الحياة ، وأعطى مزيداً من الألوان والظلال لرحلته النفسية عبر المنحنى الطويل .. وكأنه كان يحسّ ان هذه هي خطبة الوداع الأخيرة .. اسمعوا : « أيها الناس ، انكم لم تخلقوا عبثاً ، ولن تتركوا سدى ، وان لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم ، والفصل بينكم ، وقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء ، وحرم الجنة التي عرضها السماوات والأرض . ألا واعلموا إنما الأمان غداً لمن حذر الله وخافه ، وباع نافذاً بباق ، وقليلاً بكثير ، وخوفاً بأمان ! ! ألا ترون أنكم في اسلاب الهالكين وسيخلفها بعدكم الباقون — كذلك — حتى تردّ إلى خير الوارثين ؟! وفي كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله ، قد قضى نحبه ، وانقضى أجله ، فتغيبونه في صدع من الأرض ، ثم تدعونه غير موسّد ولا ممهد ، قد فارق الأحبة ، وخلع الأسباب ، فسكن التراب وواجه الحساب ! ! فهو مرتهن بعمله ، فقير إلى ما قدّم ، غني عما ترك . فاتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء مواقعه . وايم الله اني لأقول لكم هذه المقالة ، وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي ؛ فاستغفر الله وأتوب إليه . وما منكم من أحد تبلغنا عنه حاجة إلا أحببت أن أسدّ من حاجته ما قدرت عليه ؛ وما منكم من أحد يسعه ما عندنا إلا وددت أنه سداي ولحمتي حتى يكون عيشنا وعيشه سواء ! ! وايم الله ، إني لو أردت غير هذا من الغضارة والعيش ، لكان اللسان مني به ذلولاً ، عالماً بأسبابه ، ولكنه معنا من الله كتاب ناطق ، وسنة عادلة ، يدل فيها على طاعته وينهى عن معصيته ... » ويرفع عمر — بعد خطبته هذه — طرف ردائه فيبكي حتى يشهق..ويضج الناس من حوله بالبكاء[٣٥] ، وكأنهم احسوا جميعاً ان ما يقوله عمر قد سرت في كلماته الحياة ، لأنه — رضي الله عنه — كان ينتزع كلماته هذه من أعماق وجدانه ، ومن قلب تقواه ... وكأنهم احسّوا جميعاً

---

(٣٥) الطبري ٦-٥٧٠ — ٥٧١ .

ان عمر يودع ـ بهذه الكلمات ـ حياته العظيمة وهو في القمة ، وان لقاءه مع خالقه قد حان ..

* * *

منذ اللحظة التي ولي عمر فيها الخلافة .. وحتى وفاته ، ما فارق حسّ التقوى والخوف قلبه ، ولا ودّع وجدانه ، وظل يردد حتى النهاية داعياً الله : ما احب ان تخفف عني سكرات الموت ، لأنه آخر ما يرفع للمؤمنين[٣٦] . وعندما جاءت سكرات الموت هذه قال عمر لأهله : اجلسوني . ولما اجلسوه راح ينادي ربه بصوت واهن حزين : أنا الذي أمرتني فقصّرت ، ونهيتني فعصيت ، ولكن لا إله إلا الله[٣٧] ! !

* * *

ويحين الوقت لاستدعاء الشهود .. لقد تكلمنا عن تقوى عمر بن عبد العزيز بما فيه الكفاية .. وتبقى بعد هذا شهادات الشهود .. فهي أملك للحسّ وأكثر إثارة للوجدان .. ناس من شتى الفئات والأصناف .. كلهم ينتمون إلى الأمة التي قادها عمر بالقرآن والسنة .. دخلوا عليه في بيته أو شاهدوه في الطريق .. صلوا معه في المسجد ، أو انصتوا إليه وهو يلقي كلماته في الميادين والساحات.. أليس من الجدير ان نستمع إلى ما قالوه وهم يقفون وجهاً لوجه أمام الخليفة الذي أحالته تقواه إلى كتلة من عصب ووجدان ؟! فلنستدعهم إذن واحداً بعد واحد ، ليقولوا كلماتهم كما قالوها أول مرّة ...

مكحول : لو حلفت لصدقت : ما رأيت أزهد ولا أخوف لله من عمر بن عبد العزيز[٣٨] ! !

---

(٣٦) ابن الجوزي ص ٢٨٣ .

(٣٧) المصدر السابق ص ٢٨٥ .

(٣٨) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٥٨ .

سعيد بن أبي عروبة : كان عمر إذا ذكر الموت اضطربت أوصاله(٣٩)!!

رجل من عامة المسلمين : لم أره يبكي. إنما هو منقبض وكأن عليه حزن الخلق(٤٠)

فاطمة زوجته : ما رأيت أحداً أشد فرقاً من ربه منه . كان يصلي العشاء ثم يجلس يبكي حتى تغلبه عيناه !! ولقد كان يكون معي في الفراش فيذكر الشيء من أمر الآخرة ، فينتفض كما ينتفض العصفور في الماء ، ويجلس يبكي ، فاطرح عليه اللحاف رحمة له وأنا أقول : يا ليت كان بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين ، فوالله ما رأينا سروراً منذ دخلنا فيها (٤١)!!

الحسن بن أبي العمرطه : رأيت عمر قبل ان يستخلف ، فكنت تعرف الخير في وجهه ، فلما استخلف رأيتُ الموت بين عينيه (٤٢)!!

ابن أبي السائب : سمعت أبي يقول : ما رأيت أحداً قط كان الخوف على وجهه أبين منه على عمر(٤٣) .

محمد بن كعب القرظي : دخلت على عمر لما استخلف ، وقد نحل جسمه وتغير لونه ، وكان عهدنا به بالمدينة أميراً علينا : حسن الجسم ، ممتلىء البضعة! فجعلت انظر إليه نظراً لا أكاد اصرف بصري عنه . فقال : يا ابن كعب مالك تنظر إلي نظراً ما كنت تنظره إلي من قبل ؟! فقلت : لعجبي . قال : ومماذا عجبك ؟ قلت : لما نحل جسمك ، وتغير لونك . قال : وكيف لو رأيتني بعد ثلاث في قبري حين تقع عيناي على وجنتي ، ويسيل منخري وفمي دوداً وصديداً ؟ لكنت لي أشد نكرة منك اليوم(٤٤)!!

---

(٣٩) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٥٨ .

(٤٠) ابن الجوزي ص ١٩٢ .

(٤١) ابن كثير : البداية والنهاية ٩-٢٠٤ج .

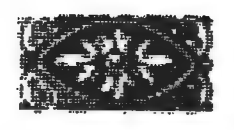
(٤٢) ابن سعد ٥-٢٩٣ .

(٤٣) ابن الجوزي ص ١٩٠ .

(٤٤) ابن عبد الحكم ص ٥٥ .

يزيد بن حوشب : ما رأيت أخوف من الحسن البصري وعمر بن عبد العزيز ، كأن النار لم تخلق إلا لهما [٤٥] ! !

مسلمة بن عبد الملك : رحمك الله — يا عمر — لقد لينت لنا قلوباً كانت قاسية وزرعت قلوب الناس لنا مودة، وأبقيت لنا في الصالحين ذكرا [٤٦].



(٤٥) ابن الجوزي : صفة الصفوة ٣-١٥٦ .

(٤٦) ابن الجوزي ص ٢٧٩ .


صفحة فارغة

(٣)
الاهداف الكبرى

« وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه
يعدلون » .

الاعراف ١٨١


صفحة فارغة

ونحن في طريقنا إلى منجزات عمر الانقلابية ، لا بد أن نلحظ – معجبين – تأكيده الدائم على (الحق)، يوازيه – قولا وعملا – تأكيد مشابه على (العدل) الحق والعدل .. ها نحن قد وصلنا اذن إلى مفتاح السياسة التي مارسها الخلفاء الراشدون ، وسار عمر بن عبد العزيز على هديهم فيها حتى نهاية الشوط ، وهي التي – كما تشير بعض الروايات والقرائن – كلفته حياته وهو في عز الرجولة .

فبالحق والعدل الازليين خلق الله السماوات والأرض ، وبهما فجر الحياة من أعماق التربه ، وبعث إلى الوجود حيوات شتى : من نبات وحيوان وانسان ، تتحرك كلها وفق مشيئة الله القائمة على الحق والعدل .. وحينما انحرف الانسان عن النواميس التي يحكم بها الله الأرض والسماء ، بعث اليه رسلاً وأنبياء يعيدوه إلى الطريق ، وليجعلوا حركته تنسجم مع حركة الكون القائمة على نواميس الحق والعدل . ولكن عودة الانسان – فردا وجماعة – إلى هذه النواميس – استجابة لدعوة الأنبياء – لا تتم أبدا بأن يختار كل منهم أجزاء وتفاريق من المبادىء والمناهج التي جاء بها رسل الله سبحانه . لان هذا الاختيار الكيفي ، هو كالرفض التام ، يخلق فوضى غير طبيعية في حركة الانسان ويصده عن الانسجام الكامل مع حركة الكون والخلائق القائمة على نواميس الحق والعدل . ولا بد اذن من الاخذ الكامل ، والتلقي

المطلق عن الله سبحانه – بواسطة رسله وأنبيائه – في كل ما يصدر عنه الانسان عبر علاقاته وتجاربه مع خالقه ومع نفسه ومع الاخرين ، وهذا الالتزام الكامل والتلقي المطلق لا يتهيأ الا بوجود (نظام) الهي يتيح للانسان تحقيق هذا الهدف دون أن يصطدم بما يعيقه عن الانسجام مع النواميس الازلية التي تحكم الكون والحياة : الحق والعدل .

ومن ثم كان من البديهي – ومن منطق الوجود الكوني نفسه – ان تقوم الدولة الراشدة بالتزام هذا النظام ، والحرص عليه ، من أجل أن تعطي للمسلمين فرصة الانسجام الكامل مع القوانين التي تحكم الأرض والسماء ، وتهيء لهم مناخاً طبيعيا صالحا لتقديم طاقاتهم ومعطياتهم ، وفق هذه القوانين ، بدلاً من أن تضيع وتذهب جفاء . وكان من البديهي – أيضا – ان يحرص المسؤولون عن هذا النظام الالهي ، على أن يبقى محتفظا بدعامتيه الرئيسيتين : الحق والعدل لان نظاما كهذا سرعان ما سيتعرض للشلل والسقوط بمجرد فقدانه احدى دعامتيه أو كلتيهما . ومن ثم حرص الانبياء والخلفاء الراشدون من بعدهم على حماية الحق والعدل من العدوان المتمثل بشتى الوسائل والمحاولات . ولم يكتفوا بهذا ، بل راحوا يطاردون كل ما يمكن أن يلقي ولو ظلا باهتا على النور الذي يشع من هذه النواميس .

إن شريعة الله سبحانه ، لن تؤتي ثمارها ، وتحتفظ بحيويتها وتطورها الاجتهادي الخلاق القائم على تغطية حاجات الناس وحل مشاكلهم بالحق والعدل ، ان لم تتمثل في نظام واقعي تشرف على تطبيقه وتنفيذه دولة ثابتة الاركان ، متكاملة الاجهزة ، يقف على قمتها حاكم راشد يعرف – بتقواه وبصيرته – كيف يحيل الشريعة إلى حياة ، ويتحمل مسؤولية حماية الحق والعدل اللذين هما روح الشريعة وغايتها . وان الامة المسلمة تستطيع – بفطرتها النقية ووجدانها الصافي – ان تلمس تقوى الحاكم وبصيرته ومدى حرصه على حماية الحق والعدل ، وبالتالي حماية الشريعة .. ومن ثم تحكم عليه ، حتى قبل أن تقرأ وتعرف عنه الكثير ، بأنه خليفة راشد ، وانه احد أولئك

المسؤولين الكبار الذين حرصوا على اقامة النظام الالهي وتطبيق مناهجه في الأرض .

هكذا يقف عمر بن عبد العزيز ازاء وعي الامة الاسلامية ووجدانها على مر العصور ، واحدٌ من اولئك الذين اختارتهم العناية الالهية ليرشدوا البشرية إلى ما يجب أن يكون عليه المجتمع الذي يؤمن بالله واليوم الاخر (وكذلك جعلناكم امة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا) .

في كل الجهات التي عمل فيها عمر ، وكل الجبهات التي نافح دونها ، كنا نجده ذلك (المسؤول) الذي يحرص على حماية الحق والعدل ، ومطاردة ما يتهددهما – في نطاقه – من مصالح الناس ورغباتهم وأهدافهم الدنيا . لقد عشنا معه لحظات فريدة في بيته ، ورأينا كيف ينافح ، دون الحق والعدل ، نوازع نفسه ، وعواطف ابوته ، وعلاقاته الزوجية ، ويبلغ – احيانا – حدا لا يطاق في محاسبة النفس والأهل والبنين ، رغبة منه في اجتثاث أي جذر يمكن أن ينبت في أعماق نفسه أو في ردهات بيته ، رغبة أو تعلقا قد يلحق الأذى – مهما صغر الاذى – بالحق والعدل في يوم من الايام .. عشنا معه هناك ، وهو ينقلنا بزهده الايجابي الفريد ، إلى ذات الاجواء التي عرفناها من قبل في بيت جده ابن الخطاب وفي حنايا نفسه التي تعلمت الفطام عن المتع المرئية ولكنها فتحت اقطار الارض .. ومن ثم آن الاوان لكي نرى الحفيد في الخارج وهو يسعى لترسيخ هذه القيم في شتى مجالات الحياة .

لنبدأ بموقفه من الخلافة ، حيث يبدو عمر في اللحظات الأولى لتسلمه المنصب ، بل في الأيام التي سبقت ذلك ، مدركا لحقيقة هذا المنصب الذي يجب أن يكون من (حق) جميع المسلمين ان يرشحوا اليه من يرونه كفوءاً لتسنمه : ايمانا وذكاءاً وعملا والتزاما بالقرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم . وليس من (العدل) أن يتولى انسان ما هذا المنصب لمجرد ان أباه أو أخاه أراد ذلك ، دون الرجوع إلى اجماع المسلمين أو استشارتهم ،

وعلى الرغم من ان عمر كان يعرف ما هو موقف جماهير المسلمين منه ، ومقدار الحب الذي يكنون له ، والشوق الذي كان مجرد حلم يداعب مخيلتهم في أن يكون خليفة عليهم .. على الرغم من ذلك كله ، فقد تردد منذ البداية في أن يسند اليه هذا الأمر .

كان للعالم الجليل (رجاء بن حيوة) الفضل الأول في إقناع سليمان بن عبد الملك باستخلاف عمر من بعده ، بعد أن عرض عليه مزاياه وأوضح له ان احدا من أطفاله لا يمكن أن يقوم بأعباء منصب الخلافة الثقيل . واذ اطمأن لفكرة رجاء قال : والله لأعقدن عقداً ليس للشيطان فيه نصيب . وما لبث بعد ان اشتد به مرض أن كتب عهداً — لم يطلع عليه الا رجاء وحده — أقر فيه استخلاف عمر بن عبد العزيز ، ومن بعده يزيد بن عبد الملك [1] . وقد برر سليمان عهده ليزيد بقوله « لئن وليت — عمر — ولم أول احدا سواه لتكونن فتنته ولا يتركونه — بنو مروان — ابدا يلي عليهم ، الا أن يجعل أحدهم بعده » [2] . ورغم ذلك فقد بدرت من بعض المروانيين — لدى قراءة العهد — معارضة لاستخلاف عمر ، وابوا أن يبايعوه ، الا أنهم اضطروا إلى ذلك اضطراراً [3] .

قال رجاء : فلما تفرقوا — أي بني اميه — جاءني عمر بن عبد العزيز فقال : أخشى أن يكون هذا — أي سليمان — أسند إلي شيئا من هذا الأمر . فأنشدك الله وحرمتي ومودتي الا اعلمتني ان كان ذلك حتى استعفيه الان ، قبل أن تأتي حال لا أقدر على ما أقدر عليه الساعة . فقال رجاء : لا والله ، ما أنا بمخبرك حرفا . اجتاحت عمر موجة من الغضب وغادر المكان دون أن يقول شيئاً [4] .

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٣٤ — ٣٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ٥-٣٩ .

(٣) المصدر السابق ٥-٤١ ، الدينوري : الاخبار الطوال ص ٣٣٢ .

(٤) الطبري : تاريخ ٦-٥٥١ .

ان عمر يكشف هنا عن رغبته في الهروب من أعظم منصب ، قبل أن تأتي حال لا يستطيع بعدها أن يرفض ، كأن تعلن بيعته على ملأ من الناس ، وأنى له آنذاك التخلي عن عقد الأمة ؟ وما أن يتأكد بأنه قد اختير فعلاً — لهذا المنصب الجليل حتى يقول : انا لله وانا اليه راجعون ، « لكراهته اياها »[٥] !! وعندما قرىء عليه كتاب العهد باسمه اقسم : والله ان هذا الأمر ما سألته الله قط[٦] . وما تلبث جماهير الامة أن تتداعى لمبايعته ، فها هو أملهم المنشود ، الحلم الذي ما طمحوا يوما إلى أنه سيغدو حقيقة واقعة . وعند المبايعة كان شعاره : اطيعوني ما أطعت الله ، فان عصيت الله فلا طاعة لي عليكم[٧] . وبهذا أعلن ، كما أعلن الراشدون من قبله ، ان بيعته مستمدة أولا وأخيرا من مدى التزامه بالقرآن والسنة ، وليس من أي اعتبار آخر .

ثم جاءت كلماته التالية تأكيدا لحق الامة في الاختيار « أيها الناس اني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين . واني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفسكم » فصاح الناس صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك ، أمرنا باليمن والبركه[٨] . وهكذا يتولى عمر الخلافة بارادة الامة وممثليها من كبار العلماء ، دون أن يكون هو قد سعى اليها ، ويكتب إلى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب : أما بعد ، فقد ابتليت بما ابتليت به من أمر هذه الامة من غير مشاورة مني ولا ارادة ، يعلم الله ذلك[٩] . وفيما بعد ، عندما ناقشه مندوبا شوذب الخارجي في هذه المسألة قائلين : ما نقمنا سيرتك ، انك لتتحرى العدل والاحسان ، فاخبرنا عن قيامك بهذا الأمر ،

---

(٥) الطبري ٦-٥٥٢ .

(٦) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٥٣ .

(٧) ابن الجوزي ص ٥٥ .

(٨) المصدر السابق ص ٥٣ .

(٩) ابن عبد الحكم ص ١٢٢ .

أعن رضى من الناس ومشورة أم ابتززتم أمرهم ؟ .. أجابهما عمر : ما سألتهم الولاية عليهم ، ولا غلبتهم عليها ، وقد عهد لي رجل كان قبلي فقمت ولم ينكره علي احد ، ولم يكرهه أحد غيركم ، وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وانصف من كان من الناس ، فاتركوني ذلك الرجل ، فان خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم (١٠) .

ويوما يلتقي عمر بعبد العزيز بن الوليد في دمشق فيقول له : قد بلغني انك كنت بايعت من قبلك ، وأردت دخول دمشق . فيجيب عبد العزيز : قد كان ذاك ، وذلك أنه بلغني ان الخليفة سليمان لم يكن عقد لاحد ، فخفت على الاموال أن تنتهب فيقول عمر : لو بويعت وقمت بالأمر ما نازعتك ذلك ، ولقعدت في بيتي ، فيجيبه عبد العزيز : ما أحب انه ولي هذا الأمر غيرك .. ثم يبايع لعمر (١١) .

أما من سيعقب عمر في الخلافة ، دون أن يكون للمسلمين فيه رأي ، فذلك ما لم يكن ضمن ارادة عمر واختصاصه ان يدلي فيه بدلوه .. انه جاء إلى الحكم كاستثناء عن قاعدة غطت عقودا طويلة من السنين كان نظام ولاية العهد خلالها قد استحكم في البلاط الاموي..ولولا الجهود المخلصة التي بذلها رجاء بن حيوة لما كان مقدراً للامة الاسلامية أن تشهد خلافة عمر . وعندما يسمع عمر استخلاف يزيد بن عبد الملك من بعده يقول : اللهم إن كان يزيد يريد بهذه الامة شرا فاكفهم شره ، وأردد كيده في نحره (١٢) . ومن كل هذا فهناك ما يشير إلى أن عمر أراد أن يحطم هذا القيد الذي كان يقف أمام الحق والعدل أن يأخذا مجراهما في انتخاب الخلفاء . فقد ذكر ابن سعد ان بني مروان جاءوا يوما إلى عمر وقالوا : انك قصّرت بنا عما كان يصنعه بنا من قبلك ، وعاتبوه ، فأجابهم : لئن عدتم لمثل هذا المجلس لاشدن ركابي ،

---

(١٠) ابن الأثير : الكامل ٥-٤٥ — ٤٦ .
(١١) الطبري ٦-٥٥٣ .
(١٢) المصدر السابق ٦-٥٦٤ .

ثم لأقدمن المدينة وأجعلها شورى، الا واني أ عرف صاحبها : الاعيمشه ، (أي القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق) [١٣] . وقد أكد عمر – قبيل وفاته – رغبته في استخلاف القاسم بن محمد قائلا : لو كان لي من الامر شيء ما عدوت بها القاسم بن محمد [١٤] . ويذكر اليعقوبي ان العالم الجليل ميمون بن مهران ، كان ثاني اثنين – أولهما القاسم – سعى عمر إلى استخلافه من بعده لولا أن عاجله بنو امية بالسم قبل أن يخرج الأمر منهم [١٥] .

ومن ثم حان الوقت لكي نستعرض محللين كفاح عمر لترسيخ قيم الحق والعدل في شتى الميادين ، ولنتأمل معا هذه الحادثة ، فهي بليغة الدلالة على ما نحن بصدده :

لما وصل خبر تولية عمر الخلافة إلى سكان ما وراء النهر ، اجتمع أهل سمرقند وقالوا لسليمان بن أبي السرّي : « ان قتيبة غدر بنا ، وظلمنا وأخذ بلادنا ، وقد أظهر الله العدل والانصاف ، فائذن لنا فليفدْ منا وفد إلى أمير المؤمنين ، يشكون ظلامتنا ، فان كان لنا حق أعطيناه ، فان بنا إلى ذلك حاجة » . فاذن لهم سليمانُ . فوجهوا منهم وفدا قدم على عمر في دمشق ، وبعد أن شرحوا له ظلامتهم ، كتب لهم كتاباً موجها إلى سليمان جاء فيه « ان أهل سمرقند قد شكوا الي ظلما أصابهم ، وتحاملا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم . فاذا اتاك كتابي فاجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم ، فان قضى لهم ، فاخرج – المسلمين – إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة » !

قرأ سليمان الكتاب ثم أجلس للأهالي القاضي (جميع بن حاضر) لينظر في ظلامتهم ، وبعد أن سمع شكواهم بصدر رحب قضى بأن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم خارج أسوار المدينة وينابذوهم على سواء فأما أن

---

(١٣) طبقات ابن سعد ٥-٢٥٣ .

(١٤) المصدر السابق ٥-٢٥٤ .

(١٥) تاريخ اليعقوبي ٢-٣٠٢ .

تعلن الحرب ثانية وأما أن يتفق الطرفان على أساس عادل للصلح . الا أن سكان المدينة دهشوا لهذا العدل فأعلنوا بالاجماع ودون أي تردد « بل نرضى بما كان ، ولا نجدد حربا » وقال أهل الرأي منهم : « قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم ، وأمنونا وأمناهم ، فان حكم لنا عدنا إلى الحرب ، ولا ندري لمن يكون الظفر ، وان لم يكن لنا كنا قد اجتلبنا عداوة في المنازعة » ومن ثم تركوا الأمر على ما كان ، ورضوا ولم ينازعوا !! [١٦] .

أية دولة في القرن العشرين تحني رأسها ، هكذا ، للعدل كي يأخذ مجراه وللحق كي يعود إلى أصحابه ؟! وأي حاكم في تاريخ الشعوب التي لم تعرف الله ، استجاب ، هكذا ، لنداءات المظلومين الذين سلبت حقوقهم ، كهذه الاستجابة السريعة الحاسمة من عمر بن عبد العزيز ؟ ألا أنه المسؤول الذي نذر نفسه للدفاع عن قيم الحق والعدل في أقطار الأرض ، فبدونهما تفقد شريعة الله مقوماتها وأهدافها العليا .

ولكن انظروا !! ماذا يقول (فان فلوتن) في هذه الحادثة نفسها !! انه يقول « ... قضى مندوب عمر بن عبد العزيز ، في أهل سمرقند ، بحكم يكاد يخفي ما انطوى عليه من الخبث حتى على أشد الناس نزاهة . وذلك أن يتقابل الفريقان تحت أسوار المدينة ، وأن يؤخذوا بالقوة ، أو أن تعقد بينهما محالفة جديدة . ومعنى ذلك أنه اذا انتصر العرب – وهو ما كان راجحاً ، فان سكان سمرقند كانوا لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم في أسوارهم – عاملوا أهل سمرقند معاملة من فتحت بلادهم عنوة ، اللهم الا اذا فضلوا قبول ما عسى أن يفرض العرب عليهم من الشروط . ومن الجلي ان حكم ذلك القاضي لم يغير تلك الحالة في شيء » [١٧] . و (فان فلوتن) الذي كتب هذا ، واقدام قومه وأهليه تسحق الشعوب المستضعفة بلا شفقة ، وتمرغ القيم الانسانية بالوحل اذا ما تعارضت ومصالحها (الكبرى) . (فان فلوتن)

---

(١٦) الطبري ٦-٥٦٧ – ٥٦٨ .

(١٧) السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات ص ٢٣ – ٢٤ .

كان لا بد أن يكتب هذا .. صدوراً عن البديهية التي قالها يوما شاعرٌ عربي :

ومن يك ذا فمٍ مرّ مريض   يجد مرّا به الماء الزلالا !!

* * *

منذ الساعات الاولى لتولي عمر الخلافة أعلن للناس بتحديد قاطع لا غموض فيه « ان من أراد أن يصحبنا ، فليصحبنا بخمس : يوصل الينا حاجة من لا تصل الينا حاجته ، ويدلنا من العدل إلى ما لا نهتدي اليه ، ويكون عونا لنا على الحق ، ويؤدي الامانة الينا وإلى الناس ، ولا يغتب عندنا احدا . ومن لم يفعل فهو في حرج من صحبتنا والدخول علينا » [١٨] . وبهذا أعلن عمر عن زوال تلك العهود التي كان بلاط الخلفاء يعج فيها برجال تميزوا بسلبية واتكالية وتطفل ، عرقلت في كثير من الاحيان جهود المسؤولين لحل مشاكل جماهير امتهم . فاليوم يرفض الخليفة صحبة هؤلاء ، ولا يريد الا رجالا يتميزون بالايجابية والدأب الدائم مع الحاكم في تنفيذ قيم الحق والعدل .

وفي رسالة له إلى عامله على الكوفه قال « ... ان أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله ، وسنة خبيثة استنّها عليهم عمال السوء . وإن قوام الدين العدل والاحسان ، فلا يكونن شيء أهم اليك من نفسك ، فانه لا قليل من الاثم ... ولا تعجل دوني بقطع ولا صلب ، حتى تراجعني فيه ... » [١٩].

ينظر عمر بن عبد العزيز فيرى اهرامات مصر ، ويسمع عن مباني روما العظيمة .. ان مئات الالوف من العبيد المسخرين اجبروا على اقامتها وبنائها دون اجر ، والسياط التأديبية تلهب ظهورهم لتسوقهم إلى مواقع العمل .. والوف من هؤلاء ماتوا عبر سنين طويلة من الكدح والتعب المرير .. واخرون فقدوا أيديهم وأرجلهم .. وأي ظلم أفظع من أن يسخر الانسان لخدمة ملوكه وأباطرته .. ؟ وأي ظلم أقسى من أن يموت آلاف الاحياء لكي يدفن

---

(١٨) ابن عبد الحكم ص ٤٠ – ٤١ .

(١٩) الطبري ٦-٥٦٩ .

جسد ميت في مكان أمين ؟ او لكي تتاح لامبراطور أصابه الملل فرصة ترفيهية لمشاهدة العروض الرياضية الدموية في ملعب واسع فسيح ؟! ... ويرى عمر كذلك تقليدا لهذا الظلم لدى بعض الحكام الذين سبقوه ، وان كان بدرجة أخف بكثير ، ولكنه يصدر أمره « نرى أن توضع السخر عن أهل الأرض ، فإن غايتها أمور يدخل فيها الظلم » [٢٠] . ثم يتلفت حوله فيرى عددا من رجال الاسرة الحاكمة قد استحوذوا على قطع واسعة من الأرض واتخذوها حمى ، وحرم منها أبناء الامة، فيعلن « ان الحمى يباح للمسلمين عامة ... وانما الامام فيها كرجل من المسلمين ، انما هو الغيث ينزله الله لعباده فهم فيه سواء » [٢١] .

ومنذ الدقائق الاولى لتوليه الحكم ، احس ، بفطرته الصائبة وبصيرته النافذة ، ان الحاكم المسلم يجب عليه الكفاح دون الحق والعدل ، وهو كفاح يتطلب جهداً لا يصبر عليها الا الرجال أولو البأس ، فتعلو وجهه سحابة من غم ، ويسأله مولاه عن هذا الاكتئاب في اليوم الذي يصفق له الحكام العاديون !! فيجيبه عمر : « ليس احد من الأمة الا وأنا أريد أن اوصل اليه حقه ، غير كاتب الي فيه ولا طالبه مني » ، ثم ما يلبث أن يطلق صيحته المدوية في آذان الامة وأعصابها كي تفتح أعينها جيدا ، وتأخذ حذرها من الظلم والظالمين : « ان الرجل الهارب من الامام الظالم ليس بظالم » !! [٢٢]

واسمعوه يقول لعامله على اليمن : « ... لئن لم ترفع الي من جميع اليمن الا حفنة من كَتَم، فقد علم الله اني بها مسرور ، اذا كانت موافقة للحق .. » ويأمر عامله على خراسان « ... اياك أن يكون ميلك ميلا إلى غير الحق !! » [٢٣] ويكتب إلى صاحب خراجه هناك أن « استوعب الخراج واحرزه في غير

---

(٢٠) ابن عبد الحكم ص ٩٩ .

(٢١) المصدر السابق ص ٩٧ .

(٢٢) انظر : الندوي : رجال الفكر والدعوة ، فصل (عمر بن عبد العزيز) .

(٢٣) الطبري ٦-٥٦١ — ٥٦٢ .

ظلم » [٢٤] . وكان يبغض المسؤولين المتجبرين ، ويطاردهم ، دون أن يترك لهم أي وقت للراحة . فكان يقول عن يزيد بن المهلب — عامل سليمان بن عبد الملك على المشرق — وعن أهله « ان هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم !! » [٢٥] ، وسنرى فيما بعد كيف كان عقابه العادل لعميد أسرة الجبارين هؤلاء !!

ويتقدم عمر بنا خطوات واسعة اخرى صوب قيم الحق والعدل ، فنجده يكتب إلى عماله الاّ يهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحوا عليه ... والا يجروا الشاة إلى مذبحها ، ولا يحدّوا الشفرة على رأس الذبيحة [٢٦] !! ذلك انه مسؤول .. مسؤول عن الاطاحة بكل ما يومىء بتخويف أو ظلم لأي من الخلائق .. مسؤول عن وقف أي اسلوب غير عادل في التعامل مع هذه الخلائق جميعا .. إن بني آدم يستطيعون — على الاقل — أن يصرخوا ، أن يرفعوا شكواهم ، أن يقولوا شيئا إزاء الظلم المسلط عليهم .. أما الحيوان الاعجم فماذا يستطيع أن يقول عندما يتعذب وهو ينظر إلى السكين التي ستذبحه ، تمدّ امام عينيه ؟ وهو — عمر — لا زال يتسمع إلى كلمات الرسول العظيم (إن الله كتب الاحسان على كل شيء ، فاذا قتلتم فاحسنوا القتلة ، واذا ذبحتم فاحسنوا الذبحة ، وليحدّ أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته) [٢٧] . وفضلاً عن ذلك ، أصدر عمر أوامره بمنع استخدام اللجم الثقيلة مع الخيول والبغال ، كما منع استخدام المناخس ذات الرؤوس الحديدية ، وحدد حمولة البعير بستمائة رطل بعد أن بلغه ان بعضهم يحملونها ما يزيد على الالف رطل مما هو فوق طاقتها [٢٨] . ذلك اذن هو مفهوم الحق والعدل لدى اتباع خاتم

---

(٢٤) الطبري ٦-٥٦٨ .

(٢٥) المصدر السابق ٦-٥٥٧ .

(٢٦) المصدر السابق ٦-٥٧٢ .

(٢٧) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة .

(٢٨) ابن عبد الحكم ص ١٥٩ — ١٦٠ .

الانبياء ، وتلك هي آفاقه البعيدة التي تحتضن كل المخلوقات : أحمرها وأسودها ، مسلمها وذميها ، انسانها الناطق وحيوانها الاعجم ! !

* * *

وكثيرة هي تأكيدات عمر على الحق والعدل .. تأكيدات لا تشم منها أبداً رائحة العشق الافلاطوني للقيم المعلقة في عالم المثال ، ولكنا نحس — عكس ذلك — رغبة عميقة ، وعزماً أكيداً على بعثها حية متحركة في عالم الواقع . من أجل ذلك كان عمر يكتب دائما إلى عماله يذكرهم ويشدهم إلى الاهداف العظيمة التي آمن بها وسعى اليها .. ومن أجل ذلك كان يصل الليل بالنهار ، ويقتطع الساعات الطويلة من أوقات راحته كي يرد المظالم وينشر أجنحة العدل . وقد ظل رضي الله عنه منذ ولي الخلافة إلى أن مات في دوامة من العمل الذي لا ينتهي في هذا السبيل . حتى قال سليمان بن موسى « ما زال عمر بن عبد العزيز يرد المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات »[٢٩] .

كتب إلى أهل الحج كتابا ليقرأ عليهم في الموسم ، وهو ليس كلمات تقال ولكنه صرخات تدوي في حشود الناس يوم عرفات .. صرخات الخليفة التي أراد أن يطلقها بنفسه على عرفات ، وجها لوجه مع جماهير امته ، ولكن أعماله حالت دون ذلك . فليرسلها — اذن — مع أحد عماله ، وليكلف المسؤول عن الحج أن يرفع بها عقيرته .. اسمعوا : « ... انا معوّل كل مظلوم !! الا واي عامل من عمالي رغب عن الحق ، ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم ، وقد صيرت أمره اليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم !! الا وانه لا دولة بين أغنيائكم ، ولا اثرة على فقرائكم في شيء من فيئكم .. ولولا ان أشغلكم عن مناسككم لرسمت لكم أموراً من الحق أحياها الله لكم ، وأمورا من الباطل أماتها الله عنكم ... »[٣٠] . أرأيتم ؟؟ انه يقول للجماهير عن العامل الذي يرغب عن الحق : لا طاعة له عليكم ،

---

(٢٩) ابن سعد ٥-٢٥١ .

(٣٠) ابن الجوزي ص ٧٢ — ٧٣ .

وقد صيرت أمره اليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم !! لماذا لم يقولوا لنا هذا في مدارسنا ؟ لماذا لم يطبعوا على اعصابنا صورة هذه الحرية الحقيقية في مناهجنا ؟ لماذا لم يكشفوا لنا عن هذه الصورة الفريدة من دستورنا وتاريخنا ؟ في الوقت الذي تشبث فيه مخططو تلك المناهج ودارسو هذه الصور (بمونتسكيو) و (جان جاك روسّو) قائلين لنا ان هؤلاء وغيرهما من مفكري الغرب وفلاسفتهم من دلّ البشرية ، لاول مرة ، على مفهوم العقد الاجتماعي بين الحاكم والمحكوم!!

لا علينا من هذا ، ولنعد إلى عمر بن عبد العزيز وهو يصعد الدرجات صوب مزيد من الترسيخ لقيم الحق والعدل . ها هو يكتب إلى عامله على المدينة : « اياك والجلوس في بيتك » ثم ما يلبث أن يصرخ به « اخرج للناس ، فآسي بينهم في المجلس والمنظر . ولا يكن احد من الناس آثر عندك من احد . ولا تقولن هؤلاء من أهل بيت امير المؤمنين ، فان أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندي اليوم سواء . بل انا أحرى ان اظن بأهل بيت أمير المؤمنين انهم يقهرون من نازعهم !! » [٣١] . ويكتب إلى عامله على الكوفه « ... اعلم اني قد أشركتك في أمانة عظيمة ، فان ضيعت حقا من حقوق الله كنت أهون خلقه عليه ، ثم لا يغني عنك عمر من الله شيئا » [٣٢] . إن الحق بيد الله الذي أقام ملكوته على الحق ... والذي ينحرف عن جادة الحق ، لن تستطيع قوة في الأرض أن تغني عنه شيئا .. ان الله وحده آخذه يوماً بهذا الانحراف !!

ويستفزه عشقه للحق يوما فيكتب إلى أحد عماله « اذا جاءك كتاب مني على غير الحق فاضرب به الأرض !! » [٣٣] . ويكتب إلى آخر « أما بعد : فالزم الحق ينزلك الحق منازل أهل الحق ، يوم لا يقضى بين الناس الا بالحق وهم لا يظلمون » [٣٤]. ويخطب يوما في حشد من الغرباء تنادوا

---

(٣١) ابن سعد ٥-٢٥٢ .

(٣٢) المصدر السابق ٥-٢٩٠ .

(٣٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٩-٢٠١ .

(٣٤) ابن الجوزي ص ٩٤ .

إلى دمشق من بلاد شتى : « أيها الناس الحقوا ببلادكم ، فاني أنساكم عندي واذكركم ببلادكم ..الا فمن ظلمه إمامُه مظلمة فلا اذن له علي – اي لا حجاب بيني وبينه – ومن لا ، فلا أرينه .. والله لولا ان انعش سنة أو أسير بحق ، ما أحببت أن أعيش فُواقاً » [٣٥] .

وذات يوم يتقدم عبد الملك ، الشاب الورع ، من أبيه عمر ويدور بينهما هذا الحوار :

الابن : يا أمير المؤمنين ، ما تقول لربك اذا أتيته وقد تركت حقاً لم تحيه وباطلاً لم تمته ؟

الأب : يا بني ان أباك وأجدادك قد دعّوا الناس عن الحق فانتهت الأمور إليّ ، وقد أقبل شرّها وأدبر خيرها . ولكن اليس حسناً وجميلا الا تطلع الشمس علي في يوم الا احييت فيه حقا وامتّ فيه باطلا ، حتى يأتيني الموت فأنا على ذلك ؟! » [٣٦] . وفي أحد الأيام يخرج عمر برفقة مولاه مزاحم ، ليجوسا خلال القرى والارياف ، يتفقد أخبارها وهو متخف بزي لا يعرفه فيه أحد كشأنه دائما عندما يقوم بجولاته هذه . وفي الطريق يلقاهما راكب من أهل المدينة ، فيسألانه عن أحوال الناس وما وراءه فيجيب « اني تركت المدينة والظالم بها مقهور ، والمظلوم بها منصور » فما يتمالك عمر نفسه من الفرح ويلتفت إلى صاحبه قائلاً : والله لئن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحب إلي مما طلعت عليه الشمس » [٣٧] .

وكثيرا ما كان عمر يقول : « ما وجدت من أمر هو الذ عندي من حق وافق هوى » [٣٨] . ذلك ان الحق كثيرا ما يكون طعمه كالعلقم ، ومع ذلك لم يكن عمر ليتخلى عنه بحجة أنه لا يستسيغ مذاقه ، وحاشاه ، وأما

---

(٣٥) ابن عبد الحكم ص ٤٢ – ٤٣ .

(٣٦) ابن الاثير : الكامل ٥-٦٥ – ٦٦

(٣٧) ابن عبد الحكم ص ١٣١ .

(٣٨) ابن سعد ٥-٢٤٥ .

اذا كان الحق مقترناً بهوى ذاتي ، برغبة داخلية ، بشوق عميق ، فما أروعه من حق وما ألذه ! !

وماذا عن العدل ؟ اسمعوه يقول « لوددت لو عدلت يوما واحدا وأن الله توفى نفسي » [٣٩] . وما أروع قول القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وهو يصف عصر عمر : « اليوم ينطق كل من كان لا ينطق » [٤٠] . وتلك هي قمة سامقة من قمم الحق والعدل : ان تطلق للكلمة حريتها .. ان يقول كل انسان ما يريد قوله .. أن يصرخ كل مظلوم بظلامته .. أن ينادي كل مغبون بأعلى صوته .. أن ينطق كل من كان لا ينطق . ويوم يتاح لكل انسان – في امة من الامم – أن يقول ما يشاء ، فاعلم انها امة لا يمكن لاية قوة في الأرض أن تهزمها لأن كل فرد فيها يشعر بتوحده الوجداني والفكري بين الباطن والظاهر ، ويتسع هذا التوحد ليشمل كيان الامه كلها : وجدانا وفكرا .. ويوم تحبس الكلمات في الصدور ، ولا يتاح لها الانطلاق لاحقاق حق أو اشاعة عدل – في امة من الامم – فاعلم انها أمة ستهزم للضربة الاولى التي تأتيها من خارج حدودها . لأن الكلمات – وقد حبست في الصدور – بدأت تحفر وتهدم في داخل كل انسان ، في فكره وضميره ووجدانه ، وسرعان ما يصيبه التمزق والازدواج .. ويتسع هذا التمزق وهذا الازدواج ليشمل كيان الامة كلها فكرا وضميرا ووجدانا . وما أروع عمر وهو يعبر عن هذه الحقيقة بوضوح « انما هلك من كان قبلنا بحبسهم الحق حتى يشترى منهم ! وبسطهم الظلم حتى يفتدى منهم ! » [٤١] . ما أروعه وهو يوضح مدى ارتباط الحق بالقيم الدينية ، وتهافت هذه القيم بضياع الحق « لم أر شيئا أعون للمسلم على دينه من اعطائه حقه » [٤٢] . ما أروعه وهو يدفع الناس

---

(٣٩) المصدر السابق ٥-٢٩٦ .

(٤٠) المصدر السابق ٥-٢٥٤ .

(٤١) ابن الجوزي ص ٢٠٧ .

(٤٢) اليعقوبي : تاريخ ٢-٣٠٦ .

دفعا إلى الصراخ .. إلى اخراج كلماتهم الحبيسة ، إلى النداء بكل ما يجيش في عالمهم الباطني .. إلى تحديد مواقفهم بوضوح : ازاء سياسة الخليفة وبرامجه ، ازاء أي انحراف يمكن أن يبدر منه عن قيم الحق والعدل .. ما أروعه وهو يدخل مسجد دمشق وينادي بأعلى صوته : « الا لا طاعة لنا في معصية الله » [٤٣] ما أروعه وهو يلتفت إلى عمرو بن مهاجر قائلاً في نبرة توسل ورجاء « يا عمرو اذا رأيتني قد ملت عن الحق فضع يدك في تلابيبي ، ثم هزني ، ثم قل لي : ماذا تصنع ؟! » [٤٤] .

أية قمة هذه يا حفيد ابن الخطاب؟! ولكن مهلاً .. تعالوا معنا لنصعد إلى القمة السامقة التي ما بعدها قمة .. القمة التي تتقطع دونها أنفاس الحاكمين ، ويجلد من أجلها كل يوم في مشارق الأرض ومغاربها الاف المظلومين .. ها هو ذا عمر ، وهو في قمة الكفاح من أجل الحق والعدل يعلق « أما بعد : فايما رجل قدم الينا في مظلمة ، أو أمر يصلح به خاصا أو عاما من أمر الدين ، فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار !! بقدر ما يرى الحسبة وبعد السفر ، لعل الله يحيي به حقا أو يميت به باطلاً ، أو يفتح به من ورائه خيرا .

ولولا اني أطيل عليكم واطنب .. لسمتُ أموراً من الحق أظهرها الله وأموراً من الباطل أماتها الله ... ! ! » [٤٥] . هل لأحد أن يعلّق ، أو يقول شيئا تجاه عمر وهو يحرك الناس ليقولوا كلماتهم ويعلنوا عن مواقفهم ؟ ليس اذن غير الاسلام — هذا المبدأ الداخلي العميق — من يدفع الانسان السوي إلى اجتياز درجات الحياة واحدة تلو أخرى في الطريق إلى القمة ، وليس — اذن — غير الاسلام ما يحيل حياة المسؤولين إلى كفاح شاق ، ولكنه لذيذ ، من أجل التفوق والاستعلاء ، بمجرد أن يضع أمام المسلمين دوما صورةً كالتي مرت بنا لأولئك الاجداد الحكام الذين اجتازوا

---

(٤٣) ابن سعد ٥-٢٥٣ .

(٤٤) ابن الجوزي ص ١٧٢ .

(٤٥) ابن عبد الحكم ص ١٣٧ .

الدرجات ، صاعدين إلى القمة ، وهم ينافحون عن الحق والعدل الازليين !!

* * *

تلك قبسات من مواقف عمر ورؤاه لقيم الحق والعدل في ميدانها الواسع الفسيح ، ميدان الحياة في شتى ارجائها وأبعد آمادها ، وميدان النفس في أعمق أغوارها ، وأكثر منحنياتها غموضا وتعقيدا .. وما دام ذلك كذلك ، فأحرى بقيم الحق والعدل هذه أن تبدو أكثر وضوحا في المؤسسات القضائية التي أنيطت بها حراسة هذه القيم ، والفصل في كل ما يتعلق بها على النطاق القانوني – الرسمي .

ان أبرز موقف يميز عمر هنا هو أن حرصه العجيب على ترسيخ قيم الحق والعدل جعله يتجاوز شكليات القضاء ومراسيمه صوب جوهر القضية . إن الحق يجب الا يذوب ويتلاشى ازاء هذه المراسيم والشكليات ، وان أهم ما يجب على القاضي أن يضعه نصب عينيه هو التراجع عن أحكامه في اللحظة التي يبدو فيها جانب جديد من جوانب القضية ، كان مطموساً من قبل .. ان تأكيدات عمر بن عبد العزيز على ضرورة التراجع العادل هذا ، تذكرنا بتأكيدات جده الشهير في ميدان القضاء . اسمعوا الحفيد يقول بكلمات قاطعة لا تقبل تأويلا : « ما من طينة أهون علي فتاً ، ولا من كتاب أيسر علي رداً ، من كتاب قضيت به ثم أبصرت ان الحق في غيره ، ففتتتها !! » [٤٦] . ومرة تقدم رجل – كان عمر قد قضى عليه في احدى المسائل قائلاً : ان لي بينة غائبة . فأجابه عمر : اني لا أؤخر القضاء بعد أن رأيت الحق لصاحبه ، ولكن انطلق انت فان أتيتني ببينة وحق هو أحق من حقهم فأنا أول من رد قضاءه على نفسه [٤٧] .

وقيمة أخرى لا تقل أهمية ، نلمحها بوضوح في فقه عمر للقضاء ، القيمة التي لم يصل اليها القانون الغربي الا أخيرا ، وبعد مئات السنين من

---

(٤٦) ابن الجوزي ص ٧٥ .

(٤٧) ابن سعد ٥-٢٨٥ .

الاخطاء والمظالم والأخذ بالظن ، سقط عبرها الاف الضحايا ، تلك هي (درء الحدود بالشبهات)[٤٨] . ونكتفي هنا بتعليم واحد من تعليمات عمر بن عبد العزيز في هذا المجال .. يقول « ادرأوا الحدود ما استطعتم في كل شبهة ، فان الوالي اذا اخطأ في العفو خير من أن يتعدى في العقوبة »[٤٩] . وهذا بدوره يذكرنا بمواقف ابن الخطاب الفريدة في ميدان القضاء ... أو ليس الجد والحفيد يقبسان من مشكاة واحدة ، هي مشكاة القران والسنة ؟! المشكاة التي على ضوئها الوهاج ما ضاع يوما حق ولا اغتيل عدل ..

* * *

من أجل هذا ، فان عمر بن عبد العزيز : مهدي الامة الاسلامية .. حلمها الذي كانت تنتظره منذ سنين .. الرجل الذي ملأ الأرض عدلاً ، بعدما ملئت جوراً وظلما !! .. الانسان الذي أعاد إلى بني آدم قيم الحق والعدل التي عرفوها يوما على عهد الرسول وخلفائه الراشدين ، وأصبحت بالنسبة اليهم واقعا يجب أن يتحقق مهما طال الظلم والجور والانتظار .. !! عن نافع قال : كنت اسمع عبد الله بن عمر كثيرا ما يقول : « ليت شعري من هذا الذي من ولد عمر ، في وجهه علامة ، يملأ الأرض عدلا ؟ » . وعن سالم الافطس : أن عمر بن عبد العزيز رمحته (أي ضربته) دابة ، وهو غلام بدمشق ، فجيء به إلى أمه ، بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، فضمته اليها وجعلت تمسح الدم عن وجهه ، ودخل أبوه عليها وهي على تلك الحال ، فاقبلت عليه تعذله وتلومه وتقول : ضيعت ابني ولم تضم اليه خادما ولا حاضنا يحفظه من مثل هذا !! فقال لها : اسكتي يا أم عاصم ، فطوباك اذا كان اشج بني امية !![٥٠] . وروى ابن سعد في طبقاته ان سعيد بن المسيب سئل من قبل رجل : يا أبا محمد ، من المهدي ؟ قال له سعيد : أدخلت

(٤٨) انظر فصل (ادرأوا الحدود بالشبهات) من كتاب (قبسات من الرسول) لمحمد قطب .

(٤٩) ابن الجوزي ص ١٠٣ .

(٥٠) الطبري ٦-٥٦٦

دار مروان .. ؟ قال الرجل : يا أبا محمد دخلتها فلم ار احدا أقوى هذا المهدي . قال سعيد : هل رأيت الا شجَ عمر بن عبد العزيز القاعد على السرير ؟ قال : نعم . قال : فهذا هو المهدي (٥١) ! ! .

***

التجرّد الكامل ... التقوى .. الحق والعدل .. تلك اذن مطامح امة كانت تنتظر منذ زمن بعيد عودة ابن الخطاب ! ! وها هو ابن الخطاب يعود ، في شخص حفيده : عادلاً .. متجرداً .. خائفا من عذاب الله ..

ولنخرج – من ثم – من البيت ، لنرى ماذا تصنع هذه التقوى ، وتلك القسوة ، التي كان عمر يعامل بها نفسه وأهله وبنيه ، وذلك التشبث الفريد بقيم الحق والعدل .. لنرى كيف يحيل الاشفاق من الله ، والفطام عن اللذات ، والسهر على موازين الحق والعدل : خليفة الدنيا ، ليس إلى حاكم قدير فحسب ، بل إلى قوة عجيبة تلوي عنق الانحراف ، ويد ماهرة مكينة تصمد لتيار التاريخ وتوجهه – على عين الله ورعايته – وجهة جديدة ، وتصبغ معطيات الانسان والشعوب والامم بصبغة الله ..

في سنتين وخمسة أشهر تمكن عمر بن عبد العزيز أن يصنع المعجزات .. ولو أتيح له أن يبقى سنين اخرى لصنع الكثير ، ولأحدث أعظم انقلاب عرفه التاريخ ، بعد الانقلاب الذي شهدته البشرية على عهد الرسول وخلفائه الراشدين . لكنه توفي – وربما اغتالته الايدي المشدودة إلى الأرض – وهو بعد في عنفوان الرجولة ، وكان بامكانه أن يصنع الكثير الكثير ، ما دام قد تمكن من نفسه هذا التمكن ، وبلغ قمة المنحنى في هذا العمر المبكر ..

ولا علينا أن ننتظر من عمر أن يحيا أكثر من هذا ، فتلك مشيئة الله وحكمته العليا .. ولنستعرض – من ثم – بعضا مما صنعته يداه المؤمنتان الماهرتان القويتان .. في انقلابه العجيب ..

---

(٥١) ابن سعد ٥-٢٤٥ .


صفحة فارغة

الفصل الثاني

الدعوة والحرب والسياسة

« ومن احسن قولاً ممن دعا الى الله
وعمل صالحاً ، وقال : انني من المسلمين .
ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي
احسن ! ! فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه
ولي حميم » .

فصلت ٣٣ — ٣٤



على جبهات عديدة كان عمر بن عبد العزيز يكافح بهمة لا تعرف الكلل ، وعزيمة ماضية لا توقفها قوة في الأرض ، وارادة مصممة جازمة تختار في اللحظات التي يضيع فيها الرجال . على الجبهات العسكرية والسياسية والاقتصادية والادارية والتعليمية كان عمر يعمل ، ويناضل عن الدولة الممتدة حدودها من الصين إلى بحر الظلمات .. ينفذ مطاليب الشعوب ، ويعمر الطرق والمؤسسات ، ويطارد الظلم والطغيان في كل مكان .. يغمد السيوف التي استلت دونما ضرورة كيلا تسفك قطرة دم واحدة ، وتذهب هدراً وهو عنها مسؤول .. يعيد المالية والاقتصاد إلى اطاراتها العادلة من القرآن والسنة كيلا تضيع في الأرض البور قطرة عرق واحدة وهو عنها مسؤول .. يعزل الولاة ، ويضع الحكام الجدد تحت مسؤولية ثقيلة قاسية تنوء بحملها طاقات الرجال ... يتفاوض مع الشعوب بالحق والعدل ، ويعطي للمعارضة البرهان الساطع لا السيف القاطع ، ويتقدم إلى العلماء – لأول مرة في تاريخ الفكر الاسلامي – أن يجمعوا ويدققوا ما قاله رسولهم العظيم قبل فوات الاوان ... !

ولكن قبل هذا كله ، وبعد هذا كله ، كان كفاح عمر ، ووصله الليل بالنهار ، ينصب على الجبهة الواسعة التي تتفرع عنها سائر الجبهات : جبهة العقيدة التي تعد – بلا جدل – الارضية الثابتة التي تحكم سائر التحركات

والاصلاحات والانقلابات .. البستان الواسع الذي ينبت المؤمنين الذين يستطيعون أن يحيلوا الكلمة إلى حياة ، والحرف إلى حركة ، وبذور الانقلاب إلى تاريخ وحضارة لا يزولان . ومن ثم ظل عمر — طوال فترة خلافته — يعمل لتحقيق مزيد من الانتصارات على جبهة العقيدة والدعوة : يعمق كلمة الايمان في القلوب والعقول ، يمد الاسلام إلى أراض جديدة وشعوب جديدة ، بالحجة والاقناع .. يراسل القادة والحكومات والملوك يدعوهم إلى الاسلام .. يرسل كبار فقهائه ليعلموا الشعوب الجديدة على الاسلام أبعاد عقيدة التوحيد ، ويمدوا أمام أنظارها افاقها البعيدة الحدود . ومن ثم — كذلك — نجد عمر على استعداد للتضحية بأي شيء في الدولة في سبيل تحقيق نصر جديد في هذه الجبهة ، رافعا حتى النهاية شعار : دولة العقيدة لا دولة الاحتراف ، .. (الهداية لا الجباية) .. ولننظر :

ما إن بدأ عمر بتنفيذ برنامجه الواسع باسقاط الجزية عمن أسلم ، حتى أحس بعض عماله على الاقاليم ان هذه السياسة ستوجه ضربة قاصمة إلى مالية الدولة . ولم يكن هؤلاء — والحق يقال — ينظرون إلى أبعد من مستوى نظرهم ، لأنهم لم يدركوا أن عمر ، باعادته النظام المالي إلى اطر القرآن والسنة ، وسوابق الراشدين وتطبيقاتهم ، سوف ينجز انقلابا اقتصاديا فريدا ، ويحدث أروع توازن مالي شهده عصر بني امية بين الموارد والمصارف. وليس لنا أن نستطرد هنا حول هذا الموضوع لان تفاصيله ستأتي في محلها .. والمهم هو أن بعض هؤلاء العمال أشفقوا على ميزانية الدولة أن يصيبها العجز أثر دخول الناس في الاسلام وسقوط الجزية عنهم ، وعن أولئك الذين أسلموا قبلهم . ويتقدم ايوب بن شرحبيل الاصبحي ، والي مصر ، يستأذن عمر في أن يعيد فرض الجزية على من أسلم ، على الاقل في ولايته هو . ولكن عمر يجبهه بالقول الفصل : « ضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيك !! فان الله انما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ، ولم يبعثه جابيا . ولعمري لعمر أشقى من

أن يدخل الناس كلهم في الاسلام على يديه »[1] .

وفي خراسان ، تتقدم بطانة السوء وذوو المصالح الخاصة من الجراح بن عبد الله ، عامل الامويين هناك ، أن يمتحن الداخلين إلى الاسلام بالختان ، ليرى هل ان نفورهم من الجزية دفعهم إلى اعتناق الاسلام ؟! ويكتب الجراح إلى عمر بذلك ، فيأتيه رده الحاسم : « ان الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم داعيا ، ولم يبعثه خاتنا »[2] . ومن البصرة تجيئه رسالة عامله هناك : « ... الناس قد كثروا في الاسلام وخفت أن يقل الخراج[3] ... » فيجيبه عمر « فهمت كتابك .. والله لوددت ان الناس كلهم أسلموا ، حتى نكون أنا وانت حرّاثين نأكل من كسب ايدينا »[4] .

ومن ثم أخذ عمر يبذل مزيدا من الجهود لنشر دعوة الاسلام في أقطار الأرض : فكتب إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الاسلام والطاعة ، على ان تبقى أملاكهم واماراتهم بايديهم ، ولهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم . وكانت سيرة عمر ومذهبه في الحكم والحياة قد بلغت هولاء ، فأسلموا وتسموا بأسماء العرب[5] . كما دفع عمر برسائله ووفوده إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الاسلام ، فاستجاب له بعضهم ، كما استجاب له كثير من أهالي تلك المناطق ، فأمر ببناء الخانات كي تكون لهم محطات يأوي اليها الغرباء والمسافرون والمنقطعون[6] . كما كتب إلى (ليو) الثالث ، امبراطور الروم ، يدعوه إلى الدخول في الاسلام[7] .

وكان عمر يؤكد على اختيار العمال الذين يلتزمون نفس السياسة التي

---

(1) ابن سعد : طبقات ٥-٢٨٣ ، علي ابراهيم حسن : التاريخ الاسلامي العام ص ٣٠٩ .

(2) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٦-٥٥٩ — ٥٦٠ .

(3) يقصد — هنا — الجزية التي كانت تسمى أحياناً : خراج الرأس .

(4) ابن الجوزي : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٩ — ١٠٠ .

(5) البلاذري : فتوح البلدان ص ٥٤٠ ، ابن الاثير : الكامل ٥-٥٤ — ٥٥ .

(6) البلاذري ص ٥٢٤ ، كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ٢-١٨٩ .

(7) توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٠٢ (ترجمة حسن ابراهيم حسن ورفاقه)

تسير عليها الدولة ، ويعملون تحت نفس الشعار الذي رفعه الخليفة الداعية : (الهداية .. لا الجباية) . وكان يأمرهم بدعوة الناس إلى الاسلام ، وعمم عليهم كتابا جاء فيه « ... ان الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة فقال (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا) وقال (يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا) .. فادع إلى الاسلام ، وأمر به ، فان الله تعالى قال (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين؟)[8] ومن ثم نشط عماله في الدعوة إلى الاسلام ، حتى ليقال ان الجراح – عامله على خراسان – تمكن من ادخال نحو من أربعة الاف شخص في الاسلام [9] ، وقدمت عليه وفود مناطق (ألتبت) يسألونه أن يبعث اليهم من يعرض عليهم الاسلام ، فوجه اليهم السليط بن عبد الله الحنفي [10] .

كما ولى عمر على المغرب اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر فسار في البلاد أحسن سيرة ، ودعا البربر إلى الاسلام . وكتب اليهم عمر – من جهته – كتابا يحضّهم فيه على الدخول في الدين الاسلامي ، فقرأه اسماعيل عليهم ، وبذل نشاطا ملحوظا في دعوتهم ، بحيث دخل معظمهم الاسلام الذي غطى كافة أرجاء المغرب ، وما لبث الخليفة أن أرسل اليهم عشرة من الفقهاء ليفقهوهم في أمور دينهم [11] .

كانت مصلحة الشريعة – في دولة عمر – فوق أي اعتبار اخر ، وحيثما حدث تصادم بين مصلحة الشريعة والمصلحة المالية ، رجح الاولى دونما تردد .. كتب إلى عروة بن محمد عامله على اليمن يقول « ... انك كتبت الي تذكر انك قدمت اليمن فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج ، مضروبة ، ثابتة في أعناقهم كالجزية . يؤدونها على كل حال ان اخصبوا أو أجدبوا ، وحيوا او

---

(٨) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٤ .
(٩) ابن سعد ٥-٢٨٥ ، ارنولد ص ١٠٢ .
(١٠) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ٢-٣٠٢ .
(١١) البلاذري ص ٢٧٣ ، ارنولد ص ٣٥١ .

ماتوا . فسبحان الله رب العالمين ، ثم سبحان الله رب العالمين ، ثم سبحان الله رب الغالمين !! اذا أتاك كتابي هذا فدع ما تنكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحق ، ثم ائتنف الحق فأعمل به ، بالغابي وبلك ما بلغ وان احاط بمهج أنفسنا . وان لم ترفع الي من جميع اليمن الا حفنة من كَتَم ، فقد علم الله اني بها مسرور ، اذا كانت موافقة للحق » (١٢) .

* * *

عندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كانت زهرة قوات المسلمين تحاصر القسطنطينية دون جدوى . الشتاء ببرده وثلوجه يصب نقمته على جندهم في البر والبحر ، والجوع يتأكلهم من الداخل ، بعد أن قام قائدهم مسلمة بن عبد الملك باحراق الميرة ليدفع قواته إلى هجوم حاسم ضد معقل القسطنطينية العظيم . وما أن بدأ هجومهم حتّى استدرجهم الامبراطور البيزنطي الجديد (ليو) قريبا من الاسوار ، وصب عليهم حمما من النار اليونانية فأحرقت سفنهم ، وفتكت بعدد كبير منهم ، وشتت هجومهم الموحد .

كانت هذه القوات قد بدأت مهمتها منذ العام الماضي (٩٨ هـ) حينما حشد سليمان بن عبد الملك قوات تبلغ الثمانين الفا لتحقيق الهدف الذي عجز عن تحقيقه سلفه العظيم معاوية بن أبي سفيان ، الا وهو الاستيلاء على مفتاح اوربا الشرقي ، والانسياح من هناك إلى أعماق القارة . ولكن كل هذه المحاولات ذهبت عبثا ازاء مناعة أسوار القسطنطينية واحاطتها بالبحر من ثلاث جهات . وها هي الحملة الكبرى تلاقي مصيرا أشد قسوة من مصير ما سبقها من حملات ، حتّى يضطر جندها من شدة الجوع إلى أكل الدواب !!

ويتولى عمر الخلافة ، فهل يرضى لاخوته وأبنائه أن يموتوا هناك ، دون جدوى ، وهو الذي بلغ حسّه بالقرآن درجة عجيبة ، ووعى اياته وعيا عميقا ، ومنها تلك التي تقول (ولا تلقوا بايديكم إلى التهلكه) ؟! هل يرضى عمر لقواته أن يمزقها الجوع ، وتحرقها النار اليونانية ، ويشلها

(١٢) ابن عبد الحكم ص ١٢٣ .

البرد والزمهرير ؟ ويسحقها اليأس والغربة ، دونما امل قريب او بعيد في تحقيق النصر ؟ ان منطق القادة العسكريين لتتبدى روعته ليس في الاصرار على هجوم غير مجد ، وتقديم الناس قرابين لأهداف كالسراب . ان منطق هؤلاء القادة يتعرض لامتحانه الخطير في لحظات الهزيمة هذه ، وأن القائد الحصيف ليجتازه بمهارة عجيبه .

لقد كان بامكان خالد بن الوليد (رضي الله عنه) ، في معركة مؤته ، أن يخوض بالمسلمين ، بعد هزيمتهم أمام الروم ، ومقتل قوادهم الثلاثة ، معركة انتحارية ، ويقدم جنده قرابين للدعوة التي جاءوا يحملون راياتها إلى مشارف امبراطورية الروم . ولكن حصافته منعته من هذا ، وهيأت له نظرته الثاقبة خطة للانسحاب ، والحفاظ على أرواح جند شاءت حكمة الله ، وبراعة سيفه المسلول ، أن يلعبوا دورهم فيما بعد ، في معركة الثأر التي قادها اسامة بن زيد بعد زمن قصير . ولو تمكن نابليون وهتلر — على سبيل المثال — من تأمين انسحاب منظم لقواتهما الحاشدة في روسيا ، عبر ساعات الهزيمة المرة والبرد والجوع والموت ، لكان لتاريخهما وجهة جديدة ومصيرا اخر .

وعمر ، وهو يسوس امته من دمشق ، كان بامكانه أن يقدم على مزيد من المجازفات ، على أمل ان التاريخ سيسجل في يوم عظيم : ان عمر بن عبد العزيز تمكن من كسر الباب الشرقي لاوربا ، وفتح الطريق أمام خيول المسلمين تطأ بسنابكها جهات القاره الاربع !! ولكن عمر لم يكن يريد أمجادا من هذا النوع ، فهو مسؤول عن كل قطرة دم تراق في سبيل أهداف بعيدة المنال . ومن ثم يرسل إلى القائد مسلمة بن عبد الملك — دونما تردد — يأمره بالعودة بمن بقي معه من القوات . ولكي يؤمن انسحابهم وجه اليهم — على جناح السرعة — خيلا عتاقا وطعاما كثيرا . وحث الناس — عبر الطرقات التي ستمر منها القوات المنسحبة — أن يساعدوهم ويقدموا لهم ما يحتاجون اليه [١٣] .

---

(١٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٦-٥٥٣ ، ابن خياط : تاريخ ١-٣٢٦ .

ولم يقف عمر عند هذا الحد ، بل راح يراقب أوضاع المسلمين في الثغور التي كانت ، طيلة السنين الماضية ، أهدافا لضربات البيزنطيين ، بالنظر لطبيعة موقعها المتوغل في بلاد الاعداء . وراح الخليفة — يتخذ من الاجراءات ما ينسجم واستراتيجيته الجديدة . فسعى إلى هدم حصن (المصيصة) وترحيل أهله عنه لما كانوا يقاسونه من الروم . الا انه توفي قبل اتمام مشروعه هذا [١٤] . وقام باجراء حاذق بالنسبة لموقع (طرندة) الذي نزله المسلمون وأقاموا فيه مساكنهم ، رغم توغله في بلاد الروم واحاطته بأراضٍ لا يقطنها سوى جماعات من أهل الذمة والارمن . وكانت (ملطية) القريبة منه خرابا لا يسكنها سوى غير المسلمين من أهل الذمه والأرمن كذلك . وقد دفعت هذه الاوضاع الصعبة في المنطقة ، إلى أن تخرج سنويا قوة من جند المسلمين من الجزيرة ، فتقيم في طرندة صيفا لحمايتها ، وما أن يحل الشتاء وتبدأ الثلوج بالتساقط ، حتى تقفل هذه القوة عائدة إلى قواعدها في الجزيرة . وما ان تولى عمر الخلافة حتى قام بترحيل أهل طرندة — رغم معارضتهم — لاشفاقه عليهم من العدو ، بعد ان أمرهم باتلاف كل ما لا يستطيعون حمله من المؤونة كيلا يفيد الروم منها.ومن ثم تم تخريب طرندة ونقل أهاليها إلىملطية التي عين عليها واليا جديدا . وبهذا غدا المسلمون هناك في موقف أكثر سلامة من ذي قبل [١٥] . واذ كانت اللاذقية عرضة لهجمات الروم ، أمر عمر ببنائها وتحصينها واستكمال أسبابها الدفاعية [١٦] .

ولكن هل يعني هذا ان عمر ، بمواقفه هذه من البيزنطيين كان يعبر عن الجانب السلبي من قضايا الحرب ؟ وهل سيترك الروم يرتاحون ، وتتاح لهم فرصة من الهدوء والاستقرار تمكنهم من تحشيد قواتهم لرد الكرة على المسلمين ؟ هل سيبقى الروم — هكذا — دونما تهديد أو ردع لينهشوا أراضي

(١٤) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٩٨ .
(١٥) البلاذري ص ٢٢١ .
(١٦) البلاذري ص ١٥٧ .

الدولة من الشمال ، ويضعوا أيديهم على ثغورها واحدا بعد الآخر ؟ لا..طبعا .. فها هو عمر يسير على نفس النظام العسكري الذي وضعه معاوية بن أبي سفيان : نظام (الصوائف والشواتي) ، ذلك الذي يجعل المبادرة العسكرية بأيدي المسلمين دائما ازاء الروم عن طريق ارسال حملات نظامية موسمية في كل صيف وشتاء لغزو بلاد الروم ، وعدم اتاحة أي مجال لهم في التحول إلى الهجوم ! !

وهكذا .. فما أن حل الصيف حتى أرسل عمر الوليد بن هشام المصيطي وعمرو بن قيس الكندي على رأس قوات الصائفه صوب بلاد الروم [١٧] . وشبيه بهذه الاستراتيجية ما قام به المسلمون في الاندلس ، حيث انطلقوا من قواعدهم هناك وفتحوا مدينة (فربونة) في فرنسا وقاموا بتحصينها [١٨] ، كي تكون بمثابة خط دفاعي متين يحمي أراضيهم في شمال اسبانيا ، وكي يعطيهم هذا المركز المهم في فرنسا عنصر المبادرة والقوة على التحرك في الأراضي الفرنسية في أي وقت يشاءون .

واذن ، فموقف عمر من (مشروع فتح القسطنطينية)لا يعبر أبدا عن سلبية في ميدان القتال ، وانما يعبر عن بعد نظر وحصافة لا يتمتع بها الا القلة التي تدرك الامور ببصيرة نافذة وحرص عميق على دماء الناس وأرواحهم . وهذا الحرص يبتدىء — ثانية — في ساحة اخرى لها خطرها ، تلك هي ساحة الغزو والفتوح . فليس احرص من عمر على نشر الاسلام ، واسقاط نظم الكفر ، واتاحة حرية الاعتقاد للامم والشعوب المضطهدة .. ولكنه ما دام قد تمكن ، بدبلوماسيته واتصالاته السلمية ، أن يحقق هذا الغرض ، وان يقنع قادة وملوك وزعماء الاقوام غير المسلمة بالاسلام ، وما دام عدد كبير من هؤلاء قد استجاب لهذا الاسلوب السلمي واعتنق الاسلام ، او أتاح لشعبه — على الاقل — حرية الاعتقاد .. فلا ضرورة — اذن — لاستخدام السيف

(١٧) انظر : الطبري ، احداث عام ٩٩ هـ .

(١٨) فلهاوزن : الدولة العربية وسقوطها ، حاشية ٢ ص ٢٦١ .

للاطاحة برؤوس الطغيان الذين يقفون جدرانا كالحه أمام نور الاسلام ، ويصدون – عن طريق خنق الحريات ، عن سبيل الله ، ويبغونها عوجا . ومن ثم يرسل عمر إلى عبد الرحمن بن نعيم ، عامله على المشرق ، يأمره بارجاع ما وراء النهر من المسلمين (المحاربين) بذراريهم ، فيأبى هؤلاء ، ويكتب عبد الرحمن إلى خليفته بذلك ، فيرد عليه عمر « اللهم اني قد قضيت الذي علي ، فلا تغز بالمسلمين ، فحسبهم الذي قد فتح الله عليهم »(١٩) .

ومع ذلك فإن أي عدوان على أراضي ومواطني الدولة الاسلامية في عهد عمر ، كان يجابه بالردع العنيف الحاسم ، كيلا يعود المتربصون إلى الاعتداء مرة اخرى . ففي عام تسع وتسعين أغار الترك على اذربيجان ، وقتلوا جماعة من المسلمين ، وفتكوا بالسكان ، فوجه اليهم عمر حاتم بن النعمان الباهلي ، فقتل عددا من أولئك المغيرين ، ولم يفلت من يديه الا اليسير ، وما لبث أن قدم بالاسرى إلى الشام ليعرضهم على الخليفة (٢٠) .

واذن ، فهو البطش في ساعات البطش ، والرأي والمكيدة في اللحظة التي يختل فيها ميزان القوى المنظورة ، اسوة برسوله العظيم .

فاذا كان هذا موقف عمر إزاء أعداء الدولة الذين يتربصون بها من الخارج ، فكيف به ازاء المسلمين أنفسهم في الداخل ، اولئك الذين انضم عدد غير يسير منهم إلى الكتل والاحزاب التي كانت تعمل منذ عقود طويلة على ضرب الدولة الاموية والاستئثار بالحكم ، تلك الكتل والاحزاب التي أوجدتها ظروف الفتنة الكبرى منذ عهد عثمان رضي الله عنه ، ثم ازدادت عنفا وتطرفا وانغلاقا اثر استئثار بني امية بالحكم ، وراحت تقارعهم بالنار والحديد.وعبر هذه المقارعة غير المجدية سقط عشرات الآلاف من الضحايا وسحقت طاقات هائلة كان بمستطاعها أن توجه امكاناتها نحو البناء في الداخل ، واسقاط أنظمة الطاغوت والشرك في الخارج .. وعلى أية حال فان هذه الاحزاب

---

(١٩) الطبري ٦-٥٦٨ .

(٢٠) الطبري ٦-٥٥٣ – ٥٥٤ ، ابن خياط ١-٣٢٦ .

ما كانت لتجد غير السيف خلال عهود عدد من حكام بني امية لم يشاءوا أن يلجأوا ولا أن يلجأ خصومهم إلى المنطق والحكمه والموعظة الحسنة . وكانت الظروف تنتظر من يتيح الفرصة للرأي والمناقشة الحره لا للرماح والسيوف ، من يعيد امة القرآن إلى وحدتها وتآلفها وانسجامها .

ويجيء عمر ، هذا الخليفة الراشد ، فيبدأ بايقاف كافة المحاولات التي كان بعض عمال بني أمية وموظفيهم يستفزون بها العلويين ، ويعيد المنابر إلى وظيفتها الاصيلة ، فيمنع التهجم من فوقها على احد من آل البيت ، ويحل محلها الآية القرآنية « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون »[٢١] . وهكذا يسن عمر سنة رائعة باختياره هذه الآية التي تعبر تماما عن الاهداف الكبرى التي سعى لتحقيقها : نشر العدل والاحسان .. ومطاردة الفحشاء والمنكر والبغي في أي مكان كان وبأي شكل كان . وهكذا ــ ايضا ــ يحسم عمر ، بالمرونة السياسية لا بالحرب والقوة ، عداء العلويين لبني امية ، ويتيح للطرفين أن يلتقيا على صعيد الحب والاخاء تحت راية العدل والاحسان .

ولم يكتف عمر بهذا الاجراء الادبي ، بل تقدم خطوات صوب إعادة الحقوق المالية والاجتماعية للعلويين ، فأمر بتوزيع الخمس على بني هاشم[٢٢] ورد منطقة (فدك) إلى ولد فاطمة رضي الله عنها[٢٣] ، وكتب إلى عامله في المدينة : ان أقسم في ولد علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) عشرة الاف دينار . فلما أجابه عامله بان ولد علي موزعون على قبائل شتى من قريش ، ففي ايهم يكون العطاء ؟ رد عليه عمر بمنطقه الذكي السريع : « لو كتبت اليك في شاة تذبحها ، لكتبت الي : أسوداء أم بيضاء ؟ اذا أتاك كتابي هذا فاقسم في ولد علي من فاطمة رضوان الله عليهم عشرة الاف

---

(٢١) المسعودي : مروج الذهب ٣-١٨٣ — ١٨٤ ، ابن طباطبا : الفخري ص ١١٧ .
(٢٢) ابن سعد : طبقات ٥-٢٨٦ ، اليعقوبي : تاريخ : ٢-٣٠٥ — ٣٠٦
(٢٣) اليعقوبي ٢-٣٠٥ — ٣٠٦ .

دينار ، فطالما تخطتهم حقوقهم » [٢٤] .

وسرعان ما أبدى العلويون رد فعلهم الايجابي ازاء هذا الموقف المفتوح من عمر ، فاجتمع نفر منهم وكتبوا إلى عمر كتابا يشكرون له فيه ما فعله معهم من صلة ارحامهم .. فأجابهم : « قد رأيت قبل اليوم هذا .. فلما وليت هذا الامر تحريت به الذي أظنه أوفق » [٢٥] . وعلق محمد بن علي الباقر : ان لكل قوم نجيبة ، وان نجيبة بني أمية عمر بن عبد العزيز ، وانه يبعث يوم القيامة وحده [٢٦] . وقالت فاطمة بنت الحسين بن علي : لو كان بقي لنا عمر ما احتجنا بعهده إلى أحد ! ! [٢٧].

ويعلن الخوارج (الحرورية) في العراق ثورة جديدة ضد بني امية ، ولعلهم لم يكونوا قد أدركوا بعد ، أبعاد الاهداف التي جاء عمر لتحقيقها ، والتي كان برنامجهم السياسي ينص عليها . يثور الخوارج فلا يسرع عمر باشهار السيف ولكنه يلجأ إلى سلاح المنطق والبرهان ، خاصة وان الخلاف ليس خلافا بين إيمان وكفر ، ولا صراعا بين دار اسلام ودار حرب ، بل هو بين قطاعين من الامة الاسلامية نفسها ، وحرام أن تسفك قطرة دم واحدة لمسلم يشهد ان لا اله الا الله بيد مسلم اخر . ومن ثم يرسل عمر إلى عبد الحميد ، عامله على العراق ، يأمره أن يدعوهم إلى العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فهذه الدعوة هي القول الفصل . الا ان هؤلاء لم يستجيبوا لدعوته . ولما لم يجد – عبد الحميد – بدا من استخدام القوة ازاء تمرد مسلح يشكل خطرا على وحدة الدولة والامة ، أرسل اليهم جيشا تمكن الخوارج من دحره . وبلغ عمر ذلك وهنا – في لحظة كهذه – – يتبدى – مرة اخرى – منطقه الايجابي في السياسة والحرب ، ويقدم للتاريخ

---

(٢٤) المسعودي ٣-١٨٤ – ١٨٥ .

(٢٥) ابن سعد ٥-٢٨٦ .

(٢٦) ابن الاثير : الكامل ٥-٦٢ .

(٢٧) المصدر السابق ٥-٦٥ .

مثلا جديدا على هذه الايجابية التي لا تدع معالم الامور تبهت ، ولا قيم الحق تضيع ، باسم الرغبة في الموادعة والسلم ، فها هو عمر — بعد أن بلغه نبأ انهزام قوات عامله — يسرع فيرسل إلى الخوارج مسلمة بن عبد الملك على رأس جيش من أهل الشام ، ويكتب إلى عبد الحميد « قد بلغني ما فعله جيشك ، جيش السوء ، وقد بعثت مسلمة فخلّ بينه وبينهم » . ويتقدم مسلمة على رأس قواته إلى حيث يعسكر الخوارج وتدور بين الطرفين معركة تنتهي بانتصار قائد عمر بن عبد العزيز ! ! (٢٨) .

ان اضطرار عمر إلى استخدام العنف ازاء فئة من الخوارج ، لم يدفعه أبدا إلى طبيعة اسلوب العنف هذا تجاه كل الخوارج . انه يعلم ان خصمه ما دام مستعدا للحوار ، فلا داعي أبدا لاراقة الدماء . ويذكر ابن الجوزي كيف ان جماعة من الخوارج دخلوا عليه يوما وأخذوا يناقشونه في بعض القضايا ، فأشار اليه بعض أصحابه أن يرعبهم ويتغير عليهم ، فرفض ذلك ، ولم يزل يرفق في نقاشه مع هؤلاء الخوارج حتى أخذ عليهم كل حجة ، ورضوا منه أن يرزقهم ويكسوهم ما بقي خليفة ! ! وخرجوا وهم على هذا الاتفاق ، وما أن غادروا المكان حتى التفت عمر إلى أحد أصحابه قائلا : اذا قدرت على دواء تشفي به صاحبك دون الكيّ فلا تكوينه ابدا ! ! (٢٩) . وتلك غاية الحكمة : أن يجادل المسلم خصمه بالحكمة والموعظة الحسنة ما لم يضطره الخصم إلى رفع السيف . كذلك دخل عمر في نقاش مفتوح مع جماعة ادعوا التكذيب بالقدر (٣٠) ، ولم يضطره الموقف المنحرف لهؤلاء عن خط الفكر الاسلامي إلى استخدام العنف ما داموا مستعدين للحوار .

ولقد حان الوقت — ونحن نتكلم عن دور عمر في ميدان الحرب والسياسة — لاستعراض موقفه الرائع من ثورة خارجية اخرى ، لنرى كيف يجب أن تسود

---

(٢٨) الطبري ٦-٥٥٥ .

(٢٩) سيرة عمر ص ٦٢ .

(٣٠) المصدر السابق ص ٦٨ — ٦٩ .

الحكمة والموعظة الحسنة ، لا السيف والحديد ، بين أبناء الامة الواحدة . ولنرى أيضا ـ حسبما توحيه الروايات والقرائن ـ كيف ان عمر دفع حياته ثمنا لموقفه العظيم هذا .

ففي العام المائة للهجرة أعلن الخوارج ـ في منطقة الجزيرة الفراتية ـ ثورتهم ضد الدولة الاموية بقيادة (بسطام اليشكري) المعروف باسم (شوذب) فكتب عمر إلى عامله على العراق « الا تحركهم الا ان يسفكوا دما ، أو يفسدوا في الأرض ، فان فعلوا فحل بينهم وبين ذلك ، وانظروا رجلاً صليبا حازما فوجهه اليهم ، ووجه معه جندا ، وأوصه بما امرتك به » [٣١] . أرأيتم ؟! ان عمر ، في هذه الكلمات المعدودات يعبر عن روح الخلافة الراشدة « لا تحركهم الا أن يسفكوا دما ، أو يفسدوا في الأرض . فان فعلوا فحل بينهم وبين ذلك » حرص عجيب على السلم والاعمار ، وعلى عدم إثارة أي سبب يثير فسادا في الأرض أو يسفك قطرة من دم . ثم .. واذا ما تطورت الامور لغير صالح الاعمار والسلام ، وتدهورت صوب منحدرات الافساد والدماء ، فان « رجلا صليبا حازما » لا ضعيفا مسالما ، هو الذي يجب أن يتصدى لها ، ويعيد الحق ـ بمنطق القوة ـ إلى مكانه الراسخ ، بعد اذ لم يعد بمنطق البرهان .

عقد عبد الحميد اللواء لمحمد بن جرير البجلي في الفين من أهل الكوفة ،وأعطاه التعليمات التي تلقاها عن عمر . ولم يقف الخليفة الراشد عند هذه الخطوة بل كتب إلى (شوذب) يدعوه إلى السلم ويسأله عن سبب خروجه . ووصل الكتاب بعد أيام .. فضّه شوذب وقرأ : « .. انه بلغني انك خرجت غضبا لله ولنبيّه ، ولست بأولى بذلك مني !! فهلم اناظرك فان كان الحق بأيدينا دخلتَ فيما دخل فيه الناس ، وان كان في يدك نظرنا في أمرنا » [٣٢] وكأن هذا الكتاب هو غصن الزيتون الذي ينتظره شوذب ، فأمر بوقف

---

(٣١) الطبري ٦-٥٥٥ ـ ٥٥٦ .

(٣٢) الطبري ٦-٥٥٥ ـ ٥٥٦ .

تحركات قواته وكتب إلى عمر « قد انصفت !! وقد بعثت اليك رجلين يدارسانك ويناظرانك » [٣٣] .

التقى المندوبان بعمر بن عبد العزيز في دمشق ، وجرى النقاش في جو وديّ هادىء ، وراح عمر – بما عرف عنه من ذهن متوقّد وفقه عميق – يرد الحجة بالحجة ، ويقرع البرهان بالبرهان . وسرعان ما اقتنع أحد المندوبين المتناظرين بأن عمر على صواب ، وقال للخليفة « ما سمعت كاليوم قط حجة ابين وأقرب مأخذا من حجتك ، أما أنا فأشهد انك على الحق ، وأنا برىء ممن برىء منك » . ويلتفت عمر إلى الاخر : « وأنت ما تقول ؟ فيجيب « ما أحسن ما قلت وأبين ما وصفت! ولكن لا أفتئت على المسلمين بأمر حتّى نعرض عليهم قولك فأنظر ما حجتهم؟ » [٣٤] وتستمر المناظرة ، بعد هذا ، بعمق وبيان ووضوح، وتبلغ مرحلتها الحرجة عندما يسألان عمر : « اخبرنا عن يزيد لم تقره خليفة بعدك ؟ » .

– صيره غيري ..

– أفرأيت لو وليت مالاً لغيرك ثم وكلته إلى غير مأمون عليه ، اتراك كنت أديت الامانة إلى من ائتمنك ؟

تلك اذن هي المشكلة .. الوراثة ولاية العهد .. تلك القاعدة التي سار عليها بنو امية منذ عهد معاويه ، ولم يشذ عنها الاّ عمر نفسه لحكمة أرادها الله سبحانه . فماذا يكون الجواب ؟ ان هذين يقولان ما يسنده القرآن في التأكيد على الشورى والانتخاب الحر ، فكيف يرضى وهو الخليفة الراشد ، بأن ينصب بعده ولياً للعهد دون مشورة المسلمين ؟ وعمر – هذا الانسان الذي يحرص على الحق والعدل – لم يلجأ أبدا ازاء هذا السؤال الخطير إلى المداورة والمناورة في أمر لا يحتمل المداورات والمناورات . فيطلب من المتفاوضين أن يمهلانه ثلاثة أيام [٣٥] .

---

(٣٤) المسعودي : مروج الذهب ٢-١٣٠ – ١٣١ ، ابن عبد الحكم ص ١٢٧ – ١٣١ .
(٣٥) الطبري ٦-٥٥٥ – ٥٥٦ .

مضى أحد الرسولين إلى شوذب ليطلعه على ما دار في هذه المناقشات الحرة .. أما عمر .. فمن يدري ؟! لعله أخذ يمهد — خلال هذه الأيام الثلاث — لاعطاء الخوارج جوابه العملي ! ! ومن يدري ؟ لعله بدأ خطواته الحازمة للاطاحة بالنظام الوراثي واعلانها شورية حرة للامة الاسلامية كعهدها أيام الراشدين . كل ما تذكره الروايات — تخمينا — ان بني مروان خافوا أن يخرج عمر ما عندهم وما في أيديهم من الاموال، وان يخلع يزيد، فدسوا اليه من سقاه سما ، فلم يلبث أن مات في نفس اليوم الذي تقرر أن يعطي فيه جوابه للمتفاوضين [٣٦] .

* * *

ولم يكن موقف عمر من أهل الذمة ، وهم مواطنون قبل كل شيء ، أقل انفتاحا من موقفه من الكتل والاحزاب الاسلامية . ورغم بعض الاجراءات الشكلية التي اتخذها ازاءهم ، ورغم ما ادعته بعض المصادر الغربية في هذا الصدد ، فان موقف عمر منهم كان يمثل قمة من قمم العدل والمساواة السياسية لغير المسلمين في عهد بني أمية . ولا داعي هنا لاستعراض الاجراءات الاجتماعية والاقتصادية التي اتخذها عمر ازاء أهل الذمة ، ويمكن الرجوع اليها في أماكن أخرى من هذا البحث [٣٧] . الا ان الذي يهمنا هنا هو رد فعل هذه الفئة من المواطنين إزاء موقف عمر ، رد الفعل الذي هو القول الفصل في سياسة عمر تجاههم . تذكر احدى الروايات ان عمر عندما مرض أرسل إلى أحد النصارى وساومه حول شراء موضع قبره . فأجابه النصراني : « والله يا أمير المؤمنين اني لأتبرك بقربك وبجوارك ، فقد أحللتك من الثمن » ، فأبى عمر الا أن يدفع [٣٨] . وفي رواية اخرى يذكر ابن الجوزي ان عمر بعث بدينارين إلى أصحاب أحد الاديرة ، قائلا لهم : ان بعتموني موضع

---

(٣٦) الطبري ٦-٥٥٦ .

(٣٧) انظر بشأن مواقف عمر العادلة من نصارى دمشق وكنائسهم: البلاذري ١٤٧ — ١٤٩ .

(٣٨) ابن الجوزي ص ٢٨٢ .

قبري والا تحولت عنكم . فأجابوه : لولا انا نكره ان تتحول عنا ما قبلناه [٣٩].
وذكر الامام الاوزاعي انه مر بقنسرين أثر تشييع عمر فسأله أحد الرهبان : اشهدت وفاة هذا الرجل ؟ فأجابه : نعم . فأرخى الراهب عينيه تبكيان سجاما . فقال له الامام : ما يبكيك ولست من أهل دينه ؟ أجاب الراهب ، والدموع تنهمر على خده وتبلل لحيته الوقور : اني لست عليه أبكي ، ولكن أبكي على نور كان في الأرض فطفىء [٤٠] . ويشير ابن الجوزي وغيره من المؤرخين ان بعض الرهبان كانوا يسمون قبره (قبر الصديق) [٤١] .

الا يكفي هذا ؟ اذا لم يكف فهاكم حكم صاحب كتاب (الصلة لتاريخ ايزيدور) ، الفصل الثامن والثلاثون ، على عمر بن عبد العزيز باللاتينية « .. كان — عمر — رجلا له من الرقة والحلم ما استحق له التقدير والثناء حتى من الاباعد . وقد نال من ذلك ما لم ينله حي يطمح إلى الملك » [٤٢] .

* * *

كانت العصبية القبلية تشكل أشد الاخطار السياسية التي تهدد الدولة الاموية بالانهيار والزوال ، ذلك انها كانت تمثل تمزقا داخل القاعدة العربية الشاميه التي اعتمدها الامويون في اقامة دولتهم ، وتثبيت ملكهم . فكل الانشقاقات التي حدثت في كيان الدولة ، كثورات الخوارج والعلويين والزبيريين وبعض القادة الطموحين ، لم تكن تشكل الخطر الذي يوازي خطر العصبية القبلية . ذلك ان جميع هذه الثورات كانت بمثابة انشقاقات (خارجية) في نظر الامويين الذين استندوا إلى قوة عسكرية من الشاميين كانوا يضربون بها كل ثائر على دولتهم . ولكن معركة مرج راهط عام ثلاث وستين للهجرة ، بين القيسيين واليمانيين ، مزقت الشاميين أنفسهم إلى كتلتين وبدأ الشام يشهد صراعا عنيفا بينهما للوصول إلى أعلى المناصب والاستئثار بالسلطان .

---

(٣٩) ابن الجوزي ص ٢٨٢ .
(٤٠) المصدر السابق ص ٢٨٩ .
(٤١) المصدر السابق ص ٢٩٠ .
(٤٢) فلهاوزن : الدولة العربية وسقوطها ص ٣٠٠ وهامش ٢ من نفس الصفحة .

ولم يشأ خلفاء بني امية الذين سبقوا عمر بن عبد العزيز – والذين أعقبوه كذلك – اطفاء نار هذه الفتنة ، بل زادوها اشتعالا عن طريق تأييد فئة دون فئة ، وعشيرة دون عشيرة للاعتماد عليها في الوصول إلى الحكم والبقاء فيه . وكان لهذا التمزق الداخلي أكبر الاثر – فيما بعد – في سقوط الدولة الاموية .

ويجيء عمر بن عبد العزيز ، فيتصدى لهذه المشكلة السياسية ، كما تصدى لغيرها من المشكلات ، بذكاء وحصافه وبصيرة نافذة تستمد هداها من كتاب الله وهدي رسوله العظيم وسيرة خلفائه الراشدين . فيؤكد على ضرورة الوحدة بين جميع المسلمين ، ويتشدد ازاء كل محاولة من شأنها أن تؤدي إلى تمزق – من أي نوع كان – في كيان المجتمع الاسلامي الذي يجب أن يكون «كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.» ومن هنا نجد الخليفة يقف موقفا صلبا ، ويصدر تحذيراته ووعيده ازاء المحاولات التي شهدتها الجزيرة العربية ، والتي استهدف اصحابها اشعال نار العصبية القبلية والنخوة الجاهلية ، واعلان الحروب بين القبائل العربية نفسها تحت راية العصبية التي لعنها الرسول عليه السلام .

ان الخليفة – بعد أن اطفأ نار الفتنة في قلب الدولة : الشام – تلفت – بحذر شديد – ليطفئها في أي مكان اخر ، قريب أو بعيد ، تريد ان تطل برأسها منه . ومن ثم ما إن وصلته أنباء الفتن التي أثارها بعض رؤساء القبائل في جزيرة العرب حتى أسرع بارسال رسالة – يسودها الوعيد والتهديد – إلى عامله هناك : الضحاك بن عبد الرحمن . وقد بدأها بشرح مفصل بين فيه فضل الاسلام في توحيد القبائل العربية تحت راية واحدة ، ودور الرسول صلى الله عليه وسلم في إطفاء نار الفتنة الجاهلية بين شتى القبائل ، وضرورة التمسك بالوحدة التزاما بالاية الكريمة (تلك الدار الاخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين) .. ثم يقول موجها خطابه إلى قادة الفتنة « ... واني أحذركم هذا القرآن ، فان تباعته وشروطه

قد أصابكم منها – أيتها الامة – وقائع من هراقة دماء ، وخراب ديار وتفرق جماعات . فانظروا ما زجركم الله عنه في كتابه فازدجروا عنه .. ان ما هاجني على كتابي هذا أمرٌ ذكر لي عن رجال من أهل البادية ، ورجال أمرّوا حديثا ، ظاهرٌ جفاؤهم ، قليل عملهم بأمر الله ... وذكر لي ان رجالا من اولئك يتحاربون إلى أن حصروا اليمن ، يزعمون انهم ولاية على من سواهم .. قاتلهم الله أي منزلة نزلوا ، ومن أي مكان خرجوا ، أو بأيّ أمر لصقوا . ولكن قد عرفت ان الشقي بنيته يشقى ، وان النار لم تخلق باطلا ! ! او لم يسمعوا قول الله في كتابه (انما المؤمنون اخوه ، فاصلحوا بين اخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون) ؟؟ ... وقد ذكر لي مع ذلك ان رجالا يتداعون إلى الحلف ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحلف فقال (لا حلف في الاسلام) ، وما كان من حلف في الجاهلية فلم يزده الاسلام إلا شدّة ، فكان يرجو أحد من الفريقين حفظ حلفه الفاجر الذي فيه معصية الله ومعصية رسوله ، وقد ترك الاسلام حين انخلع منه . وأنا أحذر كل من سمع كتابي هذا ، ومن بلغه ، أن يتخذ غير الاسلام حصنا ، أو دون الله ودون رسوله ودون المؤمنين وليجه ، تحذيرا بعد تحذير ، واذكرهم تذكيرا بعد تذكير ، وأشهد عليهم الذي هو آخذ بناصية كل دابة ، والذي هو أقرب إلى كل عبد من حبل الوريد . واني لم آلكم بالذي كتبت به اليكم نصحا ، مع اني لو أعلم احدا من الناس يحرك شيئا ليؤخذ له به ، أو ليدفع عنه ، احرص – والله المستعان – على ذلته كائنا من كان : رجلا أو عشيرة او قبيلة أو أكثر من ذلك . فادع إلى نصيحتي وما تقدمت اليكم به ، فانه هو الرشد ليس له خفاء . ثم ليكون أهل البر وأهل الايمان عونا بألسنتهم ، وان كثيرا من الناس لا يعلمون ... » (٤٣)

ذلك اذن هو الاسلوب الذي يفهمه الاعراب الباحثون عن الفتنة ، وهو الاسلوب الذي خاطبهم به القرآن الكريم ، ومارسه معهم الرسول الكريم ،

(٤٣) ابن عبد الحكم ص ١٠٣ – ١٠٦ .

وجابهم به أبو بكر الصديق ، وكان يجب أن يوقفهم عند حدهم في فتنتهم ضد الخليفة عثمان رضي الله عنه ، عندما ساروا – كالقطعان الهائجة – وراء بعض رؤوس اليهود والمجوس وعشاق المناصب .. وها هو عمر بن عبد العزيز يستخدم معهم ذات الاسلوب .. اسلوب الخليفة الراشد الذي يحرص على وحدة المسلمين ، وأمنهم واستقرارهم ، ويقف متحديا لكل من يحاول تمزيق هذه الوحدة ، ونشر الذعر والخوف : رجلا كان أم عشيرة ، أم قبيلة أم أكثر من ذلك ..

* * *

إن معالم الخلافة الراشدة لتتبدى في كل فاعلية يقوم بها الخليفة، وتصبغ كل قطاع يضع فيه خطواته .. انها كالعين الدفاقة الثرة في وجدان الخليفة ، تسقي الموات ، وتروي ظمأ النفوس ، وتزرع الايمان في القلوب ، دون أن ينضب لها معين أو يجف لها قرار .. ان الخلافة الراشدة تتميز عن حكم المحترفين في انها تصدر عن عقيدة ، ولكي تحفظ صفتها العقائدية هذه ، يجب أن تظل على ايجابيتها وفاعليتها المتمثلة بالدعوة والارشاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومطاردة الفساد!! ،ليس على سطح الأرض فحسب ، بل في داخل النفوس ومسارب القلوب والوجدان ، وان تشد الناس إلى الايمان والتقوى ، وتدفعهم صعدا في طريق الاحسان .

ان الخلافة الراشدة ، تسعى إلى بناء دولة العقيدة ، والتقدم بها خطوات إلى الامام عن طريق صنع القاعدة المسلمة ، وصياغة الانسان المسلم . فبدون هذا الانسان ، وتلك القاعدة ، لا تكون هناك دولة ايمانية ولا خلافة راشدة .. ومن ثم فان بناء هذا الانسان المسلم وهذه القاعدة الايمانية لا يقتصر على جماعة دون جماعة ، ولا يخصّ فئة دون فئة .. فالدولة الاسلامية بحاجة إلى الجندي المسلم والقائد المسلم ، كما انها بحاجة إلى الاداري المسلم والديبلوماسي المسلم ، وهي بحاجة إلى الاقتصادي المسلم والمربي المسلم .. وهكذا .. في كل

مساحات الحياة، وحيثما عمل الناس أو تولوا عملاً .. على الخلافة الراشدة أن تصنعهم وترشدهم على عين الله ورعايته . وهكذا نجد عمر – هذا الخليفة الراشد – يعمل في كل هذه الجبهات ، ويوجه رسائله وتعليماته إلى القائد والجندي ، وإلى العامل والقاضي ، وإلى العالم والمربي ، وهدفه من وراء ذلك كله أن يبني القاعدة الايمانية ، وأن يحفظ صفاءها ويجلو ايمانها ويفتح بصيرتها على ما هو معروف وما هو منكر .. فهذا العمل من القاعدة ، وهذا التوجيه والتقييم من الداخل هو الذي يقيم الدول ويشيد الحضارات ..

ونحن ها هنا إذ نستعرض بعض منجزات عمر في ميدان الحرب والسياسة ، لا بد من استعراض بعض رسائله في هذا المجال : مجال بناء القائد والمقاتل المسلمين !! وهي رسائل تلقي في نفس الوقت ، ضوءها الباهر، على ثقافة عمر العسكرية ، وبعد نظره في شؤون الحركة والسوق والحرب ، ورغبته الاكيدة في أن يكون القتال (عملا انسانيا) !! ، ولنقرأ معا ، ونتأمل رسالته التي وجهها إلى منصور بن غالب حين بعثه لقتال أهل الحرب ... يقول « ... آمره في ذلك بتقوى الله على كل حال نزل به من أمر الله ، فان تقوى الله من أفضل العدة ، وأبلغ المكيدة وأقوى القوه . وآمره أن لا يكون من شيء من عدوه أشد احتراسا منه ، لنفسه ومن معه ، من معاصي الله ، فان الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم (!!) وانما نعادي عدونا وننتصر عليهم بمعصيتهم ، ولولا ذلك لم يكن لنا قوة بهم ، لان عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم (!!) فلو استوينا نحن وهم في المعصية كانوا أفضل منا في القوة والعدد . فان لا ننصر عليهم بحقنا لا نغلب عليهم بقوتنا (!!) ولا تكونوا لعداوة أحد من الناس أحذر منكم لذنوبكم ، ولا تكونوا بالقدرة لكم أشد تعاهدا منكم لذنوبكم . واعلموا ان معكم من الله حفظة عليكم ، يعلمون ما تفعلون في مسيركم ومنزلكم ، فاستحيوا منهم واحسنوا صحابتهم ، ولا تؤذوهم بمعاصي الله ، وأنتم زعمتم في سبيل الله (!!) ولا تقولوا إن عدونا شر منا ، فلن يسلطوا علينا وان اذنبنا ، فرب قوم قد سلط عليهم شر منهم بذنوبهم (!!) فاسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر

على عدوكم .. وآمره أن يرفق بمن معه في سفرهم ، ولا يجشمهم مسيرا يتعبهم فيه ، ولا يقصر بهم عن منزلة يرفق بهم حتّى يلقوا عدوهم والسفر لم ينقص من قوتهم . فانما يسيرون إلى عدو مقيم ، جام الاهبة والكراع . فان لا يرفقوا بأنفسهم وكراعهم في مسيرهم ، يكن لعدوهم فضل في القوة عليهم (أي ببقائه محتفظا بطاقته ووسائل حربه ، وميرته) ..

وآمره أن يقيم – ومن معه – في كل جمعة يوما وليلة يكون لهم راحة يجمون فيها أنفسهم وكراعهم ، ويرمّون أسلحتهم وأمتعتهم . وأمره أن ينحي في منزله عن قرى الصلح ، فلا يدخلها أحد من أصحابه ، لسوقهم وجماعتهم ، الا من يثق بدينه وأمانته على نفسه ، ولا يصيبوا منها ظلما ، ولا يتزودوا منها إثما ، ولا يؤذوا أحدا من أهلها بشيء ، الا الحقّ ، فان لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصبر عليها . فما صبروا لكم ففوا لهم ، ولا تستنصروا على أهل أرض الحرب بظلم أهل الصلح ، فلعمري لقد أعطيتم مما يحل منهم ما يغنيكم عنهم . فلم أترك لكم خللا في العدة ، ولا رقة في القوة ، فتظاهرت واكتفتْ لكم العدد ، وانتخب لكم الجند .. وبسطت لك أفضل ما بسطت لغاز : فلم اجعل لك علة في التقوية !! .. وأمره أن تكون عيونه ممن يطمئن إلى نصيحته وصدقه من أهل الأرض ، فان الكذوب لا ينفع خبره وان صدق في بعضه ، وان الغاش عين عليك وليس بعين لك ... » .

ان الخليفة الراشد يؤكد هنا ، وقبل أي شيء آخر ، على ان النصر الخارجي فوق الارض لا يتحقق الا بعد انتصار المسلم في الداخل .. في كيانه ووجدانه ، والا بعد أن يخوض معركة الجهاد الاكبر مع النفس ، كي يغدو بها والاعداء بعد هذا سهلا ميسورا ، بعد انتصار المقاتل على طيشه ونزواته ، على رغباته الذاتية وشهواته . فبعد أن يقطع الانسان المسلم كل الخيوط التي تشده إلى

(٤٤) ابن عبد الحكم ص ٨٤ – ٨٧ .

الاسفل ، وتربطه بالأرض ، بعد ذلك ينطلق ، خفيفه سريع الحركة ، قويا عميق الايمان .

وعمر بن عبد العزيز يقدم هنا التفسير الايماني لفتوح المسلمين وانتصاراتهم المذهلة على قوى تفوقهم بكثير في العدد والعدة وطاقات الأرض .. فاذا ما تنازل المسلم عن غنائه الداخلي هذا ، عن كنزه الذاتي ، وايمانه ويقينه فسوف يخسر حتما ، معركة على الأرض لا يمتلك فيها من الوسائل ما يصمد به ازاء جبروت الاعداء . وهذا النقاء الباطني للمحارب المسلم ، وهذه الرغبة العميقة في تحقيق أهداف أكبر من مصالح الافراد ورغباتهم ، هي التي تعطي للمسلم (الحق) وتدفع العدو (بالباطل) « فان لا ننصر عليهم بحقنا لا نغلب عليهم بقوتنا » و « فان الذنوب اخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم ! ! » .

ثم تأتي بعد هذه القاعدة (المرشدة) ، توجيهات رائعة تمتزج فيها القيم الانسانية — التي رسخها الاسلام حتى في سوح القتال — بفن الحركة والسوق والاستخبارات . وهي توجيهات يستقيها عمر — هنا — من جده بن الخطاب في كتابه الشهير الذي أرسله إلى قائده سعد بن أبي وقاص ، فحقق هذا بها المعجزات . ثم ان عمر بن عبد العزيز يبرز من خلال توجيهاته هذه كالأب الذي ينظر إلى جند المسلمين جميعا كأبناء له ، يسعى إلى راحتهم ويحرص على عدم القذف بهم في المتاعب ، وتضييعهم في المتاهات ! !

وفي رسالة اخرى ، إلى امراء الاجناد ، تتوالى إرشادات عمر وتوجيهاته لبناء المقاتل المسلم المثقف الملتزم بالنظام والطاعة ، حيث نجده يحثهم فيها على المحافظة على الصلوات في أوقاتها ، والعناية بالمدارس ونشر العلم (٤٥) . ورسالة ثالثة إلى عامله على البصرة « أن العرفاء من عشائرهم بمكان ، فانظر عرفاء الجند ، فمن رضيت أمانته لنا ولقومه فأثبته ، ومن لم ترضه فاستبدل به من هو خير منه ، وأبلغ في الامانة والورع » (٤٦) .

---

(٤٥) ابن عبد الحكم ص ٨٠ — ٨١ وانظر الندوي : رجال الفكر ص ٣٩ — ٤٠ .
(٤٦) ابن سعد ٥-٢٩٣ ، وانظر ابن الجوزي ص ٩١ — ٩٣ .

وجوانب اخرى من حصافة عمر (القائد) والمامه بقضايا الحرب والقتال ، تبدو في تعليماته العسكرية التي كان يوجهها إلى قادته باستمرار . كتب إلى أحدهم قائلاً : اذا دخلتْ الصائفة فلا تتركن أحدا يدخل في أثر — المسلمين الا في قوة وجماعة من الرجال والخيل والعدد [٤٧] . وكان عمر يدرك ان هذه القوات الاسلامية المتوغلة في أراضي العدو لا بد أن تسلك اسلوب التجمع والحذر كيلا تضرب على حين غفلة ، او تنتقص أطرافها بليل . فكان يطلب منهم « أن يأخذ بعضهم ببعض حتى يرجعوا جميعا ، أو يعطبوا جميعا » [٤٨] . وبعث إلى عمرو بن قيس قائده على الصائفة يقول « يا عمرو لا تكن أول الناس فتقتل فينهزم أصحابك ، ولا تكن أخرهم فتثبطهم وتجبنهم ، ولكن كن وسطهم حيث يرون مكانك ، ويسمعون كلامك » [٤٩] .

كما تميز عمر القائد بحرصه العجيب على الجندي المسلم ، وحمايته من الضياع ، والسعي إلى استرداده من الرق والاسر مهما كلف الثمن . وكان الخليفة — باسلوبه هذا — يُشعر المقاتل المسلم بأهميته ، وفوق ذلك بان الدولة بكاملها تقف وراءه وتحميه من الضياع ، وان الخليفة الاب هناك يحرسه ولا يفرط بأهله وأطفاله .. ان مقاتلا كهذا سيؤدي واجبه العسكري على أحسن ما يكون ، وسوف يقتحم المخاطر والاهوال ، ناظرا دوما إلى الامام دون أن يلتفت ولو مرة واحدة ، إلى الخلف ، لأن اليد التي دفعته إلى الجبهة هي يد القائد الاب التي تأبى التفريط بالمقاتل ، اليد المستعدة أن تبذل من أجله الكثير .

كتب عمر إلى أسرى القسطنطينية « أما بعد ، فانكم تعدون أنفسكم أسارى . معاذ الله ! ! بل أنتم الحبساء في سبيل الله . واعلموا اني لست اقسم شيئا بين رعيتي الا خصصت أهليكم بأوفر نصيب وأطيبه . واني قد بعثت

---

(٤٧) ابن سعد ٥-٢٦٠ .

(٤٨) ابن سعد ٥-٢٦١ .

(٤٩) ابن سعد ٥-٢٧٢ .

لكل منكم بخمسة دنانير ، ولولا أني خشيت – ان زدتكم – ان يحبسه طاغية الروم عنكم لزدتكم !! وقد بعثت فلانا بن فلان ينادي صغيركم وكبيركم ، وذكركم وأنثاكم ، وحركم ومملوككم بما سئل به ، فابشروا ثم ابشروا ، والسلام عليكم »[٥٠] كما بعث إلى قائده على الصائفة يأمره بأن ينادي من قدر عليه من المسلمين وارقائهم وأهل ذمتهم[٥١] . ووجه رسالة إلى امبراطور الروم في فداء اسرى المسلمين ، ولكن ذلك لم يتم[٥٢] وفادى مرة رجلا من المسلمين بعشرة من الروم !![٥٣] وبعث بمبلغ من المال إلى ساحل عدن ، وطلب من حامله أن يفتدي الرجل والمرأة والعبد والذمي[٥٤] . وكتب إلى عماله ان فادوا باسارى المسلمين ،وان احاط ذلك بجميع أموالكم[٥٥]

وفوق هذا وذاك كان الخليفة يلحظ الحاجات النفسية والبيولوجية للمقاتلين ، ويدرك ضرورة عودتهم إلى بلادهم وأهليهم حينا بعد حين ، ولذلك حدد فترة المرابطة في الثغور بأربعين يوما يعود بعدها الجنود إلى بلادهم وأهليهم[٥٦].

---

(٥٠) ابن عبد الحكم ص ١٦٣ – ١٦٤ .
(٥١) ابن سعد ٥-٢٧٢ .
(٥٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٥٧ .
(٥٣) ابن سعد ٥-٢٦٠ .
(٥٤) ابن سعد ٥-٢٦٠ .
(٥٥) ابن الجوزي ص ١٠٠ .
(٥٦) ابن سعد ٥-٢٦١ .

الفصل الثالث

الاقتصاد والمال

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا
عليهم بركات من السماء والارض ... »

الاعراف ٩٦


صفحة فارغة

عندما تضيع العقيدة ، وينقطع التلقي عن خالق الملكوت ومدبره ، ويصرّ الانسان على الاعتماد والاخذ عن مصادره الذاتية المقفلة المحدودة ، ويتنازل — بجحود وإنكار — عن المصادر الحقيقية الكبرى لمعرفته ورؤاه .. آنذاك ستصيبه اللعنة التي حكمت — على طول التاريخ — كل الوضعيين والعلمانيين .. السنة التي تقوم على قاعدة انه ليس بعد الحق اليقيني الواضح الثابت الا الضلال والضياع والتخبط في الظلمات .

ان البشرية ، متمثلة بحفنة من زعمائها ، ظلت ، وتظل وستظل ، تدور في الحلقة المفرغة دون أن تجد طريقها إلى الخلاص . ذلك أن الذي يعيش في الظلمة لا يستطيع أن يفجر النور ، والذي يقعده العجز عن التطلع إلى الافاق البعيدة ليرى ، لا يستطيع أن ينقل خطاه من مناطق الظلال الباردة المعتمة الثقيلة .. ان ضياع العقيدة ، يعني — ببساطة — ان الانسان قرر جهلا وعنادا — الانشقاق عن النظام الذي يسيّر الكون والعالم ، وأعلن العصيان ضد النواميس الكبرى التي تهبه المخلوقات طريقها الواضح وهدفيتها ومصيرها . انه ما دام قد اختار (العصيان) فلا بد ان يضلّ وأن ينتظر قارعة العذاب تدمر وجوده ، أو تحل قريبا من داره .

ان هذا الضلال يتبدّى ، أول ما يتبدى ، بانقطاع المصدر الحقيقي للمعرفة والرؤية .. ومن ثم فما دام الانسان قد تنازل — هكذا — عن هذا

المصير فان عليه أن يبحث عن مصدر اخر يجد باضوائه طريقه ومصيره ..ولكنه سوف لن يجد هذه الاضواء ابداً .. ذلك ان طاقة الانسان محدودة ، ونوافذ حسّه ووجدانه وعقله لا تنفتح على الكون الا بمقدار .. تماما كاذن الانسان وعينه اللتين لا تستطيعان أن تنفتحا على أصوات وأضواء على درجة قصوى من القوة ، انهما انذاك اما ان تتعطلا عن العمل كلية ، او ان يصيبهما التمزق والتلف . وإذن ، ففي حالة كهذه ، اختارها الانسان المنكود بنفسه ، سوف لن يضيع الطريق الذي تعبر عنه الاديان (بالصراط) فحسب ، وسوف لن يظل يدور في حلقة مفرغة لا مخرج منها فحسب ، بل ان الاشياء – وهذا هو الانكى – سوف لن تعرض ذواتّها الحقيقية ، والقيم سوف لن تبلو بحجمها الحقيقي ، وسيصاب الانسان – كما يقال – بعمى الالوان حيث لن يستطيع ، مهما اوتي من عزيمة وعلم ، أن يضع الاشياء في أماكنها ، وأن يعطي القيم حق قدرها ، وأن يميّز طبائع الموجودات وينسقها وفق بنيتها وألوانها ، ووفق ما يجبأن تكون عليه،لكي تفتح له كنوزها،وتسندهوهو يصعد فيالطريق ..

نقول هذه الكلمات بين يدي ما صنعه عمر بن عبد العزيز في جبهة الاقتصاد .. هذه الكلمة التي أحالها سوء الفهم ، والوضعية، والانقطاع عن الله ، إلى عملاق مخيف يجثم على وجود الناس ويوجههم كما يشاء هو لا كما يشاءون .. إن تقييم (الاقتصاد) ووضعه في مكانه الذي يجب أن يحتله في ميدان الحياة البشرية ، لم يعد ممكنا الآن للاسباب التي سلفت . فما دام هذا القطاع أشد القطاعات حسيّة وأكثرها قربا من وجود الانسان المباشر ، فسوف يعطيه الوضعيون قيمة أكبر من قيمته الحقيقية ، ويفردون له مساحة أكبر بكثير من مساحته الحقيقية .

ظل التقييم الخاص هذا للاقتصاد ينمو ويتضخم حتّى بلغ الامر بأصحاب المدرسة المادية إلى القول بأنه الحتمية الوحيدة في تاريخ البشرية ، وانه هو وحده !! الذي يتحكم في صنع وجود الناس وتشكيل مصيرهم . أما من يتحكم به (هو) ، ومن يجعله ينتقل من مرحلة إلى مرحلة ومن تكوين إلى

تكوين فيقولون ان (ديناميكيته) الذاتية وحركته الجبرية هي التي تنقله عبر هذه المراحل والتكوينات . والانسان ؟! الانسان ليس إلاّ سناً في العجلة الاقتصادية الكبيرة التي تدور وتدور ، ومن المحتم أن يدور معها الانسان سرعة وابطاءاً بناء على طبيعة الوجود القائم . والروح ، والارادة والتعقل ، والقيم والاعراف الاجتماعية ، والرغبات الشخصية ، والطموح السياسي ، والعرقية ؟ أين هي ؟ هذه جميعا ليست سوى نتائج أو صور تعكسها مرآة الاقتصاد التي تحيط بالكون من اقطاره الاربع !!

وليست خلافة عمر بن عبد العزيز الا مثلا من التاريخ المشهور للرد على هذا التقييم الخاطىء ، وانارة الطريق للمتخبطين في الظلمات ، المقطوعين عن الله .. سنتان وخمسة أشهر تمكن عمر خلالها أن يبين للعالم كيف يتمكن المسؤول الذي يتلقى من الله ويستمدّ من شريعته ، ان يوجه الاشياء والاحداث كما يشاء ، وأن يلوي عنق التاريخ بالاتجاه الذي يريد ، وان يضع القيم والموازين لكل الاشياء والموجودات والفاعليات التي هيأها الله سبحانه للانسان كي يسعد ، ويتطور ، وينسجم مع نواميس الكون . ليست خلافة عمر القصيرة تلك ، سوى صورة حية للانسان الذي يستمد من الله ، فتنفتح رؤاه وتغمر الانوار طريقه ، فيروح ينتقل من مرحلة إلى مرحلة ، ومن افق إلى افق صاعدا صوب القمم العليا التي تتقطع دونها أعناق الوضعيين وتغشى عبرها أبصارهم ، وتتبدد رؤاهم القاصرة المحدودة .

ان عمر بن عبد العزيز ينظر هنا ، فلا يرى في حياة الناس الاقتصادية ونظمهم المادية هذه الا جانبا واحدا من جوانب التعبير عن مدى تمسك المسؤولين بقيم الحق والعدل ، عن مدى تجردهم للكفاح دون هذه القيم ، او الانسياق وراء رغباتهم الذاتية ومصالحهم القريبة ولذاتهم العابرة ، حيث تسقط فكرتا الحق والعدل هاتين . ومن ثم فان اعادة الامور إلى نصابها — في هذا المجال كما في غيره من المجالات — سوف تتحقق دون ريب بمجرد عودة

المسؤولين إلى مسؤوليتهم وتجردهم ، وتسخير طاقاتهم لتحقيق هذه القيم ومطاردة الظلم والباطل المتمثلين بالاستغلال والاضطهاد والتحكم والاثراء على حساب الاخرين ، والتزلف إلى ذوي السلطان .. وغيرها كثير من الدوافع الداخلية التي تدفع الانسان إلى تشكيل النظام الاقتصادي وفق الشكل الذي يحقق له هذه الرغبات والامتيازات [1] .

واذن فان عمر – كأي حاكم راشد – سيعرف الطريق إلى تشكيل النظام الاقتصادي الكفيل باعادة الحق والعدل إلى نصابهما ، وتوزيع الطاقات الكونية المادية على بناء الامة بالحق والعدل ، ونشر السعادة والرفاهية على مدى المجتمع الاسلامي بدلا من الظلم والاستغلال والتحكم . وهذا الطريق واضح لان معالمه محددة بالقرآن والسنة ، وبسوابق الخلفاء الراشدين .. وليس على عمر اذن الا أن يكشف من جديد عن روح هذا النظام ، ويعيده إلى توجيه هذا الجانب الحيوي من وجود الامة . ليس عليه سوى أن يستلهم الروح التي هيأت لهذا النظام تطبيقا عمليا رائعا قدم للبشرية أروع مثل للعدالة والسعادة الاجتماعية والرفاهية ، وقضى على كل مظاهر الاستغلال والاضطهاد . وما دام عمر يمتلك الايمان العميق والتقوى الاصيلة والبصيرة النافذة ، فقد تهيأ له اذن أن يستلهم تلك الروح وأن يستعيد ذلك التطبيق ، وأن يحدث انسجاما عجيبا بين النظام والواقع الذي أثقلته انحرافات المسؤولين السابقين وملأته

---

(١) لا بد أن نفرق – في أية دراسة للاقتصاد – بين جانبين : جانب النظام الاقتصادي والجانب الفني التطبيقي . وقد تبين كيف أن (النظام) هو وليد رغبات الإنسان الباطنية وطبيعة التزام المسؤولين بواجبهم . أما الجانب الفني التطبيقي كانتقال وسائل الانتاج من الشكل الاقطاعي الزراعي إلى الرأسمالي التجاري إلى الصناعي .. فهو ليس سوى جانب من جوانب التطور العلمي الدائم الذي تشهده البشرية ، والذي يشكل حصيلة تجارب الاباء والأجداد ، وهذا التطور لا علاقة له البتة بالنظم والمبادىء ، كما أنه لا يحمل في ذاته أية حتمية مذهبية اللهم إلا حتمية التطور العلمي القائم على تجميع التجارب .. وإلا فأية حتمية دفعت (جيمس واط) إلى اكتشاف البخار و (اديسون) إلى اكتشاف الكهرباء و (كريستوف كولومبس) إلى الانطلاق إلى امريكا ؛ الا أن تكون الرغبة في الاكتشاف وتطوير الوسائل القديمة وإضافة منجزات علمية جديدة ، الرغبة التي هي ليست أكثر من دافع غريزي داخلي ..

بالعقبات والسدود . وفيما يلي استعراض لبعض جوانب منجزات عمر في هذا المجال ، والنتائج التي ترتبت عليها .

في هذا المجال – كما في المجالات الاخرى – يبدأ عمر من الداخل – كأي حاكم راشد – من داخل نفسه ووجدانه اولاً ، وداخل أهله وبيته ثانيا ، وداخل بلاطه ثالثا ، طارحا شعار « انه لينبغي ان لا أبدأ بأول من نفسي »[٢] ثم ينتقل بعد هذا إلى الخارج لينشر العمل على الجميع ، بعد ان كان قد اجتاز امتحانا قاسيا في التجرد الكامل عن الاهواء والاستغلال وتنمية المصالح القريبه بأي شكل كان [٣] ، فهذا هو الطريق الذي سلكه الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه من بعده : كانوا يبيتون الليالي الطوال جائعين ، يشدون الاحجار على بطونهم الخاوية من أجل أن تشبع أمة المسلمين .. كانوا في أيام الضنك والمجاعة لا يأكلون إلا ما يأكله سائر الناس كي يشعروا بشعورهم ، ويتحسسوا تجربتهم ، ويسرعون في ايجاد الحلول لبؤسهم وضنكهم . ويطلب الصحابة من عمر بن الخطاب ، أيام المجاعة ، أن يتخلى عن أكل الزيت وحده ، فقد أضعفه وبسّر وجهه ، وهو الخليفة الذي يجب أن يطعم ما يمكنه دائما من تحمل أعباء مهامه التي لا تنتهي ، فيجيبهم « وكيف يعنيني أمر المسلمين إذا لم يمسّني ما يمسّهم ؟ » .. ومرّة اجتاز الرسول عليه السلام طريقا في المدينة فتقدم منه بعض الصحابة ، مصفري الوجوه ، مرهقي الخطوات ، وشكوه الجوع ، ولكي يؤكدوا له مدى ما فعله باحشائهم ، كشفوا عن بطونهم فاذا بكل واحد منهم قد شد عليها قطعة من الحجر يسكت بها جوعة الاحشاء .. فيبتسم الرسول العظيم ويكشف عن بطنه فاذا به قد سبقهم وشد على بطنه قطعتين من الحجارة ؟! . ومراراً عديدة كان كبار اغنياء الصحابة يتخلّون عن ثرواتهم التي كدحوا من أجلها السنين الطوال ، يتخلون عنها كلياً ، ويبدأون نشاطهم من جديد .. وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه يشتري أحد

---

(٢) ابن الجوزي : سيرة عمر ص ١١١ ، ابن سعد : طبقات ٥-٢٥١ – ٢٥٢ .
(٣) انظر الفصل الأول : المنحنى النفسي .

الابار من يهودي بالاف الدراهم كي يشرب المسلمون ، وفي عام مجاعة قاسية يتبرع لأهل المدينة بقافلة تحمل شتى أنواع البضائع والمأكولات ، بعد أن كان التجار قد تهافتوا عليها طالبين منه أن يبيعهم اياها بضعف ثمنها ، ولكنه يردّهم قائلاً ان هناك من أعطاه أكثر من هذا .. فيتدرجون معه في رفع الثمن ، ويتدرج معهم بان هناك من أعطاه أكثر ، وعندما يعييهم النزال يقول لهم والابتسامة تعلو وجهه : ان هناك من أعطاني عشرة أمثالها !! ويتنازل عنها للمسلمين .. وفي غزوة تبوك يجهز وحده جيشه (العسرة) بما يحتاج اليه من مسيرة ووسائل ركوب ...

ينظر عمر بن عبد العزيز إلى هذه الصور ، وغيرها كثير ، تنساب في مخيلته فتهز وجدانه اعجابا واجلالا .. ذلك هو الطريق اذن .. أن يبدأ الانقلاب – في عالم المادة – من الداخل ، من داخل النفس والوجدان ، ومن داخل الاهل والبيت والولد ، وآنذاك فقط ، سيتمكن الحاكم المسؤول أن يعلم أجهزة الدولة واداريبها الطريق الذي يجب عليهم أن يسلكوه لتحقيق العدل والغاء الاضطهاد والاستغلال الغاءاً .. ومن لم يستجب منهم فان عمر سيعرف كيف يفطمه عن الملذات !! هذا في الوقت الذي لقيت فيه كل المبادىء والنظم التي مشت إلى أهدافها من الخارج ، فشلاً ذريعا ، وتناقضا واضحا ، وازدواجاً بينا بين الوقائع والأهداف .. تلك المبادىء التي كانت تدعو إلى أشد أنواع العدل والمساواة ، ولكن أصحابها كانوا – لحوائهم وتأكيدهم على القيم البرّانية – قد أحاطوا أنفسهم بالقصور والمركبات الفخمة والارصدة الجارية في المؤسسات الكبرى .. وذلك هو مفرق الطريق بين النظام الذي ينبثق عن الاسلام ، ويستند إلى قيم متغلغلة في أعماق الوجدان الانساني ، وبين النظام الغربي ترسله عقول وضعية ، ونزوات عابرة ، ورغبات تافهة في الظهور والاستعلاء . ان النظام الاسلامي – بناء على ذلك – سيجد طريقه دائما إلى الواقع ، محتفظا بوحدته وتفرده دون أن يصاب بالازدواج . ولكن المبادىء الوضعية ما أن تضع خطواتها الأولى على الطريق حتى تصاب

بالانقسام (الافلاطوني) بين الواقع والمثال . فالمثال يقدم للكادحين صوراً رائعة لجنات عدن التي سيدخلها الجميع ، والواقع يشهد مزيدا من المكاسب والأموال تتدفق في جيوب المسؤولين ، ومزيدا من الفقر والضنك وفقدان الضمانات تحاصر الكادحين الذين اتخذوا سلالم للصعود ! !

ان روعة امتحان التجرّد الداخلي من الوسائل المادية في حياة عمر بن عبد العزيز لتتبدى كعجيبة من عجائب الايمان الذي يصنع البطولات . فقد رأينا كيف كانت حياته في شبابه : تدللا وترفها وتنعما وتأنقا وتظرفا ، حياة محاطة بكل أنواع النعيم المباح . وها هو اليوم ينقلب على هذه الحياة ، ويختار الطريق الصعب والتجربة القاسية . ان هذا الاختيار كان لا بد منه في نظر خليفة راشد كعمر بن عبد العزيز ، اذا ما أريد لمبادىء العدل الاجتماعي الاسلامي أن تتحقق . ولكن .. أيكتفي عمر باجتياز هذا الامتحان وحده ؟ فأين هي أجهزة الدولة الاخرى اذن ؟ وماذا سيفعل حزب بني أمية ، والولاة ، وكبار الموظفين ببرنامج عمر ، اذا لم يجتازوا ، هم أيضا ، طريق التقشف الذي اجتازه عمر ؟ ان أجهزة الدولة ستصاب بالتصدع والخلل لوحدث وبقي هؤلاء جميعا دون أن يجتازوا امتحانهم هذا ، وأن برنامج الخليفة سوف لن يجد مجاله الطبيعي قبل أن يتمكن كل المسؤولين عن العدالة من أن يفطموا نفوسهم وينجحوا في الامتحان . والذين سيفشلون منهم ، فان الخليفة يستطيع استبدالهم بما في الامة من خامات ايمانية وطاقات مخلصة . فلم يكن تورع عمر اذن – كما يقول الندوي « مقتصراً على ذاته – كما يفعل كثير من الزهاد – بل كانت سياسة عامة كان يريد أن يطبقها تطبيقا دقيقا على الدولة ورجالها . فكان يطلب منهم ويعزم عليهم أن يكونوا متورعين في أموال المسلمين ، لا ينفقون منها الا القدر اللازم ، وان يكونوا أشحة على أنفسهم ، أسخياء على المسلمين – بخلاف ما تجري عليه الحكومات هذا اليوم – وكان حريصا على أن يوفر على المسلمين أموالهم ، ويعتقد أن الدرهم دم فلا يجوز أن يجري

في غير عروقهم ، ولا يرى أن يضيع في (الكماليات) و (الشكليات) » [٤]

« الدراهم دم فلا يجوز أن يجري في غير عروقهم » ، ذلك اذن هو شعار الخليفة العادل ، وهذا هو تقييمه لكدح الامة ، وحرصه على الا يعود الا اليها !! وليبدأ أولا بالاقربين من بني امية ، أولئك الذين استنزفوا الكثير من أموال الدولة لحسابهم الخاص ، ليبدأ بهم أولا ، فهذا هو منطق العدل الاجتماعي في الاسلام : أن يبدأ الانسان بنفسه وأهله ثم ينتقل مباشرة إلى قومه وعشيرته ، قبل أن يضيع خطوة واحدة في الخارج .

وتشهد الأيام الأولى من خلافة عمر تجريدا واسع النطاق لكثير من أموال وأملاك بني امية ، ظلت تنمو في الماضي وتتضخم لكونهم الحزب الحاكم ليس الا .. وها هي الآن ترد إلى بيت مال المسلمين لكي يأخذ العدل مجراه ، وتعود أموال المسلمين إلى المسلمين ، لا يستأثر بها أحد دون أحد ، ولا حزب دون حزب .. أموال واملاك من شتى الصنوف والانواع ، جمعت بمختلف الطرق وسائر الأساليب، جرد عمر بني امية منها ، ومزق مستنداتها واحدة واحدة ، وردها إلى مكانها الصحيح : مظالم وجوائز وهدايا ومخصصات استثنائية وضياع وقطائع ، جمعت كلها على شكل ممتلكات ثابتة ونقود سائلة بلغت في تقدير عمر شطراً كبيرا من أموال الامة جاوزت النصف [٦] . ولا تمضي سوى أيام معدودات حتى يجد بنو امية أنفسهم مجردين إلا من حقهم الطبيعي المشروع . فيضجون ضد سياسة عمر هذه ويعلنون معارضتهم الصارمة لها . فماذا يكون جواب عمر . انظروا : « والله لوددت أن لا تبقى في الأرض مظلمة الا رددتها ، على شرط الا ارد مظلمة الا سقط لها عضو من أعضائي أجد المه !! ثم يعود كما كان حيا !! فاذا لم يبق مظامة الا رددتها سألت نفسي عندها !! » [٧] . ولكن بني امية لم ييأسوا من هذه

---

(٤) أبو الحسن علي الحسني الندوي : رجال الفكر والدعوة في الإسلام ، ط ٢ ص ٣٤ .

(٥) ابن عبد الحكم : سيرة عمر ص ٥٨ – ٥٩ ، ١٤٧ – ١٥١ .

(٦) ابن الجوزي ص ١١٥ .

(٧) ابن عبد الحكم ص ١٤٧ – ١٥١ .

الفدائية النادرة ازاء حقوق الامة ، وهم الذين ما خطر ببالهم يوما أن يُجردّوا هذا التجريد ... ومن ثم يجتمعون ويدفعون أحد أبناء الوليد إلى كتابة رسالة شديدة اللهجة ضد سياسة عمر .. ويجيء رد عمر على الرسالة ، حمم من نار الحق تتفجر من كل كلمة فيها « ... ويلك وويل أبيك ! ما أكثر طلابكما وخصمائكما يوم القيامة .. رويدك فانه لو طالت بي حياة ، ورد ّ الله الحق إلى أهله ، تفرغت لك ولأهل بيتك ، فأقمتكم على المحجة البيضاء .. فطالما تركتم الحق وراءكم . ومما وراء هذا ما أرجو أن يكون خير رأي أبته : بيع رقبتك فان لكل مسلم فيك سهما في كتاب الله !! » [٨] .

وما أن ييأس بنو امية من صمود عمر ازاء معارضتهم الجماعية الشديدة هذه ، حتى يلجأون إلى أسلوب الحوار الهادىء ، علهم يصلون عن طريقة إلى ما يشتهون ، فيتكلمون معه يوما مستثيرين فيه نزعة القربى وعاطفة الرحم ، فيجيبهم : أن يتسع مالي لكم ، وأما هذا المال – أي المال العام – فحقكم فيه كحق رجل باقصى برك الضماد ، فلا يمنعه من أخذه الا بعد مكانه . والله اني لارى ان الأمور لو استحالت حتى يصبح أهل الأرض يرون مثل رأيكم لنزلت بهم بائقة من عذاب الله » [٩] . ويدخل هشام بن عبد الملك على عمر يوما ويقول : يا أمير المؤمنين اني رسول قومك اليك ، وان في أنفسهم ما جئت لاعلمك به انهم يقولون : استأنف العمل برأيك فيما تحت يدك ، وخل بين من سبقك وبين ما ولوا ، بما عليهم ولهم . وببديهة كخطف الشهاب يجيب عمر : أرأيت أن أتيت بسجلين أحدهما من معاوية والاخر من عبد الملك ، فبأي السجلين آخذ ؟

هشام : بالاقدم ..

عمر : فاني وجدت كتاب الله الاقدم ! فأنا حامل عليه من أتاني ممن تحت

---

(٨) ابن عبد الحكم ص ١٤٧ – ١٥١ .
(٩) ابن الجوزي ص ١١٤ – ١١٥ .

يدي ، وفيما سبقني ! ! [١٠] .

واذ يعجز الرجال من بني امية عن جعل عمر يفرق أو يلين عن سياسته ازاءهم ، يلجأون إلى النساء ، ويدفعون اليه عمته فاطمة بنت مروان . وما أن تدخل هذه عايه ، حتى يطلب عمر من خادمه ان يأتيه بدينار ذهبي ومجمرة وقطعة لحم ، ثم يلقي الدينار في النار وينفخ فيه حتى يغدو قطعة من نار ، ثم يرفعه ويلقيه على قطعة اللحم فتنش وتقتر ، ومن ثم يلتفت إلى عمته : أي عمة ، اما تأوين لابن أخيك من مثل هذا ؟ [١١] . وتوخذ العمة بهذا المشهد المؤثر ، وتلتفت إلى عمر طالبة منه أن يستمر في الكلام . واسمعوه يقول و كأنه يرسم لوحة فنية رائعة للعدالة الاجتماعية التي جاء الاسلام لكي يجعلها تفجر الخير والنعيم على الجميع « ان الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذابا إلى الناس كافة ، ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهرا شربهم فيه سواء ! ! ثم ولي أبو بكر فترك النهر على حاله ، ثم ولي عمر فعمل عملهما . ثم لم يزل النهر يستقي منه يزيد ومروان وعبد الملك ابنه والوليد وسليمان حتى أفضى الامر الي وقد يبس النهر الاعظم ، فلم يرد أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه »[١٢] ! ! وها هو عمر بن عبد العزيز يرفع معوله لكي يعمق المجرى ويعيده إلى ما كان عليه : نهراً دفاقاً يوزع الخير والعدل على كل إنسان ، وينقل الثمار الحلوة إلى كل بيت ، ولم تشأ عمة الخليفة ان تغادر المكان قبل أن تطالب الخليفة بجراياتها التي كانت تتسلمها من الخلفاء السابقين ، ويجيبها الخليفة بنبرة أسى : انهم كانوا يعطونك من مال المسلمين ، ليس ذاك المال لي فاعطيكه ، ولكني أعطيك مالي إن شئت ! ! فتسأله عمته : وماذا ؟ فيجيب : مائتا دينار . فهل لك بها ؟ فتقول : وما يبلغ مني عطاؤك ؟ فيرد : أملك غيره يا عمه ! ! وتنصرف عمته كما انصرف من قبل رسل بني مروان [١٣]

---

(١٠) ابن الجوزي ص ١١٨ — ١١٩ .

(١١) ابن الجوزي ص ١١٧ .

(١٢) ابن الأثير : الكامل ٥-٦٤ .

(١٣) ابن عبد الحكم ص ٦٣ — ٦٤

اعيت بني أمية الحيل إزاء صلابة عمر في تنفيذ برنامجه الاجتماعي معهم، وقرروا في النهاية أن يستخدموا سلاحهم الأخير : المكافحة والرفض !! فاستدعوا أحدهم وطلبوا منه أن يدخل على عمر ويعلمه أنه لولا الخوف من غضبه لرد عليه كل منهم عشرة الدنانير التي أجراها عليهم .. ولكن رد عمر الحاسم سرعان ما يجيىء كحد السيف « .. لا والله العظيم ، لا أعطيكم درهماً إلا أن يأخذ جميع المسلمين .. » وخرج الرسول ليقول لهم : أنتم فعلتم بأنفسكم تزوجتم إلى عمر بن الخطاب بنت عاصم ابنه فجئتم بمثل عمر بن عبد العزيز !![14]

وسرعان ما تلاشت السمة الجماعية لمعارضة بني أمية بعدما رأوا من جد عمر إزاء أموال الأمة ، وقالوا : ليس بعد هذا شيء[15] . ومن ثم أخذ كل منهم يسعى ، على انفراد ، ليسترد ما يستطيع استرداده من أموال . ولكن عمر الذي وقف إزاء رغباتهم مجتمعين ، أحرى به الآن ان يتصدى لكل واحد منهم على انفراد !! ويعلمه أن حق الأمة لا يمكن أن يكون موضع مساومة في يوم من الأيام . وهذا عنبسة بن سعيد بن الصامد يدخل عليه يوماً ليطالبه بمال كان قد كتبه له به الخليفة السابق سليمان بن عبد الملك ، مقداره عشرون ألف دينار ، فسأله عمر بلهجة بلغت في استنكارها حد السخرية : عشرون ألف دينار تغني أربعة آلاف بيت من المسلمين ، وادفعها إلى رجل واحد ؟! والله مالي إلى ذلك من سبيل . فيسلمه عنبسة كتاب سليمان الذي فيه الصك بالمبلغ المذكور ، فيقول عمر : لا عليك أن يكون (الصك) معك ، فلعله أن يأتيك من هو أجرأ على هذا المال مني فيأمر لك به[16] ورحم الله الإمام أحمد بن حنبل إذ كان يقول في معرض حديثه عن عمر بن عبد العزيز : ما كان أشده على بني أمية[17] .

---

(١٤) المصدر السابق ص ١٦٤ — ١٦٥ .

(١٥) المصدر السابق ص ٥٨ — ٥٩ .

(١٦) ابن عبد الحكم ص ٥٨ — ٥٩ .

(١٧) ابن الجوزي ص ١٢٠ .

لا يقف عمر بن عبد العزيز عند حد استرداد الأموال من بني أمية وردها إلى بيت المال ، بل يخطو خطوة أخرى ويعلن لأبناء الأمة الإسلامية ان كل من له حق على أمير أو جماعة من بني أمية ، أو لحقته منهم مظلمة ، فليتقدم بالبيّنة لكي يرد إليه حقه .. وتقدم عدد من الناس بظلاماتهم وبيّناتهم ، وراح عمر يردها واحدة بعد الأخرى : أراض ومزارع وأموال وممتلكات[١٨] . ومرة بعث إليه واليه على البصرة برجل اغتصبت أرضه ، فرد عمر هذه الأرض إليه ثم قال له : كم انفقت في مجيئك إلي ؟ قال : يا أمير المؤمنين تسألني عن نفقتي وأنت قد رددت علي أرضي وهي خير من مائة ألف ؟ فأجابه عمر : إنما رددت عليك حقك . ثم ما ابث أن أمر له بستين درهما كتعويض له عن نفقات سفره[١٩] .

بعد أن يتم عمر كفاحه على جبهة الحزب الحاكم من بني أمية ، ينتقل إلى الخارج ، ويبدأ أول ما يبدأ بعماله وموظفيه ، فهم ، من جهة ، القدوة التي يحذو حذوها أبناء الأمة جميعاً ، وهم من جهة أخرى المسؤولون الذين يجب أن يتحملوا مسؤوليتهم كاملة ، والا يستغلوا مناصبهم لحسابهم الشخصي مهما ضؤلت قيمة هذا الاستغلال . يبدأ عمر معهم طالباً منهم ان يقدروا أموال الأمة حق قدرها وألا يضيعوها في الكماليات ولا الشكليات الإدارية ، وان يتبعوا سياسة التقشّف في اجراءاتهم المختلفة .. فيكتب إلى أبي بكر بن عمرو واليه على المدينة ، وكان هذا قد كتب إلى الخليفة السابق سليمان يطلب أوراقاً يكتب عليها في اموره الأدارية « أما بعد : فقد قرأت كتابك إلى سليمان تذكر أنه قد كان يجري على من كان قبلك من أمراء المدينة من القراطيس لحوائج المسلمين كذا وكذا ، فابتليت بجوابك فيه ، فإذا جاءك كتابي هذا فارقّ القلم واجمع الخط ، واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة فإنه لا

(١٨) انظر ابن عبد الحكم ص ٦٠ – ٦١ ، ١٤٦ – ١٤٧ وابن الجوزي ص ١٠٤ .

(١٩) ابن عبد الحكم ص ١٤٦ – ١٤٧ .

حاجة للمسلمين في فضل قول أضرّ بيت مالهم . والسلام عليك »[٢٠]. ورسالة أخرى يكتبها إليه يقول فيها « أما بعد : فقد قرأت كتابك إلى سليمان تذكر فيه أنه كان يقطع لمن كان قبلك من أمر اء المدينة من الشمع كذا وكذا ، يستضيئون به في مخرجهم ، فابتليت بجوابك فيه ، ولعمري لقد عهدتك يا ابن أم حزم ، وأنت تخرج من بيتك في الليلة الشاتية المظلمة من غير مصباح !! ولعمري أنت يومئذ خير منك اليوم ولقد كان في فتائل أهلك ما يغنيك[٢١]!! ويكتب إليه عامل خراجه على اليمن : إني فقدت من مال اليمن دنانير .. فيجيئه الجواب : إني لست اتهم دينك ولا أمانتك ، ولكني أتهم تضييعك ، وتفريطك ، وإنما أنا حجيج المسلمين في مالهم [٢٢] .

لم يكتف عمر بفرض سياسة التقشف على عماله وموظفيه ، بل اتخذ اجراءات عديدة أخرى ، كضمانات عملية ، لإلزام الموظفين حدود وظائفهم كخدام مسؤولين أمام الخليفة والأمة ، وعدم استغلال مراكزهم لكل ما من شأنه ان يحقق مصلحة مالية خاصة ويلحق بالأمة ظلماً واستغلالاً . فمنعهم من مزاولة أي نشاط تجاري قائلاً « لا يحل لعامل تجارة في سلطانه الذي هو عليه ، فإن الأمير متى يتجر ليستأثر ويصيب اموزاً فيها عنت وان حرص على ألا يفعل »[٢٣] وبعد ثمانية قرون جاء ابن خلدون وكتب في مقدمته العظيمة بعد تجارب طويلة ، ودراسة واسعة ، ما يصدق فراسة عمر بن عبد العزيز ، وحكمته البالغة ، قال : « ان التجارة من السلطان مضرّة بالرعايا مفسدة للجباية » والبلاد التي يحكمها الأوربيون — وهم تجار قبل كل شيء — شاهدة بصدق هذه النظرة[٢٤] .

كما منع عمر عماله وموظفيه من قبول الهدايا لأن فيها شبهة رشوة ومجالاً

---

(٢٠) ابن عبد الحكم ص ٦٥ .

(٢١) المصدر السابق ص ٦٤ — ٦٥ .

(٢٢) المصدر السابق ص ٦٩ .

(٢٣) المصدر السابق ص ٩٩ .

(٢٤) الندوي : رجال الفكر ص ٣٧ .

لاستغلال المنصب في تحقيق مصلحة ذاتية ، كما ألغى هدايا أعياد النوروز والمهرجان الفارسية لنفس السبب[٢٥] ، وقضى على السخرة بأنواعها لأنها ظلم اجتماعي سافر ، وطريق للموظفين إلى استغلال كدح أبناء الأمة لحسابهم الخاص[٢٦] . ويتلفت – خلال مطاردته للظلم – فيرى أن مساحات واسعة من أراضي الدولة ومراعيها قد اغتصبت من قبل أمراء الدولة وكبار موظفيها ، فيحطم عمر هذا الاحتكار ، ويلغي هذا الاغتصاب ، ويعيد إلى الأمة حقوقها قائلاً « ونرى ان الحمى يباح للمسلمين عامة.. وإنما الإمام فيها كرجل من المسلمين ، إنما هو الغيث ينزله الله لعباده ، فهم فيه سواء ! ! »[٢٧] .

إزاء هذه الشدة والصرامة التي أخذ عمر بها نفسه وأهله وحاشيته وعماله وموظفيه ، كباراً وصغاراً ، نجد صورة أخرى لعمر ، صورة الخليفة الأب الذي ينظر إلى أبناء أمته نظرة ملؤها الشفقة والرحمة والحرص على نشر العدل على الجميع ، وعدم ذهاب قطرة واحدة من عرق مسلم أو دمعه أو دمه ، عبثاً .. انه مسؤول عن كل قطرة تذهب جفاء لأي مسلم في أي مكان .. فما هذه القطرة إلا الجهد والكدح والنصب الذي بذله ذلك المسلم من أجل ان يحيا حياة أكثر رخاء .. وان ذهابها يعني – بوضوح – اغتصاب هذا الجهد لمصلحة إنسان ما أو فئة معينة .. وان عمر لا يكتفي بالقاء نظرة الحنو هذه ، ولكنه – وهو المسؤول الذي يتصف بالفاعلية والايجابية – يتخذ الخطوات الكفيلة بتحويل هذه النظرة إلى واقع عادل يعم خيره الجميع ، وتتدفق بركته في كل مكان من الدولة الإسلامية المترامية الأطراف .

انه يعمل – أولاً – على إزالة كل الضرائب المجحفة التي كانت قد فرضت على الأمة الإسلامية من أجل تنمية موارد الدولة دون وجه حق ، فيلغي

---

(٢٥) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٦ ٥٦٩ .

(٢٦) ابن عبد الحكم ص ٩٩ .

(٢٧) ابن عبد الحكم ص ٩٧ ، ابن سعد ٥-٢٨١ .

الضرائب اللاشرعية [٢٨] ، ويشير الطبري إلى عدد من هذه الضرائب الملغاة كالايين [٢٩] ، واجور ضرّابي النقود ، وهدايا النوروز والمهرجان — التي غدت أشبه بالضرائب الاجبارية — واجور الفيوج — أي رسول السلطان الذي يسمى بالكتب — واجور البيوت ، ودراهم النكاح [٣٠] . ويصدر كتاباً توزع نسخه على العمال ليقرؤوه على الناس مؤكدين الغاء هذه الضرائب المجحفة « من المظالم والتوابع التي كانت تؤخذ منهم في النيروز والمهرجان ، وثمن الصحف ، واجور الفيوج ، وجوائز الرسل.. وأرزاق العمال وأنزالهم.. » [٣١] كما الغيت العشور عن كافة الفئات من غير المزارعين ، وحدد دافعو الضرائب من غير المسلمين بقطاعات ثلاث : المزارعون والصناع وأصحاب الحرث والتجار ، أما المسلمون من التجار الصناع والحرفيين فليس عليهم أن يؤدوا لبيت المال سوى الزكاة ، أما المزارعون فعليهم أن يدفعوا — أيضاً — الضريبة العشرية ، أو الخراجية ، بناء على زمن تملكهم الأرض [٣٢] . واسقطت المكوس وأوضح عمر سبب ذلك بقوله « أما المكس فإنه البخس الذي نهى الله عنه فقال (ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين) غير أنهم كنوه باسم آخر !! » [٣٣] . كما رفعت الجزية عن اعناق كافة الذين أسلموا حديثاً والذين لم تشأ السلطات الأموية السابقة ان تسقط عنهم هذه الضريبة حرصاً على الحصول على مزيد من الأموال .

ويؤكد عمر — ثانياً — على عماله ضرورة اتباع أكثر الأساليب عدلاً في جباية الضرائب المشروعة ، وراح يشدد عليهم في أن يراعوا ظروف

---

(٢٨) ابن عبد الحكم ص ٩٨ .

(٢٩) الايين : معناها العادة والمقصود بها الضرائب على تنوعها وهو ما تدل عليه الكلمة الانكليزية Custom (فلهاوزن : الدولة العربية ص ٢٩٣) .

(٣٠) تاريخ الرسل والملوك ٦-٥٦٩ .

(٣١) ابن عبد الحكم ص ١٦٠ .

(٣٢) انظر المصدر السابق ص ٩٨ .

(٣٣) المصدر السابق ص ٩٨ ، ٩٩ .

المزارعين ودافعي الضرائب كيلا يلحقهم أذى أو يصيبهم حيف ، ويأمرهم بأن يتحلوا بالمرونة الكافية التي تتيح لهم تقليص نسبة الضرائب في المواسم التي يقل فيها مستوى الانتاج الزراعي لسبب من الأسباب .. واننا نلمح لهجة الوعيد والتهديد التي يخاطب بها الخليفة عماله في كل مكان طالباً منهم التزام الحق والعدل في أساليب الجباية ، فعن هذا الطريق بالذات كان بامكان العمال والموظفين – لو لم يجابهوا بهذا الوعيد – ان ينسفوا كل المكتسبات التي جنتها الأمة من الانقلاب الاقتصادي الذي أحدثه عمر بن عبد العزيز ، ففي رسالة بعث بها الخليفة إلى عامله على اليمن يقول « ... انك قدمت اليمن فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج مضروبة ثابتة في أعناقهم كالجزية ، يؤدونها على كل حال : ان اخصبوا أو أجدبوا ، وحيوا أو ماتوا ، فسبحان الله رب العالمين ، ثم سبحان الله رب العالمين ، ثم سبحان الله رب العالمين !! إذا أتاك كتابي هذا فدع ما تنكر من الباطل إلى ما تعرف من الحق ، ثم ائتنف الحق فاعمل به ، بالغاً بي وبك ، وإن أحاط بمهج أنفسنا ، وان لم ترفع إلي من جميع اليمن إلا حفنة من كتم ، فقد علم الله اني بها مسرور إذا كانت موافقة للحق[٣٤] . وكتب إليه رسالة أخرى يعلمه فيها ان من سبقه من عمال على اليمن ، كانوا يأخذون مقادير ثابتة من الزكاة من أهاليها سواء زادت رؤوس أموالهم أم نقصت ، ثم يقول « .. ولعمري ان هذا للجور حق الجور ، فإذا جاءك كتابي هذا فخذهم بما ترى عليهم من الحق ثم اقسم ذلك على فقرائهم .. فوالله لو لم يأتني من قبلك إلا كفاً لرأيته من الله قسماً عظيماً »[٣٥] . كما كتب إلى عامله على البصرة يقول « بلغني ان عمالك يخرصون – أي يتكهنون ويحكمون بالظن – الثمار على أهلها ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذي يتبايعون به فيأخذونها قرفاً – أي بثمن بخس – على قيمتهم التي قوموها » . وأمر برد فرق السعر إلى أصحابه[٣٦] . وأصدر أوامره إلى جباة الخراج أن لا يأخذوا من الأهالي

---

(٣٤) ابن عبد الحكم ص ١٢٣ .

(٣٥) المصدر السابق ص ٦٥ – ٦٦ .

(٣٦) ابن سعد ٥-٢٥٠ .

من الدراهم ما زاد وزنه على أربعة عشر قيراطاً ، وهو ما أمر به من قبل عمر ابن الخطاب ، بعد ما رأى عمر بن عبد العزيز ان العمال كانوا يجبون دراهم أثقل وزناً من تلك التي فرضها جده رضي الله عنه ، مما كان يزيد زيادة فاحشة في الضرائب المجباة من الأهالي[٣٧] . وكي يقطع الطريق على أية محاولة للتلاعب أمر بتوحيد المكاييل والموازين وجعلها موحدة في جميع أنحاء الدولة الإسلامية[٣٨]

ويتجه عمر – ثالثاً – إلى تطبيق وتوسيع فكرة (الضمان الجماعي) بحيث تشمل كافة طبقات الأمة رجالاً ونساءً واطفالاً وفقراء وعاجزين ومرضى ومسافرين ، مسلمين وغير مسلمين ، عرباً وموالي ، اعتقاداً منه بأن هذا الضمان – الذي شهده عصر الرسول عليه السلام وعصر خلفائه الراشدين – أمرٌ ضروري إذا ما اريد للعدل الاجتماعي ان يأخذ مجراه . وفي سبيل جعل هذا الضمان أكثر (عملية) والمسؤولين أكثر قدرة على الحركة والعطاء ، أقر عمر نظاماً لا مركزياً مفتوحاً في جمع الأموال وتوزيعها ، فجعل كل ولاية من ولايات الدولة الإسلامية تسعى إلى نوع من الاكتفاء الذاتي في جمع الضرائب وتوزيعها على احتياجاتها المحلية ، وكي يعزز الخليفة هذا الاجراء جعل تبادل المعونات المالية بين الأقليم والمركز أمراً مفتوحاً ، لسد العجز المالي في أي من الطرفين ، في حالة حدوثه ، وفي هذا الحوار الذي يسوقه لنا الطبري صورة واضحة لهذه السياسة المرنة المفتوحة . يقول الطبري : قال أبو مجلز – أحد العمال – لعمر : انك وضعتنا بمنقطع التراب – أي في منطقة جرداء قليلة المحصول – فاحمل إلينا الأموال . فقال عمر : يا أبا مجلز قلبت الأمر !!! قال : يا أمير المؤمنين أهو لنا أم لك؟ قال : بل هو لكم إذاقصر خراجكم عن اعطياتكم . قال : فلا أنت تحمله إلينا ولا نحمله إليك ، وقد وضعت بعضه على بعض . قال : احمله إليكم إن شاء الله »[٣٩] . كما نجد

---

(٣٧) فان فلوتن : السيادة العربية ص ٢٩ .

(٣٨) ابن عبد الحكم ص ٩٨ .

(٣٩) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٦-٥٧٠ .

هذه السياسة واضحة في رسالته إلى عقبة بن زرعة الطائي عامله على خراج خراسان حيث يقول « ... ان كان ـ الخراج ـ كفافاً لاعطياتهم فسبيل ذلك وإلا فاكتب إليّ حتى أحمل إليك الأموال فتوفر لهم اعطياتهم » فقام عقبة باحصاء الخراج فوجده يفضل على اعطياتهم ، فكتب إلى عمر بذلك ، فأجابه عمر : « ان اقسم الفضل في أهل الحاجة » [٤٠] .

وتبرز هذه السياسة مرة أخرى في كتابه إلى عدي بن أرطأة عامله عل البصرة حيث يقول « ... إني كنت كتبت إلى عمرو بن عبد الله ان يقسم ما وجد بعمان من عشور التمر والحب (الغلال) في فقراء أهلها ومن سقط إليها من أهل البادية ، ومن اضافته إليها الحاجة والمسكنة وانقطاع السبيل . فكتب إلي أنه ـ أي عمرو بن عبد الله ـ سأل عاملك ـ على عُمان ـ عن ذلك الطعام والتمر ، فذكر أنه قد باعه وحمل إليك ثمنه ، فاردد إلى عمرو ما كان حمل إليك عاملك على عمان من ثمن التمر والحب ليضعه في المواضع التي أمرته بها ، ويصرفه فيها »[٤١]. وفي العراق تلقى العمال امراً من عمر برد كافة المظالم إلى أهلها فردوها وكلف ذلك مالية العراق من أمرها عسراً ، فاسرع عمر بمدهم بالأموال من الشام [٤٢] . ويتحدث بن جحذم عامل عمر على صدقات بني تغلب قائلاً : انه يأتي إلى الحيّ ويدعوهم باموالهم ، فيقبضها ، ثم يدعو فقراءهم ويقسمها فيهم حتى انه ليصيب الرجل الفريضتين أو الثلاث « فما أفارق الحيّ وفيهم فقير ، ثم آتي الحيّ الآخر فاصنع بهم كذلك ، فما انصرف إلى الخليفة بدر هم !! » [٤٣] .

وبلغ من تأكيد عمر على توزيع العطاء ـ وهو الأساس الأول للضمان الاجتماعي آنذاك ـ ان الرجل لا يلغى عطاؤه بمجرد وفاته ، بل ينتقل سهمه

---

(٤٠) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٦-٥٦٨ – ٥٦٩ .

(٤١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٩٤ .

(٤٢) ابن سعد ٥-٢٥٢ .

(٤٣) ابن الجوزي ص ٨٦ – ٨٧ .

إلى ورثته ويوزع عليهم[٤٤] . وقد خصصه للمعتقلين ديواناً توزع بموجبه أعطياتهم وكتب إلى عامله على المدينة، بشأن العطاء « ان من كان غائباً قريب المغيبة فاعط أهل ديوانه ، ومن كان منقطع الغيبة فاعزل عطاؤه إلى أن يقدم أو يأتي نعيه ، أو يوكّل عندك بوكالة .. فادفع عطاءه إلى وكيله »[٤٥] . ويتحدث شاهد عيان ان عمر أخرج لأهل المدينة ثلاث اعطيات في مدى سنتين وخمسة أشهر[٤٦] . وقال شاهد آخر : سمعت كتاب عمر يقرأ علينا ان ارفعوا كل منفوس نفرض له ، وارفعوا — أسماء — موتاكم ، فانما هو مالكم نرده عليكم »[٤٧] .

اتخذ الضمان الاجتماعي في دولة عمر بن عبد العزيز صوراً فريدة عجيبة وسعى الخليفة إلى توزيع العدل على الجميع ما داموا مواطنين للدولة واحدة بعدل الله وشرعه . يكتب إلى عماله ان يقيموا الخانات ومراكز الضيافة في بلادهم كي يستضيفوا المسافرين ويقروهم ، ويتعهدوا دوابهم ، ويدلوهم إذا افتقدوا الطريق « ... فمن كانت به علة فاقروه يومين وليليتين ، فإن كان منقطعاً به فقووه بما يصل به إلى بلده »[٤٨] . ونراه يوزع العطاء على جميع محاربي الدولة بالعدل الشامل دون تفريق بين عربي وغير عربي ما دام الجميع يحملون راية لا إله إلا الله ، ويعزل واليه على خراسان لأنه منع ألوفاً من الموالي الذين كانوا يغزون ، منعهم عطاءهم[٤٩] . ويتحدث شاهد عيان قائلاً : حضرت قسمتين قسمها عمر بن عبد العزيز على جميع الناس ، كلهم سوّى بينهم[٥٠] . وخطب عمر يوماً في الغرباء الذين قدموا دمشق قائلاً : أيها الناس

(٤٤) البلاذري : فتوح البلدان ص ٥٦٥ .
(٤٥) ابن سعد ٥-٢٥٧ .
(٤٦) ابن سعد ٥-٢٥٥ .
(٤٧) ابن سعد ٥-٢٥٥ .
(٤٨) الطبري ٦-٥٦٧ .
(٤٩) الطبري ٦-٥٥٩ ، ابن سعد ٥-٢٧٧ .
(٥٠) ابن سعد ٥-٢٥٤ .

الحقوا ببلادكم ، فاني أنساكم عندي وأذكركم ببلادكم[٥١] .

ولا يكتفي الخليفة بهذا ، بل يتعهد بكفالة الدولة لأبناء المقاتلين وأهليهم . وكي لا يحدث أي ميل أو هوى في التوزيع أقرع بينهم ، فمن اصابته القرعة جعله في المائة ، ومن لم تصبه جعله في الأربعين[٥٢] . وخصّص الاعطيات للمرضى المزمنين الذين لا يرجى شفاؤهم ، وساوى كلا منهم بالرجل الصحيح ولام أحد عماله لأنه اعترض على هذه المساواة[٥٣] . واتخذ داراً خاصة سماها (دار الطعام) لاطعام المساكين والفقراء وأبناء السبيل ، وحذر أهله وبنيه ان يصيبوا منها شيئاً[٥٤] .

وينساح عدل عمر – بعد هذا – إلى كل مكان حتى يبلغ الأطفال في سن الفطام !! ويروي شاهد عيان كيف أن الخليفة أراه السجلات التي حددت فيها أرزاق الأطفال[٥٥] . ويروي آخر (وهو مروان بن شجاع الجزري) كيف خصّص له عمر وهو فطيم عشرة دنانير[٥٦] كما بلغت رعايته لأهل الذمة حداً جعلت معه أحد كتاب النساطرة يضيف كلمات التبجيل إلى اسم الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ، كلما عرض لذكرهم ، ويستنزل رحمة الله على عمر بن عبد العزيز[٥٧] . فقد شمل عمر بضمانه الاجتماعي كافة الذميين ، فرفع الجزية عن الرهبان في مصر ، وألغى الضريبة على أملاك الكنيسة والأساقفة هناك[٥٨] . وأمر بتوزيع الأموال الفائضة في بيوت الأموال على الذميين بعد قضاء حاجات المسلمين[٥٩] ، فضلاً عن تسليف مزارعيهم لكي

---

(٥١) ابن عبد الحكم ص ٤٢ – ٤٣ .

(٥٣) ابن سعد ٥-٢٨١ .

(٥٤) ابن سعد ٥-٢٧٩ .

(٥٥) الطبري ٦-٥٦٩ – ٥٧٠ ، ابن سعد ٥-٢٥٥ .

(٥٦) البلاذري ص ٥٦٢ .

(٥٧) توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٤٦٦ .

(٥٨) عبد العزيز الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص ٣٣ – ٣٤

(٥٩) ترتن : أهل الذمة في الإسلام ص ٢٧٦ .

يتمكنوا من تنشيط أعمالهم الزراعية [٦٠] ، واسقط عن ذميي جزيرة قبرص الزيادة النقدية التي فرضها عليهم عبد الملك بن مروان[٦١] ، وكتب إلى عامله على البصرة ان « انظر في أهل الذمة فارفق بهم ، وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال فانفق عليه .. كما لو كان لك عبد فكبرت سنه، لم يكن لك بدٌ من ان تنفق عليه حتى يموت أو يعتق » [٦٢] .

وتشدّد عمر في جمع أموال الزكاة ، باعتبارها الضريبة الأساسية المفروضة على المسلمين ، وانها حق الفقراء والمشردين والمستعبدين والمنقطعين والعاطلين الذي لا يجوز التهاون فيه أبداً [٦٣] ، واهتم بتوزيعها على مستحقيها ، باحثاً عنهم في كل مكان ، موزعاً جباته في كل الأقاليم ، وفي الحالات التي لم يكن هؤلاء الجباة يجدون فيها الفقراء ، يشترون بهذه الأموال رقاب المستعبدين ويعتقونها [٦٤] .

ويخطو الخليفة خطوات أخرى لتعزيز الضمان الاجتماعي ، وترسيخ التكافل بين الدولة الإسلامية ومواطنيها ، ويصل حداً عجيباً في رسم وتنفيذ معالم العدل الاجتماعي حينما يقرر التزام الدولة بتأمين الحاجات الأساسية للمواطن ، حداً عجيباً بلغ فيه ــ في ذلك الزمن السحيق !! ــ كل ما رسمه وحلم به (كارل ماركس) وكل ما عملت الشيوعية على تنفيذه في عالم الواقع. فبعد رسالة بعث بها إلى أحد عماله يأمره بالقضاء عن المدينين !! تلقى جواباً من العامل يقول فيه : إنا نجد الرجل له المسكن والخادم ، وله الفرس ، وله الأثاث في بيته ، فكتب إليه الخليفة : لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوي إليه رأسه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، وأثاث في بيته ،

---

(٦٠) ابن عبد الحكم ص ٦٨ .

(٦١) البلاذري ص ١٨٣ .

(٦٢) ابن سعد ٥-٢٨٠ .

(٦٣) ابن عبد الحكم ص ٩٥ ــ ٩٦ .

(٦٤) ابن عبد الحكم ص ٦٩ ، ١٢٤ ــ ١٢٥ وانظر الطبري ٦-٥٦٩ ــ ٥٧٠ .

ومع ذلك فهو غارم !!! فاقضوا عنه ما يمكنه من الدين[٦٥] . وكتب إلى عامله على الكوفة يقول « كتبت تذكر أنه قد اجتمعت عندك أموال بعد أعطية الجند، فاعط منهم من كان عليه دين في غير فساد ، أو تزوج فلم يقدر على نقد»[٦٦] وقد خصص عمر مبلغاً في بيت المال لمساعدة المدينين والقضاء عنهم[٦٧] ، ومن جهة أخرى أمر عماله بأن يسددوا ديون الأشخاص الذين يهلكون وهم مدينون[٦٨] ، رغبة منه في ضمان حق الدائنين . وأمر — فضلاً عن ذلك — بتعويض كل من لحق به ضرر لا طاقة له به . وجاءه مرة أحد المزارعين وأوضح له كيف أنه زرع زرعاً ، وكيف ان جيشاً من جند الشام خربه وأفسده ، فأمر عمر له بعشرة آلاف درهم[٦٩] .

ويمضي عمر في توسيع الضمان ومدّه إلى مساحات أوسع ، فيتجاوز به الجوانب المعاشية والحاجات الضرورية ، صوب اعانة المسلمين على أداء شعائر الله ، ومطاردة الظلم أينما وجد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فيكتب إلى أحد عماله أن انظر من أراد من الذرية ان يحجّ، فعجل له مائة يحج بها[٧٠]، ويكتب إلى عامله على اليمن ان اقعد على طريق الحاج قوماً ترضاهم ، وترضى دينهم واماناتهم ، لكي يقووا الضعيف ويغنوا الفقير[٧١] . ويكتب إلى أهل المواسم من الحجاج« اما بعد : فأيما رجل قدم إلينا في ردّ مظلمة، او امر يصلح الله به خاصاً أو عاماً من امر الدين فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة ... دينار ، بقدر ما يرى الحسبة وبعد السفر ، لعل الله يحيي به حقاً ، أو يميت باطلاً ، أو يفتح به من ورائه خيراً !! »[٧٢] . وتلك هي القمة التي ركز عليها عمر راية العدل ، والتي تبدو — دونها — سائر الرايات ترفرف بهدوء

---

(٦٥) ابن عبد الحكم ص ١٦٤ .
(٦٦) ابن عبد الحكم ص ٦٨ .
(٦٧) ابن سعد ٥-٢٥٧ .
(٦٨) ابن عبد الحكم ص ٦٨ .
(٦٩) ابن الجوزي ص ٧٩ .
(٧٠) الطبري ٦-٥٦٩ .
(٧١) ابن عبد الحكم ص ٦٥ — ٦٦ .
(٧٢) المصدر السابق ص ١٣٧ .

هنالك في السفوح ... ان عدله هذا ينصب كغدق السحاب على سائر أبناء الأمة ، ويستهدف اعادة الحقوق إلى نصابها ، ويحتضن كل الفاعليات والحاجات ماديها وروحيها ، ما يتصل بها باليوميات والضرورات المباشرة ، وما يرتبط منها باداء حقوق الله والعمل على ترسيخ قيم الحق والعدل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتلك هي الصفة اللازمة للخلافة الراشدة : ان تحيل كل قطاع منها ، سواء كان سياسياً أم ادارياً ، تثقيفياً أم اقتصادياً ، إلى ميدان واسع للارشاد والتوجيه ، والسعي بالأمة خطوات إلى الأمام في طريق التقوى والإحسان .

وقد تميّز عمر بن عبد العزيز ، وهو ينشر جناحيْ العدل والمساواة على أبناء الأمة الإسلامية ، تميز ببصيرة ثاقبة ، وحسّ عميق بالعدل الاجتماعي ، كانا ينأيان به دائماً عن مواطن الزلل والشبهات. جيء إليه مرة بسارق ، فشكا إليه هذا الحاجة التي ساقته إلى هذا العمل، فعذره عمر وأمر له ببضعة الدراهم[٧٣] عين موقف جده العظيم من العصبة التي سرقت ناقة ارجل من مزينة ، وقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال لسيدهم ابن أبي بلتعة : أما والله لولا أني أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم ، حتى أن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه لحل له ، لقطعت أيديهم ، ثم أردف : وايم الله إذا لم أفعل ذلك لاغرمنك غرامة توجعك .. يا مزني ، بكم اريدت منك ناقتك ؟ قال : باربعمائة . قال عمر لابن أبي بلتعة : اذهب فاعطه ثمانمائة !!

هاتان حادثتان واضحتا الدلالة على أن « المجرم » « لا يؤخذ بذنبه حتى ينظر الحاكم أولاً في دوافع الجريمة ، فيزنها بميزان الحق والعدل ، ويبحث عن المسؤول الحقيقي فيها ، فيوقع العقوبة عليه . وقد كان المسؤول هنا هو السيد الذي يمثل الجماعة أو يمثل الملاك ! بينما اعفي المجرم من العقاب ، لأنه اعتبر واقعاً تحت ضغط الضرورة التي تغلب الإنسان على نفسه وتدفعه إلى الانحراف » [٧٤] .

---

(٧٣) ابن الجوزي ص ٧٩ .

(٧٤) محمد قطب : قبسات من الرسول ، ط ١ ص ١٥٧ .

ويوماً كتب الحجّاب إلى عمر بن عبد العزيز يطلبون كسوة لبيت الله الحرام – اسوة بما كان يفعل الذين سبقوه – فكتب إليهم : إني رأيت ان اجعل ذلك في أكباد جائعة ، فإنه أولى بذلك من البيت ! ! (٧٥).

* * *

ترى هل الحق عمر ، بسياسته السخية هذه على الجماهير ، أذى ببيت المال ، أو اصاب خزينة الدولة بعجز مريع ، وكسر لا يجبر ؟! أم انه أعاد (المالية) إلى ما يجب ان تكون عليه ، وأحدث توازناً مكيناً بين موارد الدولة ومصارفها ؟ الوضعيون والعلمانيون ليس بمستطاعهم تصور أن عالم الاقتصاد يمكن أن تحكمه القيم والمثاليات ، وإلا تعرض للتصدع والانهيار .. انهم يعتقدون أساساً ان تضحية كهذه بمصالح الخزينة المركزية لصالح جماهير الأمة، والغاءً كهذا لكثير من الضرائب التي كانت تشكل موارد دفاقة تصب في بيت المال ، من أجل نشر الدعوة ، ورفع شعار (الهداية لا الجباية) ، لا يمكن إلا أن ينتج اختلا لا في السياسة المالية، وتقلّصاً مريعاً في مواردالدولة ، ومن ثم عجز تام إزاء ما يستجد من حاجات. وهذا الاعتراض – يقول الندوي « هو حجة الثائرين على الدين والمعارضين لتطبيق الاحكام الإسلامية على النظم والحكومات ، والدعاة إلى فصل الدين عن السياسة في كل مكان » (٧٦) . ولنستمع إلى أحد المستشرقين يعبر بوضوح عن وجهة النظر الوضعية العلمانية هذه : « لا ريب في أن سياسة عمر بن عبد العزيز لم توقظ إلا آمالاً لم تستطع الحكومة تحقيقها ، فقد كانت الحال تتطلب علاجاً آخر غير تلك السياسة التي سار عليها عمر بن الخطاب (!!) ففي العراق أنضبت الأعطيات السنوية بيت المال بعد أن تأثرت موارده تأثراً محسوساً من جراء الغاء الجزية في خراسان . وهكذا اعقبت تلك الفوضى في الشئون المالية بعد موت عمر بن عبد العزيز

---

(٧٥) ابن الجوزي ص ٧٦ .

(٧٦) الندوي : رجال الفكر ص ٤٩ .

سياسة خراجية أقصى ما تكون جوراً وعسفاً »[77] . ويقول (فان فلوتن) في مكان آخر ، معززاً وجهة النظر هذه «لم تكن غلطة عمر بن عبد العزيز سوى رجعيته ومحافظته الدينية وتمسكه الشديد بالنظام الذي سنه عمر بن الخطاب الذي كاد يقتفي أثره لما كان يكنه له في أعماق نفسه من الاحترام والاكبار والذي لم يكن إلا صورة صادقة منه ، رغم ما كانت تتطلبه الحالة من العدول عن ذلك النظام عدولاً تاماً !! »[78] .

وهناك الكثير الكثير ، مما سنذكر بعضه فيما بعد ، قاله المستشرقون والوضعيون تعليقاً على سياسة عمر المالية بالذات ، ليوحون للقراء والباحثين ن التئاماً بين الواقع والقيم لا يمكن ان يحدث ، وان تكاملا بين برامج الإسلام ومصلحة دولته المالية يستحيل ان يوجد .. وكل ما قاله رفاق فان فلوتن ليس إلا صدى لهذا الهراء ، والحكم بالظن ، والتخمين ، وعدم استكمال الوقائع التاريخية المدروسة ، وهل يغني الظن من الحق شيئاً ؟ ومن ثم فإننا ننتقل الآن، وبسرعة ، إلى جانب الحق نفسه ، الذي لا يقوم بحث تاريخي إلا به ، ونلقي نظرة ـ أوسع مدى ـ على وقائع التاريخ ، لنرى بوضوح زيف ادعاءات كهذه لا رصيد لها من تلك الوقائع .

صحيح أن عمر بن عبد العزيز رفع شعار الهداية لا الجباية ، وسدّ كثيراً من موارد الدولة غير المشروعة ، وانفق بسخاء على جماهير المسلمين ، وكتب إلى عامل له ، تخوف من سوء عاقبة انتشار الإسلام في أهل الذمة « انه يسره ان يحرث الأرض ويأكل من عمل يده إذا اسلم أهل الذمة كلهم ، فتنقطع الجزية ، وتعجز مالية الدولة عن كفالته »[79] . إلا أن الخليفة لم يرتجل أبداً خطوة خطاها في يوم من الأيام ، انه ـ كمسؤول عن دولة ، فضلاً عن كونه مسؤولا عن أمة ـ كان يحسب حساباً لكل خطوة يخطوها ، ويضع الضمانات

---

(٧٧) فان فلوتن : السيادة العربية ص ٥٨ .

(٧٨) المصدر السابق ص ٥٩ .

(٧٩) الندوي : رجال الفكر ص ٤٩ .

والممهدات لكل سياسة يعتزم تنفيذها ، انه كخليفة راشد ، ذكي ، حاد البصيرة ، يعرف يقيناً ان ارتجالا كهذا سوف يعرض مصالح الدولة ، بل وجودها ذاته للخطر ، وانه لا بد لدرء هذه الأخطار من ايجاد برنامج عملي يضمن للدولة بقاءها واستمرارها ونموها وقابليتها على تأدية واجباتها تجاه الأمة وتجاه العالم كله .. انه كأي خليفة راشد آخر ، كان يضع أمام الأمة ومسؤوليها الآفاق التي يجب ان يتحركوا إليها ، لأن الإنسان مشدود دائماً إلى واقعه الراهن ، والأرض التي ولد عليها ، ولا بد – لتحريكه إلى الامام – أن توضع نصب عينيه ، وفي مدى رؤياه ، معالم هذه الآفاق .. لكن هذا لم يكن يعني أبداً – عند اي خليفة مسلم – أي نوع من الاتكالية أو الزهد الإداري الذي يحيل الدولة إلى جهاز عاطل ينتظر صدقات المحسنين .. هذه هي الصورة المشوهة ، القلقة ، التي يريد المستشرقون والوضعيون أن يعرضوها عن الخلافة الراشدة : ان كلاً من هؤلاء الخلفاء كان يتمتع بحسن نية ، وتقوى شديدة ، ورغبة عميقة – في نشر الإسلام وخدمة أبناء الأمة ، ولكنهم – من جهة أخرى – كانوا يفتقدون البصيرة والذكاء والحدس الإداري الذي يمكنهم من احداث توازن بين مصلحة الدولة ومصلحة الشريعة ومصلحة الأمة وهذه الترهات لا رصيد لها من الواقع ، لأن كل خليفة من هؤلاء كان يمتلك إلى جانب ورعه وتقواه وحرصه : ذكاءاً نادراً ، وحدساً دقيقاً ، وبصيرة نافذة تخرج بالدولة من أشد الأزمات ظلمة وأكثر المشاكل تعقيداً ، وإلا لما كان عمر بن الخطاب قد أرسى قواعد أضخم جهاز إداري في قلب الصحراء التي لم تعرف عن الإدارة ، والأجهزة المركزية ، من قبل إلا لماماً .. ولما كان أبو بكر الصديق قد أرسى دعائم وحدة من مئات القبائل التي كانت تحكمها تقاليد قرون طويلة من الفوضى والانفصال والتمزق .. ولما استطاع عثمان بن عفان الوقوف ازاء أشد المخاطر الدولية عنفاً ، حيث تعرضت الدولة الإسلامية لأكبر مؤامرتين من جانب الفرس والروم استهدفتا ضرب منجزات الخليفتين السابقين وها هو عمر بن عبد العزيز يتخذ من اجراءات (الموازنة) ما يدل على هذا ،

وينفي ترهات الوضعيين والعلمانيين .

لقد فتح عمر – أولاً – باب التجارة الحرة في البر والبحر واعلن « أما البحر فإنا نرى سبيله سبيل البر (الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره،ولتبتغوا من فضله) فاذن فيه ان يتجر فيه من شاء . وأرى ان لا نحول بين أحد من الناس وبينه ، فإن البر والبحر لله جميعاً سخرهما لعباده ، يبتغون فيهما من فضله ، فكيف نحول بين عباد الله وبين معائشهم ؟! » (٨٠) . فعن طريق حرية التجارة ، وفي المرحلة التاريخية التي كان العالم يجتازها ، أقر عمر ابن عبد العزيز اسلوباً حيوياً لتنمية الثروة والدخل القومي ، ورفع مستوى المعيشة ، وتهيئة شتى صنوف البضائع بارخص الأسعار . وعلى الرغم من أن عمر ألغى ضرائب المكوس التي كان يمكن ان تنمو عن طريق حرية التجارة إلا أن الدولة كانت تعتمد على طريق آخر لجني ثمار هذه السياسة : الزكاة تلك الضريبة التي لم يتهاون عمر في جبايتها وتنظيمها وتوزيعها وفق ما أمر الله به ورسوله . وقد جاء في احدى تأكيدات عمر عنها « ... ان الله فرضها وسمّى أهلها .. فتؤخذ ، لا يحابى بها قريب ولا يمنعها أهلها ، ثم تجعل إلى مرضيين من أهل الإسلام ، فيجعلونها حيث أمرهم الله ، يحملهم الإمام من ذلك على ما حمّل ... » (٨١) .

ومقدار (٢,٥٪) من أصل رأس المال يشكل دخلاً محترماً في مجتمع يسوده النشاط التجاري والتنمية المستمرة للثروة . ولم تكن ضريبة الزكاة هذه تجبى ارتجالاً ، وإنما كان لها عمالها واجهزتها الدقيقة . ومن هنا يمكن ان نتصور مقدار الدخل الذي ستجنيه الدولة من هذا المورد ، ونتوقع النتيجة المحتمة لرفع مستوى الطبقات الفقيرة ، ومنها قيمة شرائية تؤثر بدورها على الدورة العامة لنمو الدخل القومي في الدولة الإسلامية ، وسيؤدي هذا – كما سنرى – إلى نشر الرفاهية ، وارتفاع مستوى المعيشة ، وانعدام الفقر ومن ثم إلى إنماء الدولة الإسلامية .

(٨٠) ابن عبد الحكم ص ٩٣ – ٩٤ ، ٩٨ .

(٨١) المصدر السابق ص ٩٦ – ٩٧ وانظر ابن سعد ٢٧٧ .

وقد عمل عمر — ثانياً — على اتباع سياسة زراعية سليمة ، فأشار على عماله بأن الاهتمام بالاصلاح والاعمار ، واحياء الأراضي ، واقامة مشاريع يجب ان يسبق التأكيد على الجباية . يتضح هذا من كتاب إلى عامله على الكوفة حيث يقول « ... لا تحمل خراباً على عامر ، ولا عامراً على خراب . انظر الخراب فخذ منه ما أطاق واصلحه حتى يعمر ، ولا يؤخذ من العامر إلا وظيفة الخراج ، في رفق وتسكين لأهل الأرض »(٨٢) . كما يتضح من كتاب آخر إلى أحد عماله يطالب منه ان يعتمد على ما لديه من فائض في تقديم سلف نقدية لمزارعي أهل الذمة ، كي يتقووا على أعمالهم الزراعية(٨٣) . وكتب إليه عامله على البصرة يعرض عليه طلب أهل البصرة في حفر نهر لهم ، فاذن له عمر ، ومن ثم قام العامل بحفر النهر المعروف باسمه (نهر عدي)(٨٤) . كما أمر عمر بني أمية ان يقيموا في ضياعهم ويعملوا على اصلاحها(٨٥) .

وقد سبق وان رأينا كيف ان عمر عزز سياسته هذه باعطاء ضمانات للمزارعين وعدم ارهاقهم بضرائب خراجية ثابتة على أعناقهم ، سواء أكان المحصول جيداً أم رديئاً . ومن السهل ان نتنبأ بنتائج سياسة كهذه تؤكد على تنشيط الزراعة واستغلال الطاقات الانتاجية ، وتطمين المزارعين . فلا ريب أن ضريبة الخراج ، التي نمت بنمو النشاط الزراعي ، كانت تشكل المورد الرئيسي الآخر للدولة ، إلى جانب الزكاة ، خاصة بعد أن أوقف عمر الغزو وما يعقبه من غنائم ، وبعد أن ألغى ضريبة الجزية عن اعناق المسلمين من غير العرب ،وعن أولئك الذين يعلنون اسلامهم حديثاً. ومن ثم فان حصانة عمر جعلته يلقي ثقلاً كبيراً على ضريبة الخراج ، ولا يتهاون بأي شكل من الأشكال إزاء أولئك الذين تخلوا عن دفع هذه الضريبة من بني أمية أو المقربين إليهم

(٨٢) الطبري ٦-٥٦٩ .

(٨٣) ابن عبد الحكم ص ٦٨ وهوامشها .

(٨٤) البلاذري ص ٤٥٤ .

(٨٥) ابن عبد الحكم ص ١٦٤ — ١٦٥ .

خاصة ، ومن العرب عامة ، واعلن أن « أرض الخراج هي في الأصل ملك مشترك بين المسلمين ، ولكنها تركت بأيدي المغلوبين لقاء مبلغ يدفعونه للأمة الإسلامية وهو الخراج . ولذلك فلا يجوز لأي شخص إبطال هذا الايجار ، فإذا أصبحت الأرض الخراجية في ملك مسلم فعليه ان يؤدي عنها حق الأما وهو الخراج . وإذا اسلم ذميّ ، اعفي من الجزية ، وله أمواله المنقولة ، أمة أرضه فاما ان يدفع عنها الخراج ، أو يتركها لغيره فيدفع زارعها الجديد الخراج عنها ، أما هو فيستطيع الذهاب أنى شاء »[٨٦] . وقد اعتبر عمر سنة ١٠٠ هـ نقطة البدء في تطبيق قراره ، وعندما لاحظ رغبة العرب في الاستحواذ على الأراضي الخصبة ، مما يعني توسع الملكية الكبيرة على حساب الملكيات الصغيرة وما يثيره ذلك من شكوى ونقمة ، حاول الحد من هذا الاتجاه ، تلافياً لما ينجم عنه من اضطراب ، وسعى إلى ايقاف بيع الأراضي الخراجية[٨٧] . ويقول (فلها وزن) بهذا الصدد : نستطيع ان نصدق ان عمر بن عبد العزيز بدأ بمقاومة ما قد وقع فيعهد من تقدمه من الخلفاء ، من تمزيق صوافي الدولة (أي أراضيها التابعة لها) وانتقاص الممتلكات الشائعة للمسلمين ، وذلك بأن منع بيع أرض الخراج . أما أن يكون عمر قد حافظ على جملة أرض الصوافي ولم يهب شيئاً منها لأحد فيمكن ان نفترضه مطمئنين[٨٨] .

وفي الأندلس قام عاملها السمح بن مالك الخولاني باتباع سياسة تتمشى وعدالة عمر ، وبتكليف منه ، وذلك بأن سعى لاعادة تنظيم أراضيها بقصد فرض الخراج . وكان العرب هناك قد احتفظوا بالضياع والعقار المنقول ونحوه مما لم يكن قد قسم من قبل . فقسمه السمح بالقرعة على الأصحاب ، بعد ان ضم جزءاً من كل شيء ثابت ومنقول إلى بيت المال[٨٩] .

---

(٨٦) عبد العزيز الدوري : دراسات ص ٣٤ - ٣٤ ، ابن عبد الحكم ص ٩٤ ، ٩٩ .

(٨٧) الدوري : دراسات ص ٣٣ - [illegible] ، ابن عبد الحكم ص ٩٩ .

(٨٨) الدولة العربية ص ٢٨١ .

(٨٩) فلهاوزن : الدولة العربية ص ٢٨٥ — ٢٨٦ وهوامشها .

وهكذا تمكن عمر ، بتأكيده على الضريبة الخراجية ، وحمايته لأراضي الدولة من التفكك والضياع ، تمكن من احداث توازن مالي منتظم دعى فلها وزن إلى القول بأنه : لما كانت الأرض المزروعة هي أهم ما يدفع عنه الخراج فان اسقاط الجزية عن الداخلين في الإسلام ، لم يكن في الحقيقة – من جانب بيت المال – تضحية كبيرة . وهكذا أمكن أن يفي بيت المال بحاجة الدولة الإسلامية من غير مشقة(٩٠) . هذا فضلاً عن ان عمر أحدث توازناً منطقياً في مسألة الجزية نفسها ، حيث جعل الحد الأدنى للقادرين على دفعها عشرة دنانير(٩١) . إزاء كفالة الدولة للضعفاء منهم ، ورفع الجزية عمن اسلم ، وفضلاً عن تأكيده على الخمس والفييء مما يشكل مورداً مهماً من موارد الخزينة(٩٢)

كما أن عمر – ثالثاً – تمكن من توفير مبالغ طائلة لمالية الدولة ، كانت الحكومات السابقة تستنفدها في القضاء على الفتن والمنازعات الداخلية والحروب فإن أية حكومة سابقة كانت – على سبيل المثال – ستشهر السيف بوجه ثورة الخوارج التي قادها بسطام اليشكري (شوذب) ، وعلى الرغم من أنها كانت ستضمن النصر على الأغلب ، لتفوق قوتها على قوة الخوارج ، إلا أن ذلك كان سيكلفها الكثير الكثير من نفقات الحرب : ميرة وعتاداً ووسائل نقل ورجالاً .. ولكن عمر بلجوئه إلى الأسلوب السلمي تجاه الخوارج ، وفر على الدولة ولا شك مبالغ كبيرة .. وهكذا ، بالنسبة لكل ما كان يمكن ان يحدث من ثورات تتطلب حلاً حربياً ، ومن ثم مصاريف باهظة . إذ تمكن عمر بسياسته وبعد نظره ان يوحد الأمة الإسلامية بمختلف كتلها وأحزابها ، ويبعدها عن استنفاد طاقاتها في الصراع الداخلي . وأغلب الظن ان ايقاف مصروف ضخم كهذا لم يكن ليقل في حجمه عن المورد الذي كانت الدولة تستمد منه من عمليات الفتح والتوسع . وهكذا فإننا نجد ظاهرة التوازن والمقابلة المالية

---

(٩٠) فلها وزن : الدولة العربية ص ٢٧٢ .

(٩١) فرتن : أهل الذمة في الإسلام ص ٢٦٢ .

(٩٢) ابن عبد الحكم ص ٩٦ – ٩٧ .

واضحة في كل ناحية من نواحي السياسة الاقتصادية التي اختطها عمر بن عبد العزيز .

ولكن الأهم من هذا وذاك ، هو أن عمر أوقف بشكل جاد أعمال الابتزاز التي كان يتعرض لها بيت مال المسلمين ابتداء من الخليفة وحتى صغار الجباة ، وما بين هذين من حشد هائل من العمال والموظفين . أما الآن فقد غدا بيت المال ، سواء في المركز أم في الولايات ، محاطاً بأيدٍ أمينة لتحرسه وتسهر عليه ، وتقطع الأيدي التي تحاول ان تمتد إليه لتختلس منه بليل . ان هذا الحرص وهذه الحماية تفسر لنا ، فضلاً عن العوامل الأخرى ، ذلك التوازن العجيب بين موارد الدولة ومصارفها الكثيرة . ولا مجال هنا لاستعادة صور ذلك الحرص النادر على أموال الأمة ، والمراقبة الدقيقة لتصرفات العمال ، إذ يمكن متابعتها في غير هذا المكان . ونكتفي بايراد الإشارة التي قدمها (فلها وزن) في كتابه عن الدولة العربية حيث يقول « عني عمر بالحيلولة بين الولاة وبين أن يكون همهم الأول من مناصبهم جمع الأموال لأنفسهم والأغلب ان ذلك عوض النفقات التي اقتضتها اصلاحاته : ضعفين ! ! »[٩٣] . ولم يكتف عمر باحاطة بيوت الأموال بهذه الحماية ، بل أعاد تنظيمها فنياً بشكل يتيح للموارد ان تنأى عن الفوضى والاضطراب والتداخل ، فجعل لكل من الخمس والصدقة والفيىء ، بيوت أموال خاصة بها ، منفصلة عن بعضها[٩٤] .

ثم ان عمر بن عبد العزيز — رابعاً — اوجد ، بوقفه للفتن والمنازعات والعصبيات القبلية والحروب ، واجتثاثه كل أنواع الظلم من جذورها ، أوجد مناخاً رائعاً من الأمن والاستقرار ، هيأ لأفراد المجتمع الإسلامي بكافة فئاته العمل المستمر المطمئن النشيط ، معتقدين ان نشاطهم هذا سوف لن تضيعه رياح الفتن والمنازعات ، ومضاعفين نشاطهم اعتماداً على حماية دولة قوية متمكنة ، وخليفة يقظ ، يتتبع ببصيرة نافذة ، كل صغيرة وكبيرة يمكن ان

(٩٣) الدولة العربية ص ٢٩٦ .

(٩٤) ابن سعد ٥-٢٩٥ .

تلحق بنشاط أحد من المسلمين،وحقه وأمنه ، أيما أذى أو خوف من المستقبل. ان عدلاً كهذا ، وامناً واستقراراً ينشران جناحهما على كل أقاليم الدولة ، لا بد ان تؤتي أكلها — بإذن الله — للجميع : أمة وحكومة ودولة .. فيزداد النشاط ويتفجر الوازع الذاتي بالمعطيات ، وينمو الدخل القومي ، وتجد اجهزة الدولة مواردها الكافية ، كي تعود بدورها لتوزعها على نقاط الضعف في جسد الأمة ، وترفع مستواها إلى الأفق الحر الكريم الذي يرجوه لكل المسلمين خليفة راشد يرى فيهم جسداً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

* * *

ولا يمضي سوى وقت قصير على تطبيق هذا البرنامج الاقتصادي العادل المتزن ، حتى يجد المسلمون أنفسهم في رفاهية تضم الجميع ، وتجد الدولة ماليتها قد استندت إلى موارد نامية ، متطورة ، مضمونة « واطمأن الناس في كل رقعة من رقع هذه المملكة الواسعة ، حتى عز وجود من يستحق الزكاة ويقبلها واصبحت هذه مشكلة للأغنياء وأصحاب الأموال تتطلب حلا سريعاً »[95] .

وانظروا : ها هو يحيى بن سعيد ، عامل الدولة على صدقات (زكاة) افريقية يقول « بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات افريقية فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً ، ولم نجد من يأخذها مني ، فقد أغنى عمر ابن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بها رقاباً فاعتقتهم ، وولاؤهم للمسلمين »[96] وهذا هو أحد أحفاد زيد بن الخطاب يعلن « إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفاً ، فذلك ثلاثون شهراً ، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء ، فما يبرح حتى يرجع بماله يتذكر من يضعه فيهم ، فما يجده ، فيرجع بماله . قد اغنى عمر بن عبد العزيز

(٩٥) الندوي : رجال الفكر ص ٤٤٩ .

(٩٦) ابن عبد الحكم ص ٦٩ .

الناس » [٩٧] .

وتتوالى الشهادات عن العدل والكفاية والرفاهية التي عمت الجميع .. شهادات من جهات شتى طرحها موظفون من عصر عمر ، وشهود عيان ، ومواطنون .. ودونها رواة ومؤرخون ثقاة .. وأكدها الباحثون في شتى العصور ولنستعرض بعضها فحسب ، فربما فيه الكفاية للرد على مستشرقين من أمثال دوزي وفان فلوتن وموللر وغيرهم من رواد المدرسة العلمانية في التاريخ ، أولئك الذين يرون الدين والتقدم على طرفي نقيض . واسمعوا ما يقوله الشهود :

ابن كثير : كان منادي عمر ينادي كل يوم : أين الغارمون؟! أين الناكحون أين المساكين ؟ أين اليتامى ؟ حتى أغنى كلا من هؤلاء[٩٨] .

ولي عمر سنتين ونصفاً ، فملأ الأرض عدلاً ، وفاض المال حتى كان الرجل يهمه لمن يعطي الصدقة ؟ [٩٩] .

السيوطي : قال عمر بن أسيد : والله ما مات عمر حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون ، فما يبرح حتى يرجع بماله كله ، قد أغنى عمر الناس [١٠٠] .

ابن سعد: أخرج عمر ثلاث اعطيات لأهل المدينة في سنتين وخمسة أشهر[١٠١].

وقال متحدث من الكوفة : كل يوم، كان يجيىء خيرٌ من عمر ! ![١٠٢]

ابن الجوزي : قدم على عمر بعض أهل المدينة فجعل يسأل : ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا وكذا .. فأجابوه : قاموا منه يا أمير المؤمنين ، وأغناهم الله . وكان من أولئك المساكين من يبيع الحطبه للمسافرين ، فالتمس ذلك منهم بعد فقالوا : قد اغنانا الله عن بيعه بما

---

(٩٧) ابن عبد الحكم ص ١٢٤ – ١٢٥ .

(٩٨) البداية والنهاية ٩-٢٠٠ .

(٩٩) المصدر السابق ٩-٢٣٩ .

(١٠٠) تاريخ الخلفاء ص ١٥٦ .

(١٠١) طبقات ابن سعد ٥-٢٥٥ .

(١٠٢) المصدر السابق ٥-٢٧٦ .

بما يعطينا عمر بن عبد العزيز [١٠٣] .

وكتب إليه بعض ولاته ان الناس لما سمعوا بولايتك تسارعوا إلى أداء زكاة الفطر ، فقد اجتمع من ذلك شيء كثير ، ولم أحبّ أن احدث فيها شيئاً حتى تكتب إلي برأيك ، فأجابه : ما حبسك إياها إلى اليوم ! أخرجها حين تنظر في كتابي [١٠٤] .

وكتب ابن جحدم ، عامل صدقاته : انه كان يجمع الصدقات من أحياء تغلب ثم يقسمها على فقرائهم حتى ليصيب الرجل الفريضتين أو الثلاث ، فما يفارق الحي وفيهم فقير [١٠٥] .

ابن عبد الحكم : كان رسول عمر يقدم البصرة ، فإذا سُمع به تلقاه الناس ، فليس يقدم إلا بزيادة في عطاء ، وقسم ، أو خير يأمر به ، أو شر ينهى عنه ، فلا يزال الناس يشيعونه حتى يدخل المسجد فيقرأ ذلك الكتاب حتى قدم بريد نعيه ، فلقيه الناس كما يلقونه ، فإذا هو باك يخبر بموته فبكا الناس لبكائه لعظيم ما نزل بهم ، ولعظيم مصيبتهم [١٠٦] . وكتب إلى عامله على الكوفة : كتبت تذكر انه قد اجتمعت عندك أموال بعد اعطية الجند ، فاعط منهم من كان عليه دين في غير فساد ، أو تزوج فلم يقدر على نقد . فكتب إليه العامل : انه قد بقي عندنا بعد ذلك ! ! فأجابه عمر : أن قوّ أهل الذمة فانا لا نريدهم لسنة ولا لسنتين ! ![١٠٧].

وكتب إليه عدي بن أرطأة عامله على البصرة : انه قد أصاب الناس من الخير خيرٌ حتى لقد خشيت ان يبطروا . فأجابه عمر : ... مر من قبلك ان يحمدوا الله ! ! [١٠٨] .

---

(١٠٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٧٦ — ٧٧ .

(١٠٤) المصدر السابق ص ٨٣ — ٨٦ .

(١٠٥) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٨٦ — ٨٧ .

(١٠٦) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٧ .

(١٠٧) المصدر السابق ص ٦٨ .

(١٠٨) المصدر السابق ص ٦٩ .

وخطب عمر يوماً فقال « .. وقد أعطاني من ذلك ، وله الحمد في عاجل الدنيا ، وجماعة من الشمل وصلاح ذات البين وسعة في الرزق ، ونصر على الأعداء ، وكفاية حسنة ، حتّى أغنى لأهل كل جانب من المسلمين جانبهم ، ووسع عليهم الرزق . ولا يرى أهل كل ناحية إلا أنهم أفضل قسماً مما بسط الله لهم من رزقه ونعمه ، من أهل الناحية الأخرى » (١٠٩) .

والتقى يوماً بمسافر من أهل المدينة فسأله عن حالها فأجاب : إني تركتها والغني فيها موفور والعائل مجبور (١١٠) .

عبد العزيز الدوري : نجح عمر بن عبد العزيز في اجراءاته ، لأنه وضعها في إطار المفاهيم الإسلامية ، وقد ثبّتت الخطوط التي رسمها اسس تحديد الضرائب ، ومنحت مفاهيمها (١١١) .

فلها وزن : أما ما يزعمه البعض (مثل موللر) من أن أموال الدولة في عهد عمر بن عبد العزيز قد تلاشت ، كما يزول الشيء باشارة سحرية ، وان ما يتحصل من الخراج قد انحط دفعة واحدة ، فاني لا أريد هنا ان اتعرض للكلام فيما إذا كان ذلك الزعم أكثر من أن يكون نتيجة خطأ ، ولكنه على كل حال زعم لا يمكن ان يكون صحيحاً بوجه من الوجوه ، وذلك ان الأحوال المالية كانت سيئة في الأيام المضطربة لعهد عبد الملك والحجاج ، أما في عهد عمر فقد عادت إلى حالة الصحة(١١٢).

* * *

ولنرجع معاً صفحات قليلة إلى الوراء ، وننظر إلى تلك الضمانات المالية واسعة النطاق ، التي كفل بها عمر فئات عديدة من أبناء الأمة الإسلامية ..

(١٠٩) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٧٧ .
(١١٠) المصدر السابق ص ١٣١ .
(١١١) دراسات ص ٣٣ — ٣٤ .
(١١٢) الدولة العربية ص ٢٩٦ .

إلى الأموال الكثيرة التي أمر عماله ان ينفقوها لرفع المستوى المعاشي لطبقات الأمة ، وإلى المبالغ التي خصصت لمشاريع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإلى هذه العناية وهذا الحرص على أن تبلغ كفالة الدولة كل أبناء الأمة عرباً وغير عرب وغير مسلمين ، وكل العاطلين والمرضى والمعتقلين والمسافرين والمدينين والفقراء وأبناء السبيل وطالبي الزواج وحتى الأطفال ؟! ثم لنطلع – قبل ذلك – على رسالتي عمر إلى أبي مجلز وعقبة بن زرعة الطائي حيث أعلن فيهما انه سيرهما بالمبالغ اللازمة من ميزانية الدولة إذا لم يكف خراج اقاليمهم لتغطية المصاريف المحلية ... ترى .. هل ان هذه التكاليف المالية التي ألقى عمر عبئها على الميزانية المركزية ، وهذه المشاريع الواسعة ، كانت ستتحقق لو كان هنالك أيّ عجز تعاني منه ميزانية الدولة ؟! إلا يدل هذا التوسع من قبل الخليفة على انه يعتمد على ميزانية مستقرة ، غنية ، مضمونة الموارد ، بحيث يتقدم إلى أمته وعماله – بثقة ويقين – بكل هذه الأنواع الفريدة العجيبة من الضمانات الاجتماعية ؟ ثم كيف يمكن تفسير تناقص خراج السواد – على سبيل المثال – في عهد الحجاج إلى أربعين مليون درهم ، بينما كان قد بلغ في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مئة مليون ؟! (١١٣) ومن ذا يقول ان عمر بن عبد العزيز لم ينتهج نهج ابن الخطاب ؟ كان يجب – وفق منطق فلوتن ودوزي وموللر وسائر الوضعيين – ان تفيض خزائن الحجاج ذهباً ، وان تخلو خزائن العمرين ، وتكنس ، ويرش عليها الماء !! فما هو السر في حدوث هذه النتيجة المعاكسة سواء في عهد ابن الخطاب أم في عهد حفيده إن لم يكن العدل والتنظيم والايجابية ؟! ثم أليس من الكذب الذي يخجل منه الأميون – فضلاً عن العلماء المؤرخين – ان يأتي مستشرق متخصص – كفان فلوتن – فيلقي نظرة جانبية مبتورة ومتعمدة على بعض وقائع التاريخ ، ويصدر حكمه بأن سياسة عمر بن عبد العزيز المالية هذه ، لم تكن سوى (غلطة) ارتكبها بدافع من « رجعيته ومحافظته الدينية ، وتمسكه الشديد بالنظام الذي سنه عمر

---

(١١٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٣٣٢ .

ابن الخطاب .. وان الحال كانت تتطلب علاجاً آخر ، غير تلك السياسة التي سار عليها عمر بن الخطاب » ؟.. ليس لهذا الكذب ، وهذا الالتواء في فحص النصوص التاريخية إلا الدافع الذي عودنا المستشرقون عليه في جل أعمالهم . التعصب ضد الإسلام متمثلاً بمبادئه وقادته ، ودوله وحضارته ، والعمل الدائب — على حساب التاريخ والحقيقة — لصرف اذهان المسلمين عن أية دعوة ترى في شد الوقائع واليوميات إلى القيم والأهداف التي طرحها القرآن والسنة : الطريق الوحيد للخلاص .. لأن أية دعوة كهذه ستجابه — كما يؤكد المستشرقون بالفشل ذاته الذي شهدته محاولة عمر بن عبد العزيز ! !

وليس لنا — إذن — ان نصب اللوم على فان فلوتن وحده ، وهناك كثيرون غيره ، ساروا على ذات المنهج العلماني في معالجة قضايا التاريخ الإسلامي ، فوقعوا في أخطاء ما أنزل الله بها من سلطان . حتى لقد استفزت هذه الأخطاء أحد المستشرقين أنفسهم فانبرى لاعادة تقييم منهج عمر الاقتصادي ووضع الأمور في أماكنها ، والرد على هذه الأخطاء . من أجل ذلك نحب ان نختتم هذا الفصل بحوار طريف بين المستشرقين أنفسهم حول منجزات عمر الاقتصادية لكي تستكمل الصورة كافة جوانبها ، ولكيلا يبقى هناك ظل قاتم دون ان تسلط عليه الأضواء .

يقول فلهاوزن : كان اصلاح الناحية المالية أوّل ما اتجهت إليه همة عمر ، ولكن ليس من السهل ان نتبين بوضوح نوع اصلاحاته في ميدان نظام الخراج ، والأراء التي جاء بها في هذا الشأن (الفرد فون كريمر) وتابعه اوجست موللر مشوبة بأخطاء حقيقية (١١٤) .

ماذا يقول كريمر ويتابعه موللر ؟ انهما يقولان ان ذهن عمر بن عبد العزيز كان « بحكم سلطان الدين عليه ، بعيداً عن كل ادراك لما تقتضيه الحكمة السياسية وانه وان كان لا يمكن النزاع في ان بعض ما وضعه من نظم قد أدى إلى تقوية روح الإسلام في ذاته تقوية كبيرة ، فإن كل ما فعله يكاد يكون قد ساعد في

(١١٤) الدولة العربية ص ٢٦٣ .

الجملة على افساد نظام الدولة من أساسه ، بعد أن كانت قد أصبحت دولة دنيوية . والرومان ، وهم أكفأ الشعوب التي عرفها التاريخ في مسائل السياسة الكبيرة ، إنما قرروا المبدأ الذي قرروه عن علم وهو انه لا دولة يمكن ان ان تعيش إلا بالوسائل التي أدت إلى قيامها . أما عمر بن عبد العزيز فقد انصرف عن الأصول المتمشية مع الواقع ، والتي وضعها خلفاء الأمويين بعد عصر معاوية ، وأراد ان يستعيض عنها بتحقيق مبادىء مثالية استمدها من القرآن والحديث ، حتى ولو كان هذا العمل الخليق بالثناء لا يمكن تنفيذه إلا على أساس علم غير كامل بالظروف الواقعة (!!) ولكن عمر ، وهو الخليفة الورع ، كان متأثراً بمبادىء حاشيته الدينية إلى حد أنه لم يقم حتى بمحاولة اصطناع شيء من العقل عند تطبيق ما في القرآن من مبادىء كبرى على أحوال هذه الدنيا الناقصة ، وكان تفكيره الساذج يقول له ان الله يريد كذا وكذا ، وانه إذا كان الله يريد ذلك فمن الممكن تنفيذه » .

وبعد أن يستعرض موللر – نقلاً عن كريمر – اجراءات عمر بشأن الجزية والخراج والاعطيات مما الحق ببيت المال خسائر فادحة لا تعوض !! يقول « ... وإلى جانب هذه الاجراءات التي أضرّت ببيت المال أكبر الضرر جاء أمر آخر أصدره عمر ، وقد أوحى به إليه احساس انساني بالعدالة ، لكن لم يكن موفقاً من ناحية عملية ، وهو يقضي برد جميع الأموال التي ابتزت من الرعايا ظلماً إلى أصحابها . ولا نعرف ان كان هذا قد وقع مقصوراً على أحوال فردية . ولكن أكثر العمال خيانة ما كان يستطيع ان يتمنى فرصة أكثر مواتاة من هذه الفرصة لانتهاب الخزانة من غير ان يناله عقاب »[١١٥] .

أترون ؟! حتى أكثر الاجراءات التصاقاً بمفهوم العدل الاجتماعي ، يفسرها موللر على انها فرصة مواتية للعمال الخونة في انتهاب الخزانة دون ان

---

(١١٥) فلهاوزن : الدولة العربية ، هامش ١ ص ٢٦٣ فما بعد نقلا عن كتاب موللر (تاريخ الإسلام في الشرق والغرب) جزء ١ ص ٤٣٩ فما بعد ، والذي نقله بتصرف عن كتاب فون كريمر المسمى (تاريخ حضارة المشرق) جزء ١ ص ١٧٤ فما بعد .

ينالهم عقاب. فهل سبق لنا — بعد اطلاعنا على برامج عمر الإدارية والاقتصادية — ان شهدنا ، ولو دليلاً واحداً على هذا الانتهاب من قبل العمال ؟ .. ولا نريد ان نستمر في النقاش ، وهذا فلها وزن نفسه يناقش هذه الصورة الثنائية المصطنعة في تقييم منجزات عمر الاقتصادية والاجتماعية .

وفلها وزن يتبع في هذه المناقشة اسلوباً أكثر دقة وعلمية ، واحرص على الموضوعية من سائر المستشرقين الذين عالجوا الموضوع ، لولا انه يقع في خطأين أولهما خطأ عام ، هو خطأ منهج البحث الذي يسلكه الغربيون دائماً في دراسة التاريخ والفكر الإنساني لشتى الأمم والحضارات والشعوب ، وهو منهج يتمركز دائماً على التراث والفكر والمواضعات الأوربية الممزوجة بصبغة ودوافع مسيحية لا يمكن تجاهلها ، الأمر الذي أوقعهم دائماً في أخطاء يصعب تلافيها . وفلها وزن، عبر استعراضه وتحليله لتطور الأمور المالية حتى عهد عمر بن عبد العزيز ، فما بعد ، يقع في أخطاء عديدة ، بحكم التزامه هذا المنهج ، وعلى رأس تلك الأخطاء عدم ادراك طبيعة الارتباط بين الفقه الإسلامي المرن المتطور وبين الأسس العريضة والاطارات المفتوحة التي يضعها القرآن والسنة ، والتي أتاحت للفقهاء ورجال الفكر الإسلامي انشاء بناء فقهي مساير للتطورات الاجتماعية لا يدانيه بناء ، في الوقت الذي نقرأ فيه لفلها وزن عبارة كهذه : « من عادة فقهاء الإسلام دائماً أنهم ، إذا تقررت قاعدة ما شيئاً فشيئاً ، تحت تأثير الحاجات أو النزعات المتجددة حيناً بعد حين ، أرجعوها إلى البدايات الأولى وجعلوا لها صبغة مقدسة بردّهم إياها إلى سنة النبي وسنة الخلفاء الأولين »[١١٦] . ولم يشأ مترجم الكتاب[١١٧] . ان يدع اقوالاً كهذه تطلق على عواهنها ، فيعلق على هذه العبارة قائلاً « لا شك ان فيما يقوله المؤلف هنا — وفيما سبق — كثيراً من المبالغة ، لأن القواعد التي كانت جديدة في صورتها أو تفاصيلها ، لم تكن كذلك في اصولها ومصادرها الشرعية . وطبيعي ان يكون هنالك فرق

(١١٦) الدولة العربية ص ٢٧٣ .

(١١٧) الدكتور عبد الهادي ابو ريدة .

بين الصورة القانونية الفقهية للاحكام ، وبين صورتها في النصوص الأولى ، أو في السنة الأولى المأثورة عن النبي ﷺ ، أو بين الصور القانونية القديمة ، وبين القواعد العامة التي تتضمنها النصوص من القرآن أو السنة ، وهذا معروف في كل العلوم الإسلامية ، مما لا يجعل صنيع الفقهاء عملاً متكلفاً ، أو ادعاءاً من غير استناد إلى نص قرآني أو سنة نبوية ، أو إلى ما يؤخذ منها من طريق القياس » [١١٨] .

أما الخطأ الآخر لفلها وزن فهو خطأ شخصي . فمؤرخ بوزنه ، يبحث الأمور بهذه الدقة ، وهذا التتبع الرائع ، كان عليه ان يلمّ — على الأقل — بالمصادر الأساسية للموضوع . ذلك ان اعتماده يبدو منصباً على مصادر محدودة فحسب ، على رأسها الطبري والبلاذري وابن آدم (في كتابه عن الخراج) ثم ابن عبد ربه وابن عساكر — إلى حد ما — رغم كونه من المتأخرين . هذا في الوقت الذي لا يمكن فيه لأي باحث عن اجراءات عمر في شتى المجالات ان تتكامل الصورة لديه ، إلا باضافة مصادر أخرى أكثر أهمية وارتباطاً بالموضوع من المصادر آنفة الذكر — على أهميتها — مثل سيرة عمر لابن عبد الحكم وسيرة عمر لابن الجوزي ، وكتاب الطبقات لابن سعد ، وتاريخ خليفة ابن خياط . فضلاً عن اليعقوبي والمسعودي وابن الأثير وابن كثير وغيرهم . وهناك خطأ شخصي آخر يعود إلى عدم فهم المستشرق للنصوص فهماً كافياً [١١٩]

ونعود إلى مناقشة فلها وزن لكريمر وموللر . انه بعد استعراض وتتبع دقيقين لخطوط النظام المالي منذ عهد عمر بن الخطاب إلى عهد عمر بن عبد العزيز ، وبخاصة فيما يتعلق بالجزية والخراج ، وبعد مناقشة كثير من الأمور الفنية الخاطئة في هذا المجال ، والتي غدت بديهيات يتداولها المؤرخون [١٢٠] ،

---

(١١٨) الدولة العربية ، هامش ٢ ص ٢٧٣ ، وانظر كذلك مناقشة المترجم لنظرة فلهاوزن إلى الجزية ص ٢٦٧ — ٢٦٨ وهوامشها .

(١١٩) انظر على سبيل المثال ، المصدر السابق ، الصفحات ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ وهوامشها .

(١٢٠) انظر المصدر السابق ، الصفحات ٢٦٣ — ٢٩٤ .

بعد هذا يقول « على الرغم من أن أشياء كثيرة لا تزال غامضة [١٢١]، فإن ثمة شيئاً واحداً واضحاً إلى حد كبير ، وهو ان المؤرخ يجلب على نفسه السخرية إذا نظر إلى عمر نظرة استهزاء مقصود ، وهذا هو ما بدأه دوزي ، فأعطى بذلك الإشارة لغيره[١٢٢]... وليس من الضروري ، بطبيعة الحال ، ان يكون عمر قادراً على تحقيق كل ما اتجهت إليه نيته الطيبة ، فمثلاً يذكر بعض من لم ينصف أن الدليل الأكبر على عدم كفاءته السياسية انه ضيع الأموال . ولكنا قد عرفنا ، فيما تقدم ، حقيقة الأمر في ذلك [١٢٣]. وبعد أن يستعرض فلهاوزن اجراءات عمر العملية بشأن الجزية والخراج وموازنة المالية ، بالتأكيد على الضريبة الأخيرة يقول « ... وكذلك عني عمر بالحيلولة بين الولاة وبين ان يكون همهم الأول من مناصبهم جمع الأموال لأنفسهم ، والأغلب ان ذلك عوض النفقات التي اقتضتها اصلاحاته ضعفين[١٢٤] ... ومهما كان الأمر فان الاهتمام بالشؤون المالية ليس هو كل ما يعني الدولة (!!) ومن ذا الذي يكون عنده من الجرأة ما يجعله يستنكر على عمر أنه اسقط عن البربر الجزية جزية الأبناء – فقد كانوا يقدمون أبناءهم على سبيل الجزية – وانه خفف العبء عن نصارى نجران ، وانه عمل على حماية الرعية من العمال ، وانه حرص على ألا تكون ادارة الامصار مجرد وسيلة لاستغلالها استغلالاً مالياً؟ »[١٢٥]

---

(١٢١) ذكرنا قبل قليل ان فلهاوزن يرجع في بحثه عن عمر إلى عدد من أهم المصادر التي لا يمكن الاستغناء عنها .

(١٢٢) يقول دوزي : تاريخ مسلمي اسبانيا جزء ١ ص ١٣٨ « تدهور – دخل الخزينة – أكثر زمن الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز الذي لم يبال بالأمر !! حتى لقد بعث إليه أحد جباته رسالة يقول له فيها : لو استمر الأمر على هذا المنوال طويلا في مصر لجب الذميون ديانتهم ولأسلموا وقل الخراج في بيت المال . فأجابه عمر : وددت لو أسلموا فما بعث الله نبيه جابياً ولكن هادياً » وانظر آراء فان فلوتن فيما سبق .

(١٢٣) الدولة العربية ص ٢٩٤ – ٢٩٥ .

(١٢٤) انظر ما سبق لترى رأي موللر في هذه النقطة .

(١٢٥) الدولة العربية ص ٢٩٦ .

ونمضي مع مقتطفات أخرى من رد « فلها وزن » ، انه رد مقنع ، ومغرٍ ، لأنه ينبثق عن روية واضحة للتطور المالي في عصر الأمويين، نمضي معه وهو يسعى إلى ازالة الغبش الذي يشوه روية كثير من المستشرقين ، وهو غبش لا يمكن رده بأية حال من الأحوال إلى حسن النية والتجرد وعدم الفهم !! « أما « فون كريمر » « وأوجست موللر » فرأيهما أن عمر إنما تدخل في الأمور المالية دون أية ضرورة عملية ، جرياً وراء ما صوره له ورعه من مثل عليا خيالية ، فافسد المجرى الطبيعي للمالية واخرجها عن الطريق الذي أدى بها إليه التطور السابق . وهما يزعمان أيضاً انه لم تكن عنده أية فكرة عن الأحوال الواقعية . أما الحقيقة فهي بالأحرى ان المؤرخين الذين ينقدون أعمال عمر هم الذين يتصورون الأحوال الواقعة لذلك العصر تصوراً خاطئاً . فلقد كانت هذه الأحوال مضطربة ومحتاجة إلى تنظيم جديد . ولم يكن عمر نفسه هو الذي أحدث الاضطراب في نظام الخراج ، بل كان الاضطراب موجوداً من قبل ، وما كان يمكن ان يستمر . ولم يكن الواجب الذي أراد عمر الاضطلاع به ، واجباً خيالياً موهوماً ، بل كان واجباً حقيقياً وملحّاً .. فأما القاعدة التي تمخضت عنها الحكمة الرومانية ، وهي ان دولة لا يمكن ان تعيش إلا بالوسائل التي اعتمدت عليها في قيامها ، هذه القاعدة التي يسوقها موللر في أخذه على عمر انحرافه عن سنة سلفه من خلفاء بني أمية ، فهي قاعدة يمكن أيضاً ان تذكر في معرض النقد لخلفاء بني أمية أنفسهم . ذلك ان حكومتهم لم تكن بأي حال من الأحوال سائرة على سنة حكومة النبي ﷺ وأصحابه . وهي وإن كانت قد أرادت ان تتمسك بالإسلام ، وما كان يمكنها أن تتنكر له ، فإن الإسلام لم يكن من شأنه أن يؤيدها ، بل ان يقوض الأساس الذي قامت عليه »[١٢٦] . ويختتم « فلها وزن » مناقشته قائلاً « .. ولا يمكن التكهن بما كان عمر بن عبد العزيز سيحققه من أعمال ، لأن خلافته لم تدم إلا نحو عامين ونصف... »[١٢٧]

---

(١٢٦) الدولة العربية ص ٢٩٦ – ٢٩٧ .

(١٢٧) المصدر السابق ص ٣٠١ .

الفصل الرّابع

الادارة والتخطيط

« الذين إن مكنناهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ... » .

الحج ٤١


صفحة فارغة

هنا ـ في ميدان الإدارة ، يبدو البون شاسعاً بين الانقلابات العقيدية الشاملة وبين تلك التي لا تقوم على برنامج عقيدي اصيل شامل ، بين السياسيين العقيديين وبين محتر في السياسة ، بين أولئك الذين يعتزمون شيئاً لأمتهم ، والذين لا يعتزمون إلا أشياء تافهة محدودة لأنفسهم ومحسوبيهم .. وهنا يبدو عمر بن عبد العزيز ، كما كان في كل الجبهات ، وكما هز حال كل الذين يتحملون المسؤولية من المسلمين : (حركة دائبة لتغيير كل الأوضاع والانقلاب عليها ، وبصر طامح تغطي رؤياه ابعاد العالم الإسلامي من حدود الصين إلى جبال البيرنيه ومن أبواب القسطنطينية إلى أعماق الصحراء الكبرى . يعزل ويولي ، يهدم ويبني . ويضع المسؤولين الذين يتحملون الأمانة في كل اقليم من أقاليم الدولة . ثم هو لا يقف عند هذا فحسب، بل يظل ينظر — كجده العظيم — إلى هؤلاء المسؤولين بعينين لا تغمضان ، يشد اعصابهم أبداً إلى الحق والعدل ، ويضع نصب أعينهم دوماً شريعة الله ، وسعادة الأمة . ان عمر بن عبد العزيز هنا — كبطل من أبطال التاريخ — لا تعجزه (الظروف الراهنة) ، ولا يصده ركام عقود طويلة من أعمال وتقاليد الذين سبقوه ، وان (البيروقراطية) هذا الغول الذي يجثم على صدور أكثر الدول تمدناً وتحضراً ، ويكسر ارادة أشد الانقلابيين عزماً وتصميماً ، هذه (البيروقراطية) سرعان ما تسلم قيادها ليديْ عمر المؤمنتين الماهرتين المريدتين .. ومن ثم تعلو إرادتهعلى كل الإرادات ،

ويصنع ما يعيد إلى الأمة ارتباطها الحقيقي بالله .

يبدأ عمر بن عبد العزيز الانقلاب من الداخل . من أعماق البلاط ، ذلك الذي كان قد غدا منصة للخطابة ، و (سوق عكاظ) يجتمع فيها الشعراء ليعرضوا فنهم على الخلفاء ، يقدمون مديحهم وهجاءهم ويرتزقون .. ومن حول هذا البلاط جدران وتقاليد وبروتوكولات فارسية وبيزنطية تحجب الخلفاء عن مطاليب أمتهم ومشاعرها . يسدّ عمر الأبواب في وجوه الشعراء المرتزقة[1] ويعود فيفتحها على مصراعيها أمام كبار علماء الأمة وربانيّيها كي يتدفق قلب الدولة الإسلامية أبداً بدماء الإيمان ، وينبض دوماً بالروح التي صنعت هذه الأمة وبعثتها إلى العالم ، وكي يظل فكر عمر في حوار دائم مع قادة الفكر وممثلي الأمة : يعلمهم ويعلمونه ، يوجههم ويوجهونه ، يستشيرهم ويشيرون عليه . وتلك هي طبيعة الخلافة الراشدة بما انها تنبثق عن عقيدة وشريعة ، وتجابه ظروفاً وأوضاعاً حيّة متطورة . ومن ثم يغدو اتصال الخليفة بكبار المتفقهين أمراً ضرورياً إذا ما أريد لدولة ان تحكم بما أنزل الله .

أما الجدران والبروتوكولات التي وقفت حائلاً «بين الخلفاء وجماهير أمتهم ، فقد اسقطها عمر بن عبد العزيز وفتح الطريق مباشرة إليه ، إلى قلبه ووجدانه : أمام كل المظلومين والمرهقين والباحثين عن فرصهم ومستقبلهم المشروع . ليس هذا فحسب بل انه اعلن عن مكافأة مالية لكل مسلم يشد الرحال من مكان بعيد لكي يأتي دمشق ويقول للخليفة كلمة الحق أو يطالب بردّ مظلمة !! [2] .

ثم يخطو عمر الخطوة التالية ، ها هو ، بعد ان فجر القلب بالدماء الحقيقية الحارة ، يزيل كل السدود والصّمامات من شرايين الدولة لكي يصل إليها الدم : نقياً فواراً ، إلى كل أطرافها ، فيعيد إليها حيويتها ودفقها الإيماني العجيب

---

(١) عن ابعاد عمر بن عبد العزيز للشعراء المرتزقة وتقريبه للعلماء انظر : ابن الجوزي : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٧٤ ، ٧٦ ، ١٦٦ ، ١٧١ .

(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٣٧ .

وان هذا لا يتم قطعاً ، إلا باقالة كل ولاة السوء الذين كانوا يقفون بين جماهير الأمة وبين أهدافها المشروعة ، وحقوقها العادلة ؛ وتشهد السنة الأولى من خلافة عمر (٩٩ هـ) اجراءات واسعة النطاق في هذا المجال : عزل يزيد بن المهلب عن العراق وجعله قسمين إداريين ، ولى احدهما – وعاصمته الكوفة– عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وولى الآخر – وعاصمته البصرة – عدي بن أرطأة الفزاري وولي المدينة أبا بكر محمد بن عمرو بن حزم ومكة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وخراسان وسجستان الجراح ابن عبد الله [٣] . والسّند عبد الملك بن مسمع بن مالك عاملا من قبل عدي بن ارطأة ، ثم عُزل وولي عمرو بن مسلم الباهلي ،وولى البحرين صلت بن حريث. عاملا من قبل عدي بن ارطأة ، ثم عُزل وولي عبد الكريم بن المغيرة الباهلي ، وولى عمان سعيد بن مسعود المازني عاملا من قبل عدي ، ثم ما لبث عمر ان ولى من قبله – مباشرة – عمرو بن عبد الله الأنصاري . وولى اليمامة زرارة ابن عبد الرحمن ، واقر عروة بن محمد على اليمن . وفي ارمينية واذربيجان عين عبد العزيز بن حاتم بن النعمان ثم عزله وعين عديا بن عدي فقام هذا بتعيين سوادة أبا الصباح بن سوادة الكندي عاملاً من قبله على الجزيرة الفراتية . وولى عمر دمشق عبد بن الحسّاس العذري ، وحمص يزيد بن حصين السكوني وقنسرين الوليد بن هشام بن الوليد بن عقبة ، والأردن عبادة بن نسيّ الكندي ، وفلسطين النضر بن أبرهة بن الصباح ، ومصر أيوب بن شرحبيل بن ابرهة بن الصباح . وأما افريقية فقد ولي عليها أول الأمر عبد الله بن مهاجر (المولى الأنصاري) ثم عزله وولى اسماعيل بن عبيد الله مولى بني مخزوم [٤] وفي الأندلس ولي السمح بن مالك الخولاني بعد ان اطمأن إلى دينه وأمانته[٥] .

ولم تحقق هذه الاجراءات الإدارية عند طبقة الولاة بل تعدّتها إلى كافة

---

(٣) الطبري : تاريخ الامم والملوك ٦-٥٥٤ .

(٤) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة ١-٣٢٩ – ٣٣٠ ، الطبري ٦-٥٥٤ ، ٥٥٦ .

(٥) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ٥-٥٥ .

الطبقات : قضاة وكتاباً ، وقادة حرب وعمال خراج وصدقات ، وقادة شرطة وحرس ، وحجاباً وأصحاب خاتم(٦) . ففي القضاء اختار عمر العناصر التي تتميز بالفقه والإيمان العميق ، والجرأة في الحق ، فولى قضاء الكوفة عامراً الشعبي ، وقضاء البصرة الحسن البصري ،غير أن الأخير طلب من والي البصرة اعفائه من وظيفته كي يتفرغ لمهامه العلمية ، فاعفاه عدي وولى مكانه اياس ابن معاوية بن قرة المزني(٧) . وولى على قضاء المدينة عبد الله بن عبد الرحمن ابن معمر(٨) . وعين عمر على شرطته يزيد بن بشر بن يزيد الكلبي ، وعلى خراجه وجنده صالح بن جبير الغداني ، وعلى خاتمه نعيم بن سلامه ، وعلى حرسه ابن أبي عياش الألهاني ، ثم عزله واستعمل عمرو بن المهاجر (مولى الأنصار) . واتخذ ليث بن أبي رقية كاتباً له ، وحبيش — مولاه — حاجباً(٩).

ويبدو جلياً من استعراض أسماء الولاة والقضاة وسائر الموظفين الذين اختارهم عمر بن عبد العزيز ، حرصه على الاعتماد على أكثر العناصر كفاءة وعلماً وإيماناً وقبولا لدى جماهير المسلمين . ولم يلزم نفسه أبداً بانتقاء العناصر الإدارية من حزب بني أمية الحاكم ، بل على العكس تجاوز رجال هذا الحزب على الرغم مما يمتلكه بعضهم من كفاءات إدارية ، رغبة منه في كسر الاحتكار الإداري ، وتحطيم البيروقراطية الأموية ، والانفتاح على الصفوة من أبناء الأمة عرباً وموالي . ويسرد الإمام الأوزاعي حواراً دار بين عمر وبين اشراف بني أمية يؤكد رغبة الخليفة وعزمه على التزام هذه السياسة . فقد قال عمر لهؤلاء

---

(٦) خليفة بن خياط ١-٣٣١ — ٣٣٢ ، الطبري ٦-٥٥٤ ، ٥٥٨ ، ٥٦٠ ، ٥٦١

(٧) الطبري ٦-٥٥٤ . (في تاريخ خليفة خلاف عما أورده الطبري فيما يتعلق بالقضاة حيث يذكر أن الذي تولى قضاء الكوفة هو القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود ،وأما في البصرة فيذكر ان عمر كتب إلى عامله : ان اجمع ناساً من قبلك فشاورهم في اياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الجوشني واستقض أحدهما . فجمع عدي ناساً فحلف القاسم ان اياساً أعلم بالقضاء وأصلح له منه ، فولاه عدي !! وما لبث إياس أن غادر البصرة في مهام خاصة فولى عدي الحسن البصري على قضائها ١-٣٣٠ — ٣٣١) .

(٨) خليفة بن خياط ١-٣٣١ .

(٩) خليفة بن خياط ١ - ٣٣١ — ٣٣٢ .

الأشراف يوماً : أتحبون أن أولي كل رجل منكم جنداً ؟ فأجابه أحدهم : لم تعرض علينا ما لا نفعله ؟! فقال عمر : أترون بساطي هذا ؟ إني لا علم انه يصير إلى بلاء وفناء وإني أكره ان تدنسوه بأرجلكم ، فكيف أوليكم ديني ؟ أوليكم اعراض المسلمين وأبشارهم ؟ هيهات لكم هيهات !! فقالوا له : لم ؟ أما لنا قرابة ؟ أما لنا حق ؟ أجاب عمر : ما أنتم وأقصى رجل من المسلمين عندي في الأمر إلا سواء !! [١٠] .

اننا لا نجد ، خلال استعراضنا للقوائم الإدارية ، آنفة الذكر ، سوى اسم أو اسمين لموظفين من بني أمية ، أما الآخرون جميعاً فقد تم انتقاؤهم اعتماداً على مقياس واحد لم يكن عمر ليفرّط به ولو تخطفته الذئاب : التقوى والكفاءة حتى ان المسعودي يذكر — على وجه الإجمال — ان عمر صرف عمال من كان قبله من بني أمية، واستعمل أصلح من قدر عليه ، فسلك عماله طريقته[١١] فذلك هو هدف عمر بن عبد العزيز : ان يسلك عماله طريقته ، ومن ثم يتحقق فعلا البرنامج الانقلابي الذي جاء به يوم تولى الخلافة ، مستمداً من القرآن والسنة وتسري الثورة إلى الأقاليم .

من أجل هذا أدرك عمر بن عبد العزيز مدى الخطورة التي تتعرض لها ثورته هذه بتسنم عناصر غير اسلامية بعض مناصب الدولة الإدارية ، واسرع باصدار منشور عممه على سائر عماله جاء فيه « ... ان المسلمين كانوا فيما مضى إذا قدموا بلدة فيها أهل الشرك يستعينون بهم لعلمهم بالجباية والكتابة والتدبير ، فكانت لهم في ذلك مدة . فقد قضاها الله بأمير المؤمنين فلا أعلم كاتباً ولا عاملاً في شيء من عملك على غير دين الإسلام إلا عزلته واستبدلت مكانه رجلا مسلماً . . فافعل ذلك واكتب إلي كيف فعلت »[١٢] . وفي منشور آخر ،

---

(١٠) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٥٦ .

(١١) مروج الذهب ٢-١٦٧ — ١٦٨ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ١ - ٣٢٩ — ٣٣٠ .

(١٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر ص ١٥٨ — ١٥٩ .

عـُمم أيضاً على العمال ، وضح عمر أهداف منشوره الأول بعزل غير المسلمين جاء فيه « ... ان الله عز وجل اكرم بالإسلام أهله وشرفهم وأعزهم ، وضرب الذلة والصغار على من خالفهم ، وجعلهم خير أمة اخرجت للناس . فلا تول أمور المسلمين أحداً من أهل ذمتهم وخراجهم[١٣] فتبسط عليهم أيديهم وألسنتهم فتذلهم بعد أن أعزهم الله ، وتهينهم بعد ان أكرمهم الله تعالى ، وتعرضهم لكيدهم والاستطالة عليهم ، ومع هذا فلا يؤمن غشهم إياهم ! ! فإن الله عز وجل يقول (لا تتخذوا بطانة من دونكم ، لا يألونكم خبالاً ودّوا ما عنتم) (ولا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض) »[١٤] .

ان التجانس العقائدي بين جميع المشرفين على مناصب الدولة والعاملين في أجهزتها الحسّاسة ، أمرٌ لازم لتحقيق البرنامج الإداري الذي اعتزم عمر تنفيذه ، والذي أقامه على قاعدتيْ القرآن والسنة ، ففضلاً عن أن هذا الاجراء أمر بديهي في كثير من الدول التي تسعى إلى تحقيق انقلابيتها وفق برنامج أو عقيدة محددة مستقلة ، فإن وجود عناصر غير متشعبة بالمفاهيم الإسلامية ، يشكل خطراً مباشراً على أهداف الانقلاب ، فكيف بوجود عدد من غير المسلمين ؟ الأمر الذي لا ريب وأن يؤدي إلى عدد من النتائج العكسية التي استعرضها عمر في منشوره التوضيحي الثاني .

لم يكتف عمر بعزل الولاة والموظفين السابقين وتولية آخرين يعتمد عليهم في تنفيذ أهدافه الشاملة ، بل وضع هؤلاء جميعاً تحت مراقبة شديدة دائبة كي يظلوا يحملون مسؤوليتهم ازاء الأقاليم والأعمال التي واوا عليها ، وكي لا تصاب بعض أنحاء الدولة بالشلل من جراء توقف عمالها عن اللحاق بالخطوات الواسعة التي كان عمر يقطعها صوب الامام ، ويفرض على ولاته أن يقطعوها ! ! فلم تمض سنة وخمسة أشهر على توليته للجراح بن عبد الله على خراسان حتى أصدر أمره بعزله وتعيين عبد الرحمن بن نعيم القشيري . وكان أحد

(١٣) ربما يقصد بهم موظفي الخراج من الفرس وغيرهم الذين بقوا عل دياناتهم القديمة .
(١٤) ابن الاثير : الكامل ٥-٦٦ .

الموالي قد شخص إلى الخليفة في دمشق وقال له :

– يا أمير المؤمنين : عشرون ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق، ومثلهم قد اسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج[١٥] ، وأميرنا عصبيّ جافٍ يقوم على منبرنا فيقول : أتيتكم حفياً ، وأنا اليوم عصبي ! والله لرجل من قومي أحب إلي من مائة من غيرهم ...

كان هذا المولى أحد أعضاء ثلاثة في وفد طلبه عمر من خراسان ليطلع منه على جلية الاخبار ، أما العضوان الآخران فكانا عربيين ، وكانا قد تكلما والآخر ساكت . ويلاحظ عمر صمته فيلتفت إليه :

– أما أنت من الوفد ؟

– بلى .

– فما يمنعك من الكلام ؟

وما أن ينهي المولى كلامه – الآنف الذكر – حتى تكسو وجه عمر ملامح البشر والارتياح ويعلن « إذن مثلك فليوفَد !! »[١٦] . إنه يريد من يطلعه على ما يجري فعلاً في الأقاليم ، دون مواربة أو زيف أو خداع ، ثم هو يريد هذا من أحد المظلومين أنفسهم ، لكي يدرك من كلام المظلوم ووجدانه المحزون المدى الأخير لما يلحق بعض جماهير أمته من أذى على أيدي ولاته ، ومن ثم لكي يتخذ الأجراء السريع الذي يغطي هذا المدى .

ويسرع عمر – دون ابطاء – فيكتب إلى الجراح : « انظر من صلى من قبلك إلى القبلة فضع عنه الجزية » ويتلفت إلى حاشيته ومستشاريه :

– ابغوني رجلاً صادقاً اسأله عن خراسان (أي أوليه إياها) .

فيعرضون عليه مجموعة من الأسماء ؛ فيقع الاختيار على اثنين منهم ، ويعزل الخليفة عامله السابق ، ويكتب إلى أهل خراسان « اني استعملت عبد

---

(١٥) يعني – هنا – الجزية ، وكثيراً ما يرد عدم التفريق هذا بين الجزية والخراج في عدد من المصادر ، ولكن يتضح من سياق الكلام ما المقصود بكل منهما .

(١٦) الطبري ٦-٥٥٨ – ٥٦٠ .

الرحمن بن نعيم على حربكم وصلاتكم ، وعبد الرحمن بن عبد الله القشيري على خراجكم ، من غير معرفة مني بهما ولا اختيار (!!) إلا ما اخبرت عنهما فإن كانا على ما تحبون فاحمدوا الله، وان كانا على غير ذلك فاستعينوا بالله»[١٧] هذا ، ثم ان الجراح ، لم يحتلب منصبه يوماً لمصلحة خاصة ، حتى انه عندما ترك خراسان ، خطب أهلها قائلاً « يا أهل خراسان جئتكم في ثيابي هذه التي علي وعلى فرسي ، لم أصب من مالكم إلا حلية سيفي »[١٨] . ولكن الخليفة العظيم ، الذي كان يبحث عن الحق والعدل في كل مكان ، كان بامكانه ان يطارد الظلم ويعثر عليه في كل مكان ، حتى ولو لم يكن ظلماً مباشراً ، كأن يعتصر الحاكم دماء رعيته لحسابه الشخصي . فهناك أنواع أخرى لا يحصيها العد من الظلم ، وهذا الوالي رغم أنه لم يفد شخصياً من ولايته ، إلا أن عصبيته لقومه ، وحرصه غير العادل على منفعة مالية الدولة ، جعلت عمر يسرع إلى عزله لما في سلوكه هذا من مساس بالقيم التي كان عمر يكافح دونها .

ان أخوف ما كان يخافه عمر ـ وهو يطارد الظلم كي يزيحه من على وجه الأرض ومن أعماق النفوس ـ هو أن يسلك موظفوه أساليب البطش والتنكيل والارهاب الذي يقتل النفوس ويميت فيها كل معاني الحرية والتطلع المفتوح إلى الآفاق التي جاء الإسلام ، بثورته التحريرية الشاملة ، لكي يوسع مداها في عالم الإنسان الداخلي وفي أرضه وسمائه .. ان الكبت والإذلال اللذين طاردهما عمر بن الخطاب خوفاً على الأمة الإسلامية ان تذل وتتنازل عن أهدافها الكريمة يعود حفيده ـ اليوم ـ كي يستمر في مطاردتهما لاكمال هدف جده العظيم ، ويغسل ضمائر الناس من كل ما من شأنه ان يحيطها بران من الحس الثقيل والخوف ،وهل أقدر من الإذلال والارهاب على سحق وجدان الناس وضمائرهم واحاطتهما بهذا الحس الثقيل وهذا الخوف ؟!

ويتلقى عمر يوماً رسالة من عامله على خراسان يقول فيها « إني قدمت

---

(١٧) الطبري ٦-٥٦٠ — ٥٦١ .

(١٨) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

خراسان فوجدت قوماً قد ابطرتهم الفتنة فهم ينزون فيها نزواً ، احب الأمور إليهم ان تعود (أي الفتنة) ليمنعوا حق الله عليهم ، فليس يكفهم إلا السيف والسوط ، وقد كرهتُ الاقدام على ذلك إلا باذنك » ويجيبه الخليفة « يا ابن أم الجراح ، أنت احرص على الفتنة منهم (!!) لا تضربن مؤمناً ولا معاهداً سوطاً إلا في حق ، واحذر القصاص فانك صائر إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وتقرأ كتاباً لا يغادرصغيرة ولا كبيرة إلا احصاها »[١٩] وكتب إلى العامل نفسه ، بعد ان اعلمه هذا عن قيامه بتعيين أحد العمال المشتهرين بالارهاب « لا حاجة لي برجل قد صبغ يده بدماء المسلمين ، اعزله »[٢٠] . وكان عمر يمنع من تولية أي موظف يكشف سجل أعماله الماضية عن كونه مارس ظلماً وارهاباً[٢١] .

لقد كان المثل الأعلى للادارة الصالحة في نظر عمر هي تلك التي تنشر الأمن في البلاد ، وتزرع المودة والثناء في قلوب الرعية . ولن يتم هذا إلا باكتساح كل بذور الخوف من القلوب . وكان يقول ان عيون الحكام لن تقر إلا في هذا : « استفاضة الأمن في البلاد ، وظهور مودة الرعية لهم ، وحسن ثنائهم عليهم »[٢٢] . ويحدثنا يحيى الغساني قائلاً : لما ولاني عمر بن عبد العزيز الموصل قدمتها فوجدتها من أكثر البلاد سرقة ونقبا ، فكتبت إليه اعلمه حال البلد واسأله : أآخذ الناس بالظنة واضربهم على التهمة ، أم آخذهم بالبينة وما جرت عليه السنة ؟ فكتب إلي ان آخذ الناس بالبينة ، فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله . ويستمر هذا الوالي في حديثه قائلاً : ففعلت ذلك ، فما خرجت من الموصل حتى كانت من اصلح البلاد وأقلها سرقة ونقبا !! [٢٣] .

* * *

(١٩) الطبري ٦-٥٦٠ - ٥٦١ .

(٢٠) ابن الجوزي ص ٨٦ .

(٢١) المصدر السابق ص ٨٩ .

(٢٢) المصدر السابق ص ٨٥ .

(٢٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٥٧ .

حتّى أولئك الذين يقومون باصلاحات جدية في مجال الإدارة ، ويطيحون بالرؤوس القديمة المستغلة لكي يأتوا بمن يستطيع ان ينسجم مع البرنامج الجديد، حتى هؤلاء ، كثيراً ما كانوا يغفلون ، وهم في فورة التبديل والتغيير ، عن أخطاء المعزولين واستغلالهم وكسبهم الشخصي على حساب شعوبهم ، ثم لماذا يثيرون مشاكل وعقبات جديدة ما داموا قد أطاحوا بأولئك المستغلين إلى حيث لا رجوع ؟ لكن عمر لا يكتفي بهذا الجانب من التغيير والاصلاح .. انه ينظر بعينين مفتوحتين إلى الجانب الآخر، ويضع يديه على كل الذين ظلموا واستغلوا وكسبوا على حساب أمتهم ، إذا كان في ذلك مصلحة مرتجاة تعود على الأمة بالخير ، وتسترّد إلى خزينتها العامة مالاً مسروقاً !! وها هو عمر يأمر بإلقاء القبض على والي العراق السابق : يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، ويعلن : إني ابغض يزيد وأهل بيته لأنهم جبابرة ، ولا أحب مثلهم . وعندما يؤتى بيزيد مكبلاً إلى عمر يسأله الخليفة عن الأموال التي كان قد كتبه بها إلى سليمان بن عبد الملك — الخليفة المتوفي — فيجيبه يزيد :

— كنتُ من سليمان بالمكان الذي قد رأيت ، وانما كتبت إلى سليمان لاسمّع الناس به . وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذني بشيء ولا بأمر أكرهه . ويجيء جواب الخليفة : ما أجد في أمرك إلاّ حبسك ، فاتق الله وأدّ ما قبلك فانها حقوق المسلمين ، ولا يسعني تركها !! ومن ثم يرسل بيزيد إلى السجن ، ولا يمضي وقت طويل حتى يقدم ابنه (مخلد) من خراسان ، وفي طريقه يوزع الأموال على القرى والمدن كي يستميل أهاليها . ثم يصل دمشق ويقابل الخليفة ويقول :

— إن الله يا أمير المؤمنين صنع لهذه الأمة بولايتك عليها ، وقد ابتلينا بك ، فلا نكن أشقى الناس بولايتك ، علام تحبس هذا الشيخ ؟ أنا اتحمل ما عليه فصالحني على ما إياه تسأل .

— لا !! إلا ان تحمل جميع ما نسأله إياه !!

— يا أمير المؤمنين ان كانت لك بينة فخذ بها ، وإن لم تكن بينة فصدّق

مقالة يزيد ، وإلا فاستحلفه فإن لم يفعل فصالحه (على مقدار من المال) .
– ما أجد إلا أخذه بجمع المال !!

ويخرج مخلد بن يزيد بن المهلب دهشاً لشدة عمر وصلابته في الحق ويعلن للواقفين هناك : هذا – يعني عمر – خير عندي من أبيه !! ولما أبى يزيد أن يؤدي إلى عمر الحقوق المترتبة عليه ، أمر الخليفة بنفيه إلى جزيرة (دهلك) النائية في البحر المتوسط ، لكي يرهب الذين يثرون على حساب الناس . فأركب يزيد جملاً ووجّه صوب الساحل تحت حراسة مشددة . وبعد أيام دخل على عمر أحد موظفيه وقال : يا أمير المؤمنين أردد يزيد إلى سجنه – في الشام – فاني أخاف ان امضيته – إلى منفاه – أن ينتزعه قومه ، فاني قد رأيت قومه عضيداً له . ورغم ان عمر استجاب لهذا الطلب ورد يزيد إلى الشام ، إلا أنه لم يتهاون لحظة في ابقائه رهن الاعتقال حتى يؤدي ما عليه[٢٤] .

ودائماً كان الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز يرسل إلى عماله وموظفيه رسائل ، يشدهم فيها إلى القيم التي عليهم ان يحرسوها كمسلمين ، والأهداف التي عليهم أن يخثوا الخطى إليها كمسؤولين أمام الله ، والأساليب التي يجب ان لا يحيدوا عنها كممثلين للأمة الوسط ، والكدح المتواصل الشان الذي يجب ان يلتزموه أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ، مؤكداً خلال ذلك كله على ضرورة ارتباط العلم بالعمل ، إذ ان افتقار أي منهما سوف يعرض كل الأهداف السالفة للضياع ، ومذكراً بأن تقوى الله هي القاعدة الكبرى التي يجب ان يصدر عنها جميع المسؤولين .

ولم ينس عمر لحظة – وهو يعلم عماله ان القاعدة الأساسية لحركتهم واعمالهم يجب ان تنبثق دوماً من القرآن والسنّة ، بما أنهم موظفون ملتزمون يعملون في دولة عقيدة لا في دولة احتراف . ومن ثم فالكتاب الأول الذي عممه عمر على عماله ، أكدّ فيه على هذه القاعدة « ان تتبعوا كتاب الله وسنة نبيه ، وان تجتنبوا ما مالت إليه الاهواء والزيغ البعيد . ومن عمل بغيرهما فلا

(٢٤) الطبري ٦-٥٥٦ – ٥٥٨ .

فلا كرامة ولا رخصة له في الدنيا والأخرى .. ولعمري ان تموت نفسي أول نفس أحب إلي من ان أحملهم على غير اتباع كتاب ربهم وسنة نبيهم .. فإنه ليس بعد الحق إلا الباطل ، ولا بعد البصر إلا العمى » [٢٥] . وبلغ عمر من تأكيده على هذه القاعدة الكبرى أنه كان يقول « يا ليتني قد عملت فيكم بكتاب الله وعملتم به ، فكلما عملت فيكم بشيء وقع مني عضو ، حتى يكون آخر شيء منها خروج نفسي » !! [٢٦] . صورة رائعة وعجيبة من عجائب الإيمان والمسؤولية لحاكم الأرض وهو يعلن . — بحماس عميق — عن استعداده لأن تتساقط عنه اعضاؤه واحداً بعد آخر ، ازاء كل عمل ينبثق عن القرآن ، وكل تطبيق يستلهم السنة ، حتى تخرج نفسه!! ترى أكان ذلك مجرّد كلام يتغنى به خليفة في لحظة من لحظات تأمله وإعجابه ، كما يفعل الكثيرون من قادة الدول عندما يدبّجون أقوالاً رائعة وكلمات طنانة، تغزلاً بدساتيرهم ونظرياتهم واعجاباً ؟! حاشا لعمر بن عبد العزيز ان يكون كذلك وها هي شهادة معلم الأمة مالك بن أنس تسدّ الطريق على كل افتراض .. يقول مالك معلقاً على تأكيد عمر على العمل بكتاب الله زسنة رسوله عليه السلام : « اعجبني عزم عمر في ذلك » [٢٧] . كلمات قليلة ، لكنها تعني الكثير : رفضٌ مطلق للثنائية بين الفكر والعمل ، وتوحّد عجيب في حركة الخليفة المسؤول بين العقيدة والتطبيق .

ويظل عمر يكتب إلى عماله مؤكداً على هذا الرفض للثنائية وهذا التوحد في الحركة ، مذكراً إياهم ان الخليقة التي يجب ان يستند إليها هذا كله هي التقوى وان الحادي للسير دائماً صوب الأمام هو الحق والعدل . فيكتب إلى واليه على خراسان « أما بعد: فكن عبداً ناصحاً لله في عباده ، ولا تأخذك في الله لومة لائم ، فإن الله أولى بك من الناس ، وحقه عليك أعظم . فلا تولين

---

(٢٥) ابن عبد الحكم ص ٧٨ .

(٢٦) المصدر السابق ص ١٤٧ .

(٢٧) المصدر السابق ص ٤١ .

شيئاً من أمر المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم والتوفير عليهم واداء الأمانة فيما استرعي . وإياك ان يكون ميلك إلى غير الحق ، فإن الله لا تخفى عليه خافية ، ولا تذهبن عن الله مذهباً ، فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه »[٢٨]. وفي رسالة أخرى إليه يقول « ان العلم والعمل قريبان فكن عالماً بالله عاملاً له ، فإن اقواماً علموا ولم يعملوا فكان علمهم عليهم وبالا »[٢٩] .

وكان عمر بن عبد العزيز يحسّ ان المحافظة على شكل الارتباط في المجتمع الإسلامي ، ونقاء صورته الخارجية ، هو جزء أصيل من مهمة الخلافةالراشدة وانه يجب على الموظفين والعمال وسائر الإداريين ان يعملوا على بقاء صورة المجتمع المسلم نظيفة ، نقية ، خالصة من الشوائب ، بما أنه المجتمع الذي يتحرك بشريعة الله وهدْيه ، وان ذلك كله لا يتم إلا بتنفيذ قاعدة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) . ومن ثم تتوالى رسائله على عماله يعلمهم فيها ان تكون حركتهم ملتزمة دوماً هذه القاعدة العريضة التي عليها تقوم الحضارات وبدونها تتدهور وتنهار « انه قد بلغني انه قد كثر الفجور فيكم ، وامن الفسّاق في مدائنكم ، وجاهروا من المحارم بأمر لا يحب الله من فعله ، ولا يرضى المداهنة عليه . كان لا يظهر مثله في علانيته قوم يرجون لله وقاراً ، ويخافون منه غيرا . وهم الاعزون الأكثرون من أهل الفجور ، وليس بذلك مضى أمر سلفكم ، ولا بذلك تمت نعمة الله عليهم »[٣٠] . رؤية واضحة للأساس الأخلاقي الذي بعث العرب من جاهليتهم واعطاهم مقود الأمم والشعوب والحضارات . واحساس عميق بأن هذا الأساس الأخلاقي ، إذا ما انهار يوماً – والانهيار يبدأ بسيطاً ثم يأخذ بالاتساع أكثر فأكثر .– وإذا ما استبدل بالفجور – والفجور يبدأ تافهاً ضئيلاً ثم ما يلبث ان يطغى على كل ساحات العمل والتصوّر والشعور – إذا ما حدث هذا وذاك ، فاذن للأمة ان تتعرض لنقمة

---

(٢٨) الطبري ٦-٥٦١ – ٥٦٢ .

(٢٩) الطبري ٦-٥٦٧ .

(٣٠) ابن عبد الحكم ص ١٦٠ – ١٦٣ .

الله وللحضارة ان تقف وجهاً لوجه امام غيـره ! ! تلك هي سنة الله في التاريخ (ولن تجد لسنة الله تبديلا) « وإذا المعاصي ظهرت ولم يغيروا ، أخذت العامة والخاصة » [٣١] . فليتعقب عمر إذن هذا الانحراف من بداياته ، وليطارد وليطارد الفجور في أبسط صوره ، كيلا يغدو السيل – يوماً – فيضاناً جارفاً يحطم الحواجز والسدود ، ويغرق المزارع والقرى ، ويطغى على معالم العمران.. وليتحرك عمر إذن على قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولينفخ في عماله روح الحركة وفق هذه القاعدة، وليعلن للمنحرفين عن الصراط ان العقاب الصارم سينزل على رؤوس الملعونين « .. فانا من نجده يشرب من الخمر شيئاً بعد تقدمنا إليه فيه ، نوجعه عقوبة في ماله ونفسه ، ونجعله نكالا لغيره ، ومن يستخف بذلك منا فإن الله أشد عقوبة وأشد بأساً وأشد تنكيلا .. وقد أردت بالذي نهيت عنه من شرب الخمر .. اتخاذ الحجة عليكم اليوم وفيما بعد اليوم »[٣٢] . وكتب إلى عماله « ان اقامة الحدود عندي كاقامة الصلاة والزكاة »[٣٣] وأصدر أوامره بألا يدخل أهل الذمة بالخمر أمصار المسلمين فكانوا لا يدخلونها[٣٤] . وشوهد بخناصرة قريباً من قنسرين يأمر بازقّة الخمر ان تمزق وبالقوارير ان تكسر[٣٥] . وكتب إلى أحد عماله « ان استوثق من أهل الدعارات فإن الحبس لهم نكال ، واجعل للنساء حبساً على حدة »[٣٦] . ونفى جماعة من بني عقيل إلى اليمن وكتب إلى عاملها « ... بئس القوم كانوا في الجاهلية والإسلام ، وكان أفضلهم في أنفسهم شر خلق الله ديناً ونفساً ! ! فإذا أتاك كتابي هذا فانزلهم من نواحي ارضك بشرّها ، بقدر هوانهم على الله عز وجل »[٣٧] .

(٣١) ابن الجوزي ص ٢١٤ .
(٣٢) ابن عبد الحكم ص ١٠٢ .
(٣٣) ابن سعد : طبقات ٥-٢٧٨ .
(٣٤) ابن سعد ٥-٢٦٩ .
(٣٥) ابن سعد ٥-٢٦٩ .
(٣٦) ابن سعد ٥-٢٦٢ – ٢٦٣ .
(٣٧) ابن عبد الحكم ص ١٢٤ .

ولم يتهاون عمر حتى تجاه التقاليد والاعراف التي تندّ عن روح الإسلام وصورته المشرقة للعلاقات الاجتماعية ، وأرسل إلى عماله يندّد بهذه التقاليد والاعراف التي اخذت تفشو في المجتمع الإسلامي ، كالنياحة على الأموات وما يرافق ذلك من مراسيم جاهلية بشعة لا تنسجم وصورة هذا المجتمع ، وأمر هؤلاء العمال ان يتقدموا إلى أصحاب شرطهم « فلا يقرنوا نوحاً في دار ولا طريق ، فإن الله قد أمر المؤمنين عند مصائبهم بخير الأمرين في الدنيا والآخرة فقال : (والذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم،ورحمة ، وأولئك هم المهتدون) ... »[٣٨] .

إلا أن الشدة في العقوبة ، وانزال العقاب بالمنحرفين ، لم تدفع عمر يوماً إلى الجور والانحراف ، ولو شبراً واحداً ، عن العدل الذي ما حاد عنه يوماً . فها هو يكتب إلى عماله أن ينظروا في أمر السجون ، وان يكتبوا للمعتقلين برزق الصيف والشتاء ، وأن يستوثقوا من مريضهم ، ممن لا أحد له ولا مال ، وان لا يتعدوا في العقوبة ... »[٣٩] .

* * *

سدّ عمر بن عبد العزيز على عماله وموظفيه كل نافذة أو ثغرة يمكن ان يتسللوا منها إلى استغلال مناصبهم ، أو توجيه ظلم إلى أحد من أبناء الأمة الإسلامية ، أو اغتصاب حق فرد من افرادها . وتشدّد في ذلك ، متقصياً كل شبهة يمكن ان تؤدي بشكل من الأشكال إلى نوع من أنواع الظلم والاستغلال فبدأ برفع اجورهم إلى الثلاثمائة دينار سنوياً ليحقق لهم الكفاية و يغنيهم عن الخيانة في الوقت الذي لم يفرض لنفسه فيه سوى نفقة يومية لا تزيد على الدرهمين[٤٠] وحرم على العمال قبول أية هدية من الهدايا كيلا تكون باباً لتقديم الرشاوى من قبل ذوي الحاجات . كما ألغى هدايا اعياد النوروز والمهرجان الفارسية[٤١].

---

(٣٨) ابن عبد الحكم ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٣٩) ابن سعد ٥-٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٤٠) ابن عبد الحكم ص ٤٦ .

(٤١) الطبري ٦-٥٦٩ .

ومنع عماله من مزاولة أي نشاط تجاري كيلا يصرفهم عن مهامهم الإدارية من جهة ، ولا يدفعهم إلى استغلال مناصبهم خلال هذا النشاط من جهة أخرى وكتب إليهم يقول « نرى ان لا يتجر إمام ، ولا يحلّ لعاملٍ تجارة في سلطانه الذي هو عليه ، فإن الأمير متى يتجر ليستأثر ويصيب اموراً فيها عنت ، وان حرص على ألا يفعل »(٤٢) . كما نهى عماله عن نظام السخرة المتبع فيما مضى من عهود وقال « ونرى ان توضع السخر عن أهل الارضاء ، فإن غايتها امورٌ يدخل فيها الظلم » (٤٣) .

ومن جهة أخرى ، راح عمر يصدر أوامره المتلاحقة وتعليماته الدائبة إلى عماله ان يوسعوا خدمات الدولة لجماهير الأمة ، وان يوفروا للمرضى والمحتاجين والمسافرين : المسكن والملبس والمطعم ، والدليل الذي يتيح لهم قطع رحلتهم دون أية صعوبات . ويكتب إلى أحد عماله ان اعمل خانات في بلادك ، فمن مرّ بكم من المسلمين فاقروهم يوماً وليلة ، وتعهدوا دوابهم فمن كانت به علة فاقروه يومين وليلتين ، فإن كان منقطعاً به فقووه بما يصل به إلى بلده (٤٤) .

وكان عمر ينظر إلى جميع مواطني الدولة الإسلامية ، مسلمين وذميين ومجوس كأبناء يجب أن يرعاهم ويتيح لهم الحرية الكاملة لأداء شعائرهم اسوة بعهد رسول الله عليه السلام وخلفائه الراشدين ، وصدوراً عن توجيهات القرآن الكريم . فكان يؤكد على عماله ضرورة مراعاة أصحاب الديانات غير الإسلامية وان لا يهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحوا عليه(٤٥) .

ومن أجل ان يضمن عمر بن عبد العزيز قيام عماله بمهامهم على الوجه الصحيح ، والتزامهم برنامجه العظيم بدقة ، جعلهم مسؤولين أمامه مباشرة ،

---

(٤٢) ابن عبد الحكم ص ٩٩ .

(٤٣) المصدر السابق ص ٩٩ .

(٤٤) الطبري ٦-٥٦٧ .

(٤٥) الطبري ٦-٥٧٢ .

وطلب منهم ان يراجعوه في جل ما يقدمون عليه « وان لا يعجلوا دونه بقطع ولا صلب » حتى يعرضوه عليه ليروا رأيه فيه [٤٦] . وبهذا تمكن عمر من شد أعناق عماله إلى خليفتهم ، والزامهم تطبيق برنامجه الواسع واستلهام روحه في التفاصيل والكليات .. ولم يفسح لهم المجال — أبداً — لكي يتصرفوا وفق اهوائهم ، أو يتجهوا وفق ما يريدون .

* * *

وليس لنا ان نختتم هذا البحث عن ادارة عمر بن عبد العزيز دون أن نشير إلى الملامح الأساسية التي كانت شخصيته الإدارية تتميز بها ، تلك الملامح التي تتجلى في أربع خصال : الايجابية ، الواقعية ، المرونة ، والذكاء ، والتي مكنت عمر من تحقيق هذه المنجزات العظيمة في فترة قصيرة .

وتتبدّى ايجابية عمر أكثر ما تتبدى في حرصه على الزمن ، بالاحرى في سباقه مع الزمن . انه مسؤول . وان أمامه مهاماً عظاماً تنتظر البت والتصميم والتنفيذ . وان في وجدانه كذلك مطالب عظيمة من الشوق واللهفة إلى أن ينفرد بنفسه وان يقضي الساعات الطوال يتبتّل إلى الله ويشبع حبه له وشوقه إليه .. وأمام هذا وذاك يقف الموت الذي لا يعرف الإنسان متى ينزل فينتزع الساعات والأيام والسنين منه ، ويفقده فرصة العمر .. كان عمر يدرك بحصافته مغزى وجوده داخل هذا المثلث الذي وضعته المسؤولية فيه : المهام العظيمة لأمة تمتد من بحر الصين إلى بحر الظلمات ، والأشواق الملهوفة لإنسان رفعته تجربته الداخلية إلى قمة التصوف ، ثم الموت الذي يتهدد في كل لحظة الفرصة الوحيدة لانجاز مهام الأمة العظيمة وارتواء الأشواق ! !

لكن عمر بن عبد العزيز لم يتخل لحظة واحدة عن الصمود إزاء هذا الوضع الحرج ، ووقف كالأبطال ، بعزيمته الصلبة ، يعمل على كلتا الجبهتين الخارجية والداخلية ، دون ان يخلّ بمطالب أي منهما .. وينتظر الموت . ان هذا الفهم من جانب عمر لفكرة الزمن وفرصة العمر المحدودة ، جعلته يتمرّد منذ اللحظة

(٤٦) الطبري ٦-٥٦٩ .

الأولى على ما يمكن ان نسميه (روتين البيروقراطية) الذي ضيّع في كثير من الدول الساعات والأيام والسنين ، وظلت مئات من القضايا معلقة ، وألوف من المشاكل تنتظر الحل ولا أحد يجروْ على البت فيها خوفاً من (الروتين) ولا أحد يقول لنفسه : ان الموت ربما سينزل هذه اللحظة ، وان فرصة الحياة أثمن من التشبث بالشكليات . انظروا :

ها هو عمر ، بعد ان تم دفن سلفه سليمان ، يدعو بدواة وقرطاس ويكتب على جناح السرعة ، ثلاثة كتب أمضاها وانفذهما إلى جهاتها فوراً ، ويتساءل الناس ، ويقول بعضهم لبعض : ما هذه العجلة ؟ أما كان يصبر إلى ان يرجع إلى منزله ؟ هذا حب السلطان ، هذا الذي يكره ما دخل فيه ! ! ولم يعلم هؤلاء جميعاً ان عمر لم تكن به عجلة ولا محبة لما صار إليه ، ولكن حاسب نفسه ، ورأى تأخير ذلك لا يسعه[٤٧] . ويكتب إلى عامله على اليمن : « انك تردد إلي الكتب ، فنفّذ ما اكتب به إليك من الحق ، فإنه ليس للموت ميقات ! ! »[٤٨] ويروي ابن سعد كيف ان عمر بن عبد العزيز كان إذا صلى العشاء جلس لرد المظالم .. فإذا أصبح جلس في رد المظالم ! ! [٤٩] . وبلغ من انهماكه في العمل أنه لم يتح له الحج أو العمرة طيلة خلافته رغم شوقه إليه [٥٠]. ليس هذا فحسب بل انه لم يتح له حتى الاجتماع بزوجه ، الأمر الذي يعد من ضروريات الحياة الزوجية ، وعندما عوتب على ذلك أجاب : كيف يستطيع رجل ان يأتي ذاك وأمر أمة محمد في عنقه الله سائله عنها يوم القيامة ؟! [٥١] . وإذ رأى أهلوه واخوته أنه لا يرحم نفسه ، وانه يقتطع ساعات راحته ليضيفها إلى ساعات كده . تقدم إليه أحدهم قائلاً : يا أمير المؤمنين لو ركبت — في نزهة — فتروحت ! أجابهم : فمن يجزي عني عمل ذلك اليوم ؟ قال : تجزيه من الغد.

---

(٤٧) ابن عبد الحكم ص ٣٦ — ٣٧ .

(٤٨) ابن سعد ٥-٢٩٤ .

(٤٩) المصدر السابق ٥-٢٥٦ .

(٥٠) ابن كثير : البداية والنهاية ٩-١٨٩ .

(٥١) ابن سعد ٥-٢٩٣ .

أجاب عمر : فدعني عمل يوم واحد ، فكيف إذا اجتمع علي عمل يومين؟[٥٢]

لا جدال في أن عمال عمر ، الذين أحسن اختيارهم ، كانوا كخليفتهم يصلون الليل بالنهار . ويذكر إبراهيم بن جعفر أنه رأى أباه : أبو بكر بن محمد (عامل المدينة) يعمل بالليل كعمله بالنهار لاستحثاث عمر إياه !! [٥٣] .
وتبدت رغبة عمر في الحرص على الزمن وضرب (الروتين) — مرة أخرى — عندما كتب إلى عامله بالمدينة ان يقسم مبلغاً من المال في ولد علي رضي الله عنه فرد عليه هذا ان ولد علي رضي الله عنهم قد تفرقوا في عدة قبائل من قريش ففي أيهم يكون العطاء ؟ ومن ثم تلقى جواب عمر : لو كتبتُ إليك في شاة تذبحها لكتبت إلي اسوداء أم بيضاء ؟! إذا أتاك كتابي هذا فاقسم في ولد علي من فاطمة رضي الله عنهم .. فطالما تخطيتم حقوقهم[٥٤] . وواضح من جواب عمر أنه يريد من عماله — تمشياً مع فكرته في الحرص على الزمن — أن يكونوا أكثر تحرراً في ادارتهم ، وألاّ يتشبثوا بحرفيه الأوامر ، وان يجتهدوا في تنفيذ ما يصدر إليهم بأسرع وقت مستطاع .

ان عمر في عمله المتواصل هذا ، في كده وكدحه ، في وصله الليل بالنهار من أجل البتّ في قضايا ومشاكل الأمة ، أعطى المثل الأعلى الواقعي على ايجابية المسؤول المسلم ، وتكوينه العملي ، وتوازنه العجيب بين التجربة الداخلية والسلوك والانجاز الخارجي . فعمر ، هذا الذي قضى الساعات الطوال يتبتّل إلى الله ، ويذرف الدموع في ساحته ، ويضطرب قلبه حباً وخوفاً .. عمر نفسه يقدم تلك الأمثلة الحاسمة على تكوينه العملي وعلى أن المسلم إذا ما تحمل مسؤولية في يوم من الأيام ، فإن ادراكه الإيماني المسؤول يرفض ان يجنح يوماً باتجاه الداخل مهملاً الحركة في الخارج على سطح الواقع والعمل والسلوك ، أو أن يميل يوماً باتجاه الخارج مهملاً تجربته الباطنية وتيار إيمانه العميق وحسّه الديني

---

(٥٢) ابن عبد الحكم ص ٤٧ .

(٥٣) ابن سعد ٥-٢٥٦ .

(٥٤) المسعودي : مروج الذهب ٣-١٨٤ — ١٨٥ .

الذي هو بمثابة الأساس لكل حركة وانجاز في الخارج . ومن ثم — وهذا هو المهم — يتقدم عمر ، ليردّ بتوازنه هذا ، على كل المتمزقين نفسياً وفكرياً ، والذين تأخذهم الدهشة كيف ان انساناً بلغ قمة تجربته الروحية ، وسبر أغوارها الباطنية ، يتحمل مسؤوليته كاملة تجاه الخارج ، فلا ينسى هذه المسؤولية لحظة بل يتقدم ليتصدّى لها بعزيمة تكسر الصخر وتفل الحديد ؟! ذلك ، ثم ان تجربته الروحية — لودرى هؤلاء — هي التي يبني عليها الإسلام صرح خضارته السامق في أمداء الزمان والمكان .

إن هذه الصورة عن ايجابية عمر وواقعيته ، تنقلنا بالضرورة إلى الجانب الآخر منها : المرونة والذكاء . يدخل ابنه عليه يوماً وهو في قائلته ، فيوقظه ، ويدور بين الابن والأب هذا الحوار :

الابن : ما يؤمنك في منامك ، وقد رُفعت إليك مظالم لم تقض حق الله فيها ؟

الأب : يا بني ان نفسي مطيّتي ، ان لم أرفق بها لم تبلغني !! اني لو اتعبت نفسي واعواني لم يك ذلك إلا قليلاً حتى اسقط ويسقطوا !! واني لاحتسب في نومتي من الأجر مثل الذي احتسب في يقظتي !! ان الله جل ثناؤه ، لو أراد ان ينزل القرآن جملة لانزله ، ولكنه انزل الآية والآيتين ، حتى استكنّ الإيمان في قلوبهم ..

الابن : ؟؟

الأب : يا بني .. ما مما أنا فيه أمرٌ هو أهم إليّ من أهل بيتك (الأمويين) هم أهل القدرة والعدد ، وقبلهم ما قبلهم . فلو جمعت ذلك في يوم واحد خشيت انتشاره علي . ولكني انصف الرجل والاثنين ، فيبلغ ذلك من ورائه ، فيكون انجح له [٥٥] .

ويعرض ابن عبد الحكم قطعة أخرى من حوار ثانٍ بين الأب والابن ، تكمل القطعة الأولى التي قدمها لنا ابن الجوزي ، يسأل الابن أباه : لماذا تؤخر بعض الأمور ؟ فيجيب الأب : والله ما استطيع ان اخرج لهم شيئاً من الدين

---

(٥٥) ابن الجوزي ص ١٠٦ .

إلا ومعه طرف من الدنيا استلين به قلوبهم خوفاً ان ينخرق علي منهم ما لا طاقة لي به !! [٥٦] .

في هذين الحوارين يقدم لنا عمر فقهه الحاذق في ادارة الحركات الانقلابية وتسيير البرامج التي تستهدف اسقاط الظلم والاستغلال ونشر العدل والمساواة « إني لو أتعبت نفسي واعواني لم يك ذلك إلا قليلا حتى اسقط ويسقطوا » . ان طاقة الإنسان محدودة ، وان القابلية على تحمل الجد الصارم لها حدودها هي الأخرى . والإنسان في تقبله لالتزاماته في حاجة ضرورية إلى وقت كاف لتمثل هذه الالتزامات من الداخل وتحويلها إلى مبادىء وقيم ممزوجة بدم الإنسان وأعصابه ، ومتشكلة في بنيته وخلاياه. وبدون هذا سوف لن تجتاز هذه الالتزامات حدود الإنسان الباطنية ، وستظل هناك مكدسة على اعتاب الحس الخارجي ، وطالما ظل هذا التكديس يزداد ثقلا يوماً بعد يوم ، فسوف يأتي يوم — لا محالة — يسقط فيه الإنسان تحت وطأة هذا الثقل المتزايد غير المتمثل ، كالطعام الذي لا تستسيغه الأجهزة الهضمية ولا تتمثله الخلايا .. من أجل ذلك انزل الله قرآنه مفرقاً ليقرأه الرسول العظيم على الناس على مُكث ، ومن أجل ذلك نزل القرآن — هكذا — تنزيلا .. ولم يعط لمحمد نظرية كاملة « محفوظة بين دفتي كتاب . كان المسلمون الأولون يتلقون الآية والآيتين في مناسباتها الحيوية ، ومن ثم يجدون أمامهم من الوقت ما يتيح لهم تمثل هذه الآيات وتحويلها في بنيانهم وكينونتهم إلى دم وأعصاب . بينما ظلت كل الجماعات الأخرى التي تلقت مبادىء ونظريات جاهزة ، معروضة في كتاب ، ظلت تنوء بها كحمل ثقيل لا يتعدى وجود الإنسان الخارجي . وما أروع القرآن الكريم ، وما أشدّ اعجازه ، عندما يصوّر هذا التكريس الذي مارسه احبار بني صهيون تجاه شعبهم ، بان كلا منهم غدا « كالحمار يحمل اسفاراً » .. الحمار الذي لا يعي ما يحمل ولا يتمثل ما تقوله سطور الأسفار.. وأنى للحمار الذي ان يعي ويتمثل وهو لا يستطيع حتى مجرد القاء نظرة على ما يحمله من اسفار ؟!

---

(٥٦) ابن عبد الحكم ص ٦٠ .

هكذا ينبثق فقه عمر الإداري ، بمفهومه العقيدي ، عن تصور كامل لابعاد الحركة الإسلامية ، وطبيعة سيرها من يوم انقلابها على عهد رسولهاالعظيم عليه السلام .

وماذا يلفتنا بعد ، من حوار عمر مع ابنه ؛ تلفتنا عبارته « ... لكني أنصف الرجل والاثنين فيبلغ ذلك من وراءه فيكون انجح له » . ان عمر هنا يؤكد على فاعلية (الانجاز) وعلى دوره في تحقيق الانقلاب .. فكثيرون هم أولئك الذين طرحوا اقوالاً أعلنوا فيها عن عزمهم على إحداث ثورة حقيقية ، انقلاب يجتث كل الجذور العفنة ، ويبدأ بالزرع من جديد .. لكن هؤلاء ما لبثوا أن سقطوا وسقطت مبادؤهم لأنهم كما قلنا : طرحوا اقوالاً .. أما عمر ، هذا الفقيه الحاذق ، فإنه يريد ان يطرح أفعالاً . ولا يطرحها هكذا بالعنف والإكراه ودونما تخطيط ، وإنما ينصف الرجل والاثنين فيبلغ ذلك من وراءهما ، حتى يسري الانقلاب في نفوس الأمة أنى كانت ، سريان النار في الهشيم . ثم ان عمر ، هذا الذكي المرن ، لم يشأ ان « يخرج شيئاً من إلا ومعه طرف من الدنيا يستلين به القلوب » ، ولا يمكن لأحد ان يقول ان هذا يمثل تنازلاً من عمر بن عبد العزيز عن أهداف ثورته الشاملة ، صوب اصلاح جزئي يقوم على الترقيع .. لانا ما عرفنا عمر ، منذ حمل مسؤولية أمته ، يسعى إلى التنازل ، ولو شبراً واحداً ، عن الأهداف التي طرحها القرآن والسنة . ولكنه هنا يقدم فقه الأسلوب ، الأسلوب الحيوي الذي تتأتى به تلك الأهداف كاملة .. ان الضغط المستمر يولد الانفجار ، ومهما كان سخف هذا الأنفجار وعبثه ، فإنه لا بدّ وان يحرق ويدمّر .. وإذا كان بامكان القادة والمسؤولين تجاوز هذا الحريق وهذا الدمار عن طريق التزام اسلوب حيوي ينسجم وبنية الإنسان النفسية ، فلماذا لا يسلكوه ؟!. لقد قال له ابنه يوماً : يا أمير المؤمنين انقدْ لأمر الله وان جاشته بي وبك القدور . فماذا كان جواب الخليفة المرن : يا بني : ان بادهتُ الناس بما تقول احوجوني إلى السيف ،

ولا خير في خير لا يحيا إلا بالسيف ، لا خير في خير لا يحيا إلا بالسيف ! ![57]

ان خليفة بهذه المرونة وهذا الذكاء لا يمكن أن يخدع عن أهدافه يوماً .

وما أروع ان نقرأ معاً هذه الحادثة : كتب إليه عامله الوليد بن هشام — وكان مرائيا — خديعة منه للخليفة ، وتزيّناً بما هو ليس عليه : إني قدرت نفقتي لشهر فوجدتها كذا وكذا درهماً، ورزقي — هذا — يزيد على ما أحتاج إليه . فإن رأى أمير المؤمنين ان يحطّ فضل ذلك !! قرأ عمر الكتاب وأدرك مراميه في الخطوة فالتفت إلى جلسائه قائلاً : أراد الوليد أن يتزيّن عندنا بما لا أظنه عليه ، ولو كنت عازلاً أحداً عن ظن لعزلته ! ! ثم ما لبث ان أمر فعلاً بخفض راتبه إلى الحد الذي طلبه هو !! كتب إلى يزيد بن عبد الملك — ولي عهده — ان الوليد كتب إلي كتاباً أكثر ظني أنه تزين — فيه — بما هو ليس عليه . ولو امضيت شيئاً على ظني ما عمل لي أبداً ، ولكنني آخذ بالظاهر ، وعند الله علم الغيوب !! فانا اقسم عليك — ان حدث بي حادث وأفضى أمر الخلافة إليك ، فسألك ان ترد إليه رزقه ، وذكر انني نقصته — ألا يظفر منك بهذا أبداً ، فإنما خادع به الله ، والله خادعه . وما أن توفي عمر حتى صدق حدسه ، إذ ما لبث الخليفة الجديد ان تلقى كتاباً من الوليد يعلمه فيه ان عمر قد نقص وظلمه !! فغضب وأمر بعزله وتغريمه كل ما جرى عليه من رواتب وأرزاق منذ تعيينه حتى عزله ، ولم يل بعد ذلك عملاً حتى وفاته !! [58] .

وشبيه بهذه الحادثة ما قام به عمر من عزل يزيد بن أبي مسلم ، عامله على افريقية ، لما كان يمارس من الظلم والجور والتجبّر ، رغم أنه كان يغطي اسلوبه هذا بالاكثار من الذكر والتسبيح !! فكان يأمر بالقوم فيحضرون بين يديه ويطلب تعذيبهم وهو يقول : سبحان الله والحمد لله ، شد يا غلام موضع كذا وكذا ، من مواضع التعذيب ، لا إله إلا الله والله أكبر ، شد يا غلام موضع كذا وكذا ... ولكن هذا الزيف وهذا الخداع لم يفت الخليفة الذكي

---

(٥٧) ابن الأثير : الكامل ٥-٦٥ — ٦٦ .

(٥٨) ابن عبد الحكم ص ١٥٣ .

فكان كتاب عزل ذلك العامل من أوّل الكتب التي أصدرها أثر تسلمه الخلافة[٥٩]

ومن قبل كان جده العظيم ، عمر بن الخطاب يقول (لست بالخب[٦٠] ولا الخب يخدعني) .. وأنى لمسؤول مسلم ، ينظر بنور الله ، أن يُخدع ، أو ان يؤخذ عليه الطريق على حين غرّة ؟!

(٥٩) ابن عبد الحكم ص ٣٨ .
(٦٠) الخب : المخادع .

الفصل الخامس

التربية والتثقيف

« فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا
في الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ،
لعلهم يحذرون » .

التوبة ١٢٢


صفحة فارغة

لم يترك عمر بن عبد العزيز ميداناً من ميادين العمل والكفاح إلا أدلى بدلوه فيه : رسم المشاريع ، وحدد الخطط ، وأشار إلى الأهداف .. وسار بما يحيط به من امكانات أمة متحضرة فتية ، حثيثاً ، صوب تلك الأهداف . ان الشخصية الايجابية الفعالة (للمسؤول المسلم) تتبدّى ، هكذا ، واضحة في حياة عمر . انه يريد ان يصبغ كل جبهة بصبغة الله ، وان يشد كل فاعلية إلى مصادرها الأصلية من القرآن والسنة ، وان يرسي أسس الدولة الإسلامية وحضارتها على قواعد العقيدة التي تقوم على شهادة (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) .

وها نحن معه .. لحظات .. وهو يعمل — مع مربي الأمة ومعلميها — في ميدان التربية والتوجيه والتثقيف .. ودائماً ننطلق مبتدئين بوجوده هو .. فتلك هي القاعدة التي أكدها الرسول عليه السلام طيلة ثلاث عشرة عام من عمر الدعوة : ان يبدأ الإنسان ثورته من الداخل ، ان يقوم بعملية تغيير داخلي سماها الرسول عليه السلام: الجهاد الأكبر . ومن ثم يعلن ثورته على القيم والأوضاع والقيود الخارجية .. وسيرى آنذاك فقط ، كيف ستؤتي ثورته ، كلها ، وكيف سيشهد التاريخ انقلاباً حقيقياً تتوازن فيه القيم الخارجية والباطنية على السواء .. وكيف ان الثورة الأصيلة في كل ميدان هي تلك التي تقوم على ما يمكن ان نسميه (التغيير الداخلي — الوجداني) .. وان أية ثورة لا تقوم إلا

على الفراغ ، وعلى ارادة التحطيم الخارجي فحسب ، دون إحداث هذا التغيير الداخلي ، سوف لن تنتهي إلا بالفشل ، لأن الله سبحانه (لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) . وما كان لعمر – إذن – هنا في ميدان التربية والتثقيف إلا أن يبدأ عملية التغيير الداخلي هذه في نفسه هو ، بمعنى آخر : أن يكون مثقفاً كي يمارس التثقيف ، وان يكون (القدوة الحية الصالحة) كي يمارس التربية .

وقد عرفنا في تجوالنا عبر الصفحات الماضية ، كيف تحققت (القدوة الحية الصالحة) في حياة عمر ، ونستطيع الآن ان نخمن ماذا يمكن ان يحدثه أي توجيه تربوي يمكن ان يمارسه عمر تجاه أمته ، بل تجاه أمم الأرض وقادتها وحكامها . ونحن لا زلنا نذكر قول البلاذري في (فتوح البلدان) .. « كتب عمر بن عبد العزيز إلى ملوك الهند ، يدعوهم إلى الإسلام والطاعة ، على ان يملكهم ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم – وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه – فاسلموا وتسموا بأسماء العرب » !!

ونضيف الآن رواية الطبري حيث يقول « كان الوليد – بن عبد الملك – صاحب بناء ، واتخاذ المصانع والضياع ، وكان الناس يلتقون في زمانه ، فانما يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع. فولي سليمان – بن عبد الملك – فكان صاحب نكاح وطعام ، فكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن التزويج والجواري ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز ، كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل ما وراءك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن ؟ ومتى تختم ؟ ومتى ختمت ؟ وما تصوم من الشهر ؟! »[1] .

ولنا ان نتصور – بعد هذين الشاهدين – الأثر الكبير الذي تركه الخليفة القدوة في حياة الناس الذين عاصروه .. انه استطاع – عن طريق انتصاره في الداخل – لا أن يكسب حكاماً وشعوباً إلى الإسلام فحسب ، بل – وهذا هو الانتصار الحقيقي – ان يعيد الأمة الإسلامية نفسها إلى تجربتها الروحية

(١) تاريخ الرسل والملوك ٦-٤٩٧ .

والفكرية ، وارتباطها الجماعي الدائب – عبر الأيام والليالي – بالله : صلاة وصياماً وتلاوة قرآن وذكراً لله ، وتفكيراً في خلقه ، وايماناً حياً دفاقاً يتفجر في وجدانهم عن هذا الاتصال الدائب بالله وملكوته . وتلك هي القاعدة – أو الخلفية – التي هيأت للأمة الإسلامية في عهد الرسول عليه السلام وخلفائه الراشدين ان تصنع المستحيل ، وان تنتقل بمدنية العالم خطوات كبيرة إلى الأمام بعد أن صبغتها بصبغة الله ، ورفعت في ميادينها راية (لا إله إلا الله) .. ان سليمان بن عبد الملك – مثلاً – لم يكن القدوة الصالحة ، لأنه لم يتمكن من الانتصار في معركة الذات ، فظل الطعام والنساء يستعبدانه حتى رمقه الأخير.. والناس على دين ملوكهم .. وسرعان ما ينتشر تقليد جماعي يجعل اهتمامات أبناء الأمة تنصب على النساء والطعام .. أما هنا ، في عهد الخليفة الذي اجتاز معركة الذات بنجاح منقطع النظير فان القدوة الصالحة الحية تحققت فعلاً ، وأتت اكلها في حياة الناس .

ولنا الآن ان نعرف شيئاً عن عمر (المثقف) لكي نستعرض – من ثم – بعض مشاريعه ومنجزاته في هذا الميدان . لقد هيأت الظروف لعمر – مذ كان طفلاً يرعاه أبوه عبد العزيز بن مروان أمير مصر – أوضاعاً ممتازة للتعليم والتثقيف ، وكان هو قد أعرب عن حرصه على العلم وحبه للأدب منذ تفتح وعيه للحياة[٢]، فقد عكف – منذ صباه وهو بعد في مصر – على مجالسة الصحابة والتابعين ورواة الحديث والاستماع إلى الشعر والأدب ، حتى قيل ان مجلسه كان ندوة للفقهاء والعلماء والأدباء . وحفظ القرآن وهو بعد صغير ، ثم ما لبث أبوه ان أرسله إلى المدينة لطلب العلم ، فتفقه في الدين ، وروى الحديث ، وعكف على دراسة الأدب ونظم الشعر[٣] ، كما قام باتصالات عديدة بشيوخ المدينة ، تمكن عن طريقها ان يبلغ شأواً بعيداً في ميادين الفقه والحديث[٤] .

---

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٩-١٩٣ .
(٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ١-٣٢٥ .
(٤) علي ابراهيم حسن : التاريخ الاسلامي العام ص ٣٠٨ .

ظل عمر يعمل في هذا الميدان ، وينهل من موارد المعرفة الإسلامية : فقهاً وقرآناً وحديثاً ، وتفسيراً وعقائد وتشريعاً ، حتّى بلغ من علو كعبه واستبحاره في العلم ان قيل : كانت العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة[٥] ، وحتّى قال عنه الذهبي في (تذكرة الحفاظ) « كان عمر يقرن بالزهري في علمه[٦] » ، وقال مجاهد « أتيناه لنعلمه ، فما برحنا حتّى تعلمنا منه[٧] !! » وقال ميمون بن مهران « كان عمر معلم العلماء[٨] » ، وقال رجاء بن حيوة « ما رأيت أفصح من عمر »[٩] ، وقال أحد عماله « ما التمسنا علم شيء إلا وجدنا عمر أعلم الناس باصله وفرعه[١٠] » ، ويبلغ من تقدير الإمام أحمد بن حنبل (رضي الله عنه) لعمر أن يقول عنه « لا أدري قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر[١١] » ، ويحكي الليث كيف ان أحد أصحابه رأى سليمان ابن يسار خارجاً من عند عمر ، فسأله : أمن عند عمر خرجت ؟ قال : نعم! قال : تعلمونه ؟ قال : نعم ! قال : هو والله اعلمكم !! [١٢] .

ولولا الخلافة وتكاليفها ، لكان عمر قد قطع خطوات واسعة أخرى في هذا الميدان ، ولأصبح من العلماء المعدودين ومن الفقهاء المشهورين[١٣] . ورغم ذلك فإن عمر ما إن تولى أعباء مهمته كخليفة للمسلمين ، حتّى بدأ بتحويل مركز حكمه إلى ساحة يجتمع فيها علماء الأمة وربانيوها ، وأبعد كل الشعراء والمرتزقة الذين كان البلاط يعج بهم .. ومن ثم بدأ نشاطاً واسع النطاق في هذا الميدان ، أبرزه تلك العناية العظيمة التي أولاها (علم الحديث) الذي

---

(٥) حسن ابراهيم حسن : تاريخ ١-٣٢٥ .

(٦) الذهبي : تذكرة الحفاظ ص ١٠٦ .

(٧) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٨) ابن سعد : طبقات ٥-٢٧١ .

(٩) ابن كثير : البداية والنهاية ٩-١٨٣ .

(١٠) المصدر السابق ٩-١٩٤ .

(١١) المصدر السابق ٩-١٩٢ .

(١٢) ابن كثير : البداية ٩-١٩٤ .

(١٣) الندوي : رجال الفكر والدعوة في الاسلام ص ٤٣ .

يمثل السند اليقيني الثاني لعقيدة المسلمين وشريعتهم ووجودهم . يقول الندوي : « وقد أراد الله ان يكون له فضيلة السبق في هذا الميدان ، كما كان لجده العظيم عمر بن الخطاب فضيلة السبق لجمع القرآن - فإنه رضي الله عنه هو الذي أشار على أبي بكر الصديق رضي الله عنه بجمعه - وقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى أحد كبار علماء الحديث ، وأوعية العلم في عصره : أبي بكر بن محمد بن حزم ان (انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه ، فاني خفت درس العلم وذهاب العلماء) ، وأشار عليه بالعناية الخاصة بمجاميع عمرة ابنة عبد الرحمن الأنصارية وقاسم بن محمد بن أبي بكر ، لاهميتهما . ولم يكتف- رحمه الله - بأبي بكر بن حزم ، بل كتب إلى عماله بالأقاليم : (انظروا إلى حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه) .. »[14] . كما أصدر منوراً يأمر فيه أهل العلم ان ينشروا العلم في مساجدهم « فإن السنة كانت قد اميتت »[15] . ومن ثم فإن المسلمين سيظلون مدينين لعمر في هذا الميدان العظيم : حيث أقبل على تدوين العلوم الإسلامية المتمثلة بالحديث ، بعد أن تعرض للضياع ، لانصراف الناس إلى السياسة والإدارة والحروب[16] .

لم يكن عمر بالإنسان الذي تستهويه المشاريع الكبرى فيقف عند حدود الخيال لا يتعداه .. بل هو - بما عرف عنه من عملية ايجابية - سرعان ما يحيل الخيال الواسع هذا إلى واقع يشهده التاريخ ، فيمهّد له الظروف ، ويحيطه بالضمانات العملية ، ويهيىء له من الأسباب ما يجعله يستحيل إلى واقع مشهود.. وها هو في مجال هام كهذا يضع ما يسمى اليوم بـ (قانون التفرغ) ، حيث تتولى الدولة كفالة عدد من العلماء والمفكرين ، كي تتيح لهم التفرغ الكامل لانجاز المشاريع الفكرية التي يعكفون عليها اختياراً أو بتوجيه من الدولة .. فيجري الأرزاق على علماء الجمع والحديث هؤلاء ، ويرتب لهم الرواتب

---

(١٤) الندوي ص ٤٢ - ٤٣ ، عن تاريخ اصبهان لأبي نعيم .
(١٥) ابن الجوزي : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٤ .
(١٦) المصدر السابق : المصدر السابق ص ٤٢ .

ليتوفروا على نشر العلم ومؤونة الاكتساب ، فكان يمنح من بيت المال مبلغاً قدره مائة دينار لكل من انقطع إلى مسجد جامع ، في أي بلد اسلامي ، لغرض التفقه ونشر العلم ، وتدريس القرآن وتلاوته[17] . وكتب إلى والي حمص : « انظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه ، وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا ، فاعط كل رجل منهم مائة دينار يستيعنون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين ــ حين يأتيك كتابي هذا ــ وان خير الخير اعجله والسلام »[18]. وفي رسالة أخرى لوالي حمص ، يزيد الخليفة مشروعه هذا توضيحاً : « مر لأهل الصلاح من بيت المال بما يغنيهم ، لئلا يشغلهم شيء من تلاوة القرآن وما حملوا من الأحاديث » [19] .

ويذكر محمد بن عبد الحكم ان عمر بن عبد العزيز بعث يزيد بن أبي مالك والحارث بن محمد إلى البادية ليعلما الناس السنة ، واجرى عليهم الرزق ، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث وقال : ما كنت لاخذ على علم علمنيه الله أجراً . فذُكر دلك لعمر فقال : ما نعلم بما صنع يزيد بأساً ، وأكثر الله فينا مثل الحارث [20] . وقد عبر عمر بهذا الجواب عما يجب ان يتحلى به الحاكم المسلم من مرونة فكرية ، وعدم جمود على الأشكال ، حيث اعلن ان أخذ الأموال لقاء الخدمات العلمية أمرٌ لا بأس به ، وسأل الله ــ من جهة أخرى ــ ان يكثر أولئك الذين يقومون بهذه الخدمات دون أجر إلا أجر الله !!

ونشهد موقفاً آخر من المواقف التي تعبر عن هذه المرونة لدى استدعائه عامله على خراسان ، أثر سماعه أنباء تشير إلى عدم التزام هذا العامل العدل الكامل مغ أهالي خراسان . فقد أسرع هذا بمغادرة ولايته تنفيذاً لأمر الخليفة . وعندما وصل دمشق ، ورأى الخليفة على وجهه سيماء التعب والاجهاد سأله :

---

(١٧) ابن كثير ٩-٢٠٧ .

(١٨) ابن الجوزي : سيرة عمر ص ٩٥ .

(١٩) المصدر السابق ص ١٠٣ .

(٢٠) ابن عبد الحكم : سيرة عمر ص ١٦٠ .

متى خرجت ؟ أجابه : في شهر رمضان ، فرد عليه الخليفة : قد صدق من وصفك بالجفاء !! هلا اقمت حتى تفطر ، ثم تخرج ؟![٢١] . ثم لنتأمل معاً قول عمر : « ما يسرني لو أن اصحاب محمد ﷺ لم يختلفوا ، لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة !! »[٢٢] .

لم تشغل أعباء الخلافة عمر بن عبد العزيز عن توجيه الاهتمام الكافي في ميدان التربية والتعليم ، فهو لم يكتف بتوجيه العلماء إلى أداء المهام الأساسية الملقاة على عاتقهم ، وتهيئة الظروف العملية لانجاز هذه المهام ، بل أسهم بنفسه في تقديم معطياته العلمية للامة الإسلامية في شتى فئاتها : فعقد مجالس الحديث ، وروى عن المحدثين الثقاة من التابعين : أبيه وأنس وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب وابن قارط ويوسف بن عبد الله بن سلام وعامر بن سعد وسعيد ابن المسيب وعروة بن الزبير وأبي بكر بن عبد الرحمن والربيع بن سمرة وآخرين . ونقل عنه الحديث علماء كبار من التابعين كالزهري ومحمد بن المنكدر ويحيى بن سعيد الأنصاري ومسلمة بن عبد الملك ورجاء بن حيوة وآخرون[٢٣] . كما قام بجمع الأحاديث الموثوقة المسندة ، ودونها في (مسند) يعرف باسمه حتى اليوم ، وبعث برسالة إلى عماله أوصاهم فيها بالاحتياط في تنفيذ العقوبات ، وشرح لهم نظام التعزير الإسلامي[٢٤] . وكتب إلى أحد عماله « ان للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً ، فمن استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان . فإن اعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها ، وان مت فما أنا على صحبتكم بحريص »[٢٥] .

وكان يقتطع من أوقات راحته في الليل ، ساعات لاقامة الندوات العلمية ، وفتح باب النقاش الحر ، الذي أدرك عمر كم هو حيوي للتوصل إلى الحقائق

---

(٢١) الطبري : تاريخ ٦-٥٦٠ .

(٢٢) ابن الجوزي : سيرة عمر ص ٢٣٨ .

(٢٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٥٢ .

(٢٤) ابن عبد الحكم : سيرة عمر ص ٨١ – ٨٣ .

(٢٥) صحيح البخاري ، كتاب الايمان .

المجردة . وقد أعرب عن ادراكه العميق لما يتأتى عن التقاء الأفكار من نتائج فكرية ايجابية ، عندما سأله رجاء بن حيوة : يا أمير المؤمنين ، نهارك كله مشغول ، وهذا جزء من الليل وانت تسمر معنا ؟! وجاءه الجواب من معلم العلماء : يا رجاء ، إن ملاقاة الرجال تلقيح لألبابها ، وان المشورة والمناظرة باب رحمة ومفتاح بركة ، لا يضل معهما رأي ، ولا يقعد معهما حزم »[٢٦]. (وجدت ملاقاة الرجال تلقيح لالبابها) ، لقد أصاب عمر كبد الحقيقة : ان صدام الأفكار بالأفكار ، ومقارعة الحجة بالحجة ، وتقابل البرهان بالبرهان يحرك الفكر ، ويعمقه ، وفوق هذا وذاك يحدث لقاحاً وتمخضاً عن مزيد من الأفكار ..

أدرك عمر المثقف ، المسؤول ، قوة الكلمة ، وانها إذا ما انبثقت عن قلب يتفجر بالإيمان ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، غدت اعظم نفعاً وأكثر فاعلية من كثير من الوسائل الأخرى التي يتوسل بها المرشدون لتوجيه الناس صوب ساحات الخير واليقين .. وكتب إلى القرظي ، أحد معلمي الأمة « ان الموعظة كالصدقة ، بل هي أعظم أجراً وأبقى نفعاً واحسن ذخراً ، وأوجب على المرء المؤمن حقاً . للكلمة يعظ بها الرجل المؤمن أخاه ، ليزداد بها في هدى ، رغبة ، خير من مال يتصدق به عليه ، وان كان به إليه حاجة . ولئن ينجو رجل بموعظتك من هلكة ، خير من ان ينجو بصدقتك من فقر . فعظ من تعظه لقضاء حق عليك ، واستعمل نفسك حين تعظ !! وكن كالطبيب المجرب العالم الذي قد علم انه إذا وضع الدواء حيث لا ينبغي اعنته واعنت نفسه .. واعلم انه لم يجعل المفتاح على الباب لكيما يغلق فلا يفتح ، أو ليفتح فلا يغلق ، ولكن ليغلق في حينه ويفتح في حينه »[٢٧] .

كما أدرك عمر حقائق جديرة بالاعجاب في ميدان التربية ، التربية التي تسعى إلى تكوين طفل مسلم موحد الذات والأهداف ، غير منقسم على نفسه

---

(٢٦) اليعقوبي : تاريخ ٢-٣٠٦ ، ك وانظر ابن عبد الحكم : سيرة عمر ص ١٢٤ .

(٢٧) ابن عبد الحكم : سيرة ص ١٣٢ - ١٣٣ .

بين القول والعمل ، أو بين الواقع والمثال .. طفل ينمو ويكبر وهو يحس ان قراءة القرآن والتشبع بأدبه ترتبط ارتباطاً شرطياً بركوب الخيل والتراشق بالنبال وأن الفطام – منذ هذه المرحلة – عن الترف والملذات والملاهي – هو الذي يخلق الرجال . وتلك – لعمري – أهداف ارتدت عنها خائبة ، جل البرامج التربوية الحديثة . ولنقرأ معاً كتاب لعمر إلى مؤدب أولاده – على سبيل المثال – « .. إني اخترتك على علم مني بك لتأديب ولدي ، فصرفتهم إليك عن غيرك من موالي وذوي الخاصة بي . فحدثهم بالجفاء فهو أمعن لاقدامهم ، وترك الصحبة ، فإن عادتها تكسب الغفلة ، وقلة الضحك ، فإن كثرته تميت القلب. وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان .. فانه بلغني ، من الثقات من أهل العلم ، ان حضور المعازف واستماع الأغاني واللهج بها ، ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشب الماء .. وليفتتح كل غلام منهم بجزء من القرآن يتثبت في قراءته ، فإذا فرغ ، تناول قوسه ونبله ، وخرج إلى العرض حافياً فرمى سبعة ارشاق ثم انصرف إلى القائلة »[٢٨] .

* * *

ان أبرز ما يلاحظ في الرسائل المتتالية ، التي كان عمر يبعث بها إلى عماله وموظفيه ، هو التأكيد على ربط العلم بالعمل ، فلا عمل بلا علم ولا علم بلا عمل ، فهذا هو المفهوم التربوي الذي جاء به الإسلام، وخصص القرآن والرسول عليه السلام من أجله حشداً من الآيات والأحاديث ، وتلك هي ميزة الإسلام عن سائر المبادىء الوضعية التي تعاني ثنائية وازدواجاً في طبيعة العلاقة بين العلم والعمل ، هذه الثنائية التي تتبدى في دراساتهم ومشاريعهم النظرية ، وفي واقعهم العملي .. فهناك دائماً جدار فاصل بين المذاهب وبين الأعمال . والذي يقرأ معطيات الوضعيين الفكرية والفلسفية ، منذ عهد افلاطون وحتى العصر الحديث يلاحظ هذه الثنائية . وما من شك في ان هذا الفصل أمر محتم في كل مبدأ لا يخاطب كينونة الإنسان ، ولا يتعامل مع واقع الحياة ،

(٢٨) ابن الجوزي : سيرة عمر ص ٢٥٧ – ٢٥٨ .

ولا يرسم الخطوات الحصيفة لربط الأساس بالمسببات ، والأفكار بالأعمال .

ان جانباً من أهم جوانب اعجاز الإسلام — بما أنه مبدأ إلهي — هو هذا الاتصال الطبيعي العضوي بين التوجيه والتنفيذ ، أو بين العلم والعمل . لأن الله — الذي هو سبحانه أدرى بخلقه — كان يخاطب في رسالاته دائماً فطرة الإنسان وكينونته ، لا جانباً واحداً منه فحسب ، وكان — سبحانه — قد هيأ لمبادئه كل امكانات التعامل مع الواقع البشري للتسامي به إلى الآفاق التي شهدها — دائماً — تاريخ الأنبياء والمؤمنين . وقد أدرك الأنبياء — عليهم السلام — ومن بعدهم خلفاؤهم وتلاميذهم ، ان اخطر ما يمكن ان يصيب اتباع ديانة من الديانات هو ايجاد هذا الفصل الخطير بين العلم والعمل ، وخلق هذه الثنائية بين التوجيه والتنفيذ لأن ثنائية كهذه — مهما كانت درجتها — كفيلة بتجميد فاعلية المبادىء الأساسية للأديان من جهة ، وتمزيق وحدة الذات الإنسانية من جهة أخرى ، بحيث لا تغدو قادرة — أبداً — على التوحد واستعادة الانسجام والأخذ عن المبادىء السابقة . هذا ما حدث لبني إسرائيل ، ولكثيرين غيرهم من اتباع الديانات ، فضلاً عن أن ثنائية كهذه امرٌ محتّم بالنسبة لكل المبادىء الوضعية التي تقع دائماً في خطأ اهمال الإنسان كانسان ، ومخاطبة جانب واحد منه فحسب .. ومن ثم تفقد أية قدرة على تربيته وتحريكه .

ثم ان من الأمور المسلم بها — من جهة ثانية — هي ان العمل دون قاعدة علمية توجيهية ، لا يأتي بأية نتيجة جادة ، وهذا العمل — وان كان يتّسم أحياناً بطابع الشعبية والجماهيرية — إلا ان نتائجه تأتي كالزبد الذي يخدع فورانه الظاهر كثيراً من الناس ، لكنه سرعان ما يذهب جفاء ولا ينفع الناس .. وتلك هي حركات الفوضى العديدة التي شهدها التاريخ ، والتي انبثقت عن أعمال مرتجلة لا تستند إلى أية قاعدة من علم أو توجيه .. كيف انطلقت كمياه الفيضان التي تحطم السدود وتسحق في طريقها كل عناصر الحياة والنماء ، وتنشر الموت والدمار والخراب .. ثم ما تلبث ان تبتلعها اغوار الأرض ، أو يمتصّها لهيب الشمس المحرق ، فلا تتكشف — بعد دلك الهدير — إلا عن أرض

تتحدّى ارادة التخريب والدمار عن غير علم ، وتنتظرْ الأيدي العاملة التي تعرف كيف تستنبتها ، وتنشر فيها الخضرة والحياة ..

وها هو عمر بن عبد العزيز ، يحذّر الأمة الإسلامية ومسؤوليها من خطأ الوقوع في هذه الهاوية ، ويبعث برسائله المتتالية ، منددًا ، محذرًا ، طالبًا الالتزام الكامل بالتوحيد بين العلم والعمل . فيكتب إلى عبد الرحمن بن نعيم واليه على خراسان ، يقول : « ان العلم والعمل قريبان ، فكن عالمًا بالله عاملاً له ، فإن اقوامًا علموا ولم يعملوا ، فكان علمهم عليهم وبالا » ويبعث إليه : « أما بعد ، فاعمل عمل رجل يعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين »[٢٩] . ويعلن ان « من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح (!!) ومن لم يعد كلامه من عمله كثرت ذنوبه »[٣٠] . ويعم رسالة على عماله يحثهم فيها على اتباع ما أمر الله به ، واجتناب ما نهى عنه[٣١] . وهو في توجيهاته وأوامره هذه لعماله وموظفيه ، يريد أن يجعل من كل واحد منهم (القدوة الحية الصالحة) في الأقليم الذي يديره ، كي يقتدي به مواطنو ذلك الاقليم . كما يريد منهم تحويل الأجهزة والامكانات الإدارية التي بأيديهم إلى وسائل تربوية تستهدف الربط الدائم ، والمراقبة المستمرة لتحقيق مفهوم التوحد بين العلم والعمل وقد رأينا هذا واضحًا لدى استعراضنا منجزات عمر في ميدان الإدارة .

ومسائل أخرى كثيرة — لا مجال لعرضها — في ميادين تثقيفية وتوجيهية شتى ، كان عمر يصدرها إلى كل الجهات ، فضلاً عن رسائله في ميادين الحرب والسياسة ، والإدارة والاقتصاد ، تبين كلها عن شيئين أساسيين : أولهما ثقافة عمر الواسعة ، وذكاءه الفذ ، وادراكه العميق لأساليب التعليم والتربية والتفكير . وثانيهما حرصه العجيب على خلق اجواء ثقافية حرة ،

---

(٢٩) الطبري : تاريخ ٦-٥٦٧ .

(٣٠) المصدر السابق ٦-٥٧٢ .

(٣١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر ص ٩٣ .

وحركة علمية دائبة ، وحواراً فكرياً متصلاً بين كبار مثقفي الأمة وعلمائها وفقهائها ، تلك الأجواء التي جعلت عصر عمر ، الذي لم يتجاوز السنتين والنصف يعج بعدد كبير من أبرز العلماء والفقهاء والمفكرين، عدد لم يشهد مثيلاً له — كثرة وتركيزاً — أي عصر آخر مهما طال . وإليكم بعض الأسماء : خارجة بن زيد بن ثابت ، يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب ، أبو سلمة بن عبد الرحمن ، سالم بن عبد الله بن عمر ، القاسم بن محمد بن أبي بكر ، عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، محمد بن كعب القرظي ، عاصم بن عمر بن قتادة ، نافع مولى عبد الله بن عمر ، سعيد بن يسار ، محمد ابن الحارث التيمي ، عبد الله بن دينار ، الزهري ، عبد الله بن أبي بكر ، عطاء بن أبي رباح ، مجاهد بن جبير ، عكرمة مولى عبد الله بن عباس ، الشعبي سالم بن أبي الجعد ، حبيب بن أبي ثابت ، عبد الملك بن ميسرة الهلالي ، أبو اسحق السبيعي ، الحسن البصري ، ابن سيرين ، أبو قلابة ، عبد الله بن يزيد، عبد الملك بن يعلمه الليثي ، زيد بن نوفل ، علقمة بن عبد الله المزني ، رجاء ابن حيوة ، مكحول الدمشقي ، راشد بن سعد ، سليمان بن حبيب المحاربي، ميمون بن مهران ، يزيد بن الاصم ، أبو قبيل المعافري ، طاووس اليماني(٣٢) .

لم يأخذ الزهو عمر يوماً ، وهو معلم العلماء ، فيسعى إلى استغلال منصبه ليظهر أمام هذا الحشد العظيم من العلماء ، واقفاً على القمة .. وحاشاه .. ان دأبه ينصب على أن يكون معهم .. مع أبناء الأمة التي يرعاها في شتى المجالات في ميدان الحرب والسياسة كان عمر مع الجندي والمعارضة وفي ميدان الإدارة كان عمر مع أبناء الولايات حتى لو تاخمت بلادهم حدود الصين ، أو امتدت على سفوح البيرنيه .. في ميدان الاقتصاد والاجتماع مع المظلومين والفقراء والبائسين حتى يرفعهم إلى الكفاية .. وها هو — في هذه الساحة — عالمٌ من العلماء ، واحدٌ منهم ، يأخذ منهم ويعطيهم ، ويجتمع بهم اجتماع الرفيق برفاقه ، والندّ بانداده .. كان رضي الله عنه يعلم ان هؤلاء العلماء هم رؤوس الأمة المفكرة ، ومخططو برامجها العقائدية ، ورواد شرفها وامتيازها وتفردها

---

(٣٢) اليعقوبي : تاريخ ٢-٣٠٨ — ٣٠٩ .

على الأمم .. ومن ثم فإن المكانة والتقدير التي حظي بها كل منهم ، بلغت في عهد معلم العلماء شأواً بعيداً ..

ونحن نؤكد هذه الحقيقة ، نورد – على سبيل المثال – هذا الكتاب ، من بين عدد من الكتب والتأكيدات والأقوال ، لنختتم به ، في نفس الوقت ، صفحة مشرقة أخرى من خلافة المعلم : إلى عدي بن ارطأة عامل البصرة : « انك لن تزال تعنّي إلي رجلاً من المسلمين في الحرّ والبرد ، يسألني عن السنّة كأنك إنما تعظمني بذلك !! وايم الله لحسبك بالحسن (البصري) ، فإذا أتاك كتابي هذا فسل الحسن لي ولك وللمسلمين !! فرحم الله الحسن ، فإنه من الإسلام بمنزل ومكان ، ولا تقرئنه كتابي هذا !! »[٣٣] .. وتلك هي قمة التواضع التي ما بلغها يوماً علماء الأرض ومفكروها .

---

(٣٣) ابن الجوزي : سيرة عمر ص ١٠١ .


صفحة فارغة

الجنة .. يا حفيد ابن الخطاب

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون
علوّاً في الأرض ، ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين »
القصص ٨٣

مضت سنتان وخمسة أشهر على استخلاف عمر بن عبد العزيز : كل الأعمال العظيمة التي شهدناها معاً .. كل المنجزات الشاملة التي استعرضناها معاً .. كل الانقلابات التي شهدتها ميادين الحرب والسياسة والإدارة والاقتصاد والتربية والتثقيف التي استمليناها معاً .. ميداناً بعد ميدان ، وساحة بعد ساحة.. هذه كلها تمت على مدى سنتين وخمسة أشهر .. ان عمر اجتاز منحنى حياته صوب القمة .. وهو هناك ، صنع كل هذه المعجزات .. فأية قمة تدعوه إليها بعد هذا ، وهو في الأعالي ؟ وأية منزلة يمكن ان يحث الخطى إليها ، وقد خلف وراءه كل المواقع والمنازل ؟ ليس غير الجنة ما تتوق إليه نفسه اليوم .. فاليها إذن !! واسمعوه يقول ، وهو يحكي بكلماته قصة المنحنى الذي اجتازه إنسان ، صنع على عين الله ورعايته ، وسدد الإسلام خطاه .. اسمعوه يقول ، وكأنه يذكرنا بكل أولئك الأجداد العظام الذين سبقوه واعقبوه .. والذين اجتازوا — يحدوهم الشوق — منازل الإسلام والإيمان ثم التقوى فالاحسان .. اسمعوه يقول « ان لي نفساً تواقة ، لم تتق إلى منزلة إلا تاقت إلى ما هي أرفع منها ، حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة ، وانها اليوم قد تاقت إلى الجنة !! »[1] .

وما حدث بعد هذا معروف .. لقد مات عمر وهو ابن تسع وثلاثين سنة

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦١ .

مخلفاً وراءه المنحنى الشاق الطويل الذي بدأه يوماً وهو بعد في عز الشباب ، ثم ها هي روحه العظيمة تغادره إلى السماء وهو في عز الرجولة .. إننا هنا لا نكتب شعراً ولا أدباً ولا خيالاً .. ولكن الإنسان ينفعل بموقف أخيه الإنسان تشدّه دائماً القمم العليا ، وتعجبه أبداً القدوة العظيمة .. أفليس من حقه ، وهو يكتب عن شخصية كعمر بن عبد العزيز ، هذه التي صنعت الكثير الكثير في مدى عجيب من الزمن ، أليس من حقه ان يقول شيئاً مقتطعاً من شوقه ووجدانه ؟! وما قيمة التاريخ إذا لم تتغلغل في حناياه شرايين تتدفق بدم القلب والوجدان ؟! إن وصف حقائق التاريخ ، ومنجزات الأبطال ، جامدة ميتة كشواهد القبور ، لا تغني من التاريخ شيئاً .. انها خطوة أولية ليس إلا ، ولكن ما يجب ان يعقبها هو ان يفجر المؤرخ فيها الحركة والحيوية والعنفوان كي تتحرك لتحكي هي بنفسها ، شاخصة ، وكيف أخذت مكانها على مسرح التاريخ . إن عملية التاريخ يجب ألا تقف في مدى التسطيح ، يجب ان تعبر هذه المرحلة الأولى إلى مراحل أكثر عمقاً وتركيزاً ، يجب أن يبحث المؤرخ دائماً عن البعد الثالث ، البعد الحقيقي الذي يصنع التاريخ ويبعث الأبطال .

ونحن هنا ، بعد هذا البحث الطويل ، كنا نطمح إلى ادراك هذا البعد في حياة عمر .. وقد عرفناه .. انه دائماً يكمن في الداخل .. في ضمير الإنسان ووجدانه ، في معتقده ونظرته إلى العالم والأشياء ، بمعنى آخر في إيمانه . ولم يكن إيمان عمر إلا ذلك الذي يريده الله من المتفوقين : توتر روحيّ دائم ، كان يشده باستمرار إلى أعلى فأعلى ، حتى بلغ به قمة المنحنى (المنزلة التي ليس بعدها منزلة) : خليفة المسلمين ، وسلطان العالم ، وصانع المعجزات والعائد بالأمة الإسلامية ، بعد خضم من الفتن والظلمات ، إلى المجرى الأصيل الذي نافح الرسول العظيم عليه السلام كي يشقه لمراكب المسلمين في رحلة حياتهم ووجودهم وارتباطهم بالله .

وهاهو عمر الآن يتوق إلى الجنة..وارادة الله هي التي اختارت لحظات العنفوان هذه لكي تهبه ما كان يتوق إليه .. تماماً كما اختارت ، لحظات العنفوان

ذاتها ، لكثير من شهداء الإسلام على مدار التاريخ ..

ويبقى بعد هذا شيء لم يستطع أي من الذين تناولوا شخصية عمر ، قديماً وحديثاً ، أن يعرفوه : هل مات مقتولا بأيدي الذين خافوا على سلطانهم من محاولته استعادة النظام الشوري والاختيار .. أم ان موته جاء فجأة لكي تصعد الروح — التي أرهقها الكدح الطويل المركز ، والجهاد على جبهتي الداخل والخارج — إلى السماء وترتاح ؟! لقد استعرضنا فيما سبق من صفحات بعض القرائن التي ترجح الاحتمال الأول ، إلا أن هذا الترجيح لا يمكن أن يبلغ أبداً — بما هو مهيأ الآن على الأقل من نصوص — مرتبة اليقين !!

ونكتفي هنا باستعراض أهم الروايات في هذا المجال ، ونترك لمن يشاء ان يقارن ويرجح عله يصل إلى اليقين :

رواية تقول « مرض عمر من ليلته فمات من مرضه[٢] » ورواية أخرى تقول : « كان مرض عمر في دير سمعان .. وكان شكوه عشرين يوماً .. »[٣] ورواية ثالثة تذكر ان محمداً بن عبد الملك بن مروان سأل فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر : ما ترين بدأ مرض عمر الذي مات فيه ؟ فأجابت : أرى جل ذلك أو بدوّه الخوف !! [٤] ويحدثنا عبد الحميد بن سهيل ، في رواية أخرى قائلاً : « رأيت الطبيب خرج من عند عمر بن عبد العزيز فقلت : أرأيت بوله اليوم ؟ فقال : ما ببوله من بأس إلا الهم بأمر الناس » !! [٥] . أما أبو زيد الدمشقي فيقول : « لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعي له بطبيب ، فلما نظر إليه قال : الرجل — يعني عمر — قد سقي السم ، ولا آمن عليه الموت .. ثم سأل عمر : هل احسست بذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم قد عرفت

---

(٢) الطبري : تاريخ ٦-٥٧٠ .

(٣) المصدر السابق ٦-٥٦٥ — ٥٦٦ ، ابن الجوزي : سيرة عمر ص ٢٧٦ ، ابن الأثير : الكامل ٥-٥٨ .

(٤) ابن الجوزي ص ٢٧٦ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٧٦ .

حين وقع في بطني .. ولم يلبث عمر أياماً حتى مات »[٦] .

وقد أكد بعض المؤرخين المتأخرين كابن كثير[٧] والسيوطي[٨] رواية السم واضاف السيوطي تفاصيل أخرى جاء فيها ان بني أمية كانوا قد تبرّموا من عمر بسبب تشدده معهم وانتزاع الكثير من أملاكهم التي اغتصبوها ، فسقوه السم مستغلين اهماله التحرّز والحذر ، ويضيف — كذلك — ان عمر دعا الغلام الذي دسّ له السم ، وسأله ما الذي حمله على ذلك ؟ فأجاب الغلام : ألف دينار اعطيتها ، وان اعتق ! ! فطالبه عمر بها وردها إلى بيت المال وعفا عن الغلام[٩] .

ان تأكيد هؤلاء المؤرخين المتأخرين على رواية السم دفع « فلها وزن » إلى القول « ان المؤرخين القدماء الذين يعول عليهم لا يذكرون هذه الرواية التي لا تنم إلا عن الأسف من ان عمر المصلح قد اخترم وفارق الدنيا قبل الأوان ، وان النظام الذي كان سائداً قبله عاد من جديد »[١٠] . إلا أن حكم « فلها وزن » بهذا الصدد لا يؤخذ به بشكل جاد لأن اثنين من المؤرخين المتقدمين أوردا رواية السم ، وإذا كان أحدهما وهو اليعقوبي[١١] ممن لا يوثق بهم ، فمن المؤكد ان ابن عبد الحكم[١٢] هو من أكثر المؤرخين الذين تناولوا سيرة عمر وثوقاً . واغلب الظن ان عدم اطلاع « فلها وزن » على هذا المصدر هو الذي دفعه إلى اصدار حكمه هذا .

* * *

لا علينا من هذا كله ، فالأمر سواء ما دام عمر قد مات ، وتعالوا لنشهد

---

(٦) ابن الجوزي ص ٢٧٧ .

(٧) البداية والنهاية ٩-١٨٨ ، ٢٠٩ .

(٨) تاريخ الخلفاء ص ١٦٣ .

(٩) المصدر السابق ص ١٦٣ ؛

(١٠) الدولة العربية وسقوطها ص ٣٠٣ .

(١١) تاريخ اليعقوبي ٢-٣٠٨ .

(١٢) انظر سيرة عمر ص ١١٦ .

معاً اللحظات الأخيرة من حياه الراحل العظيم ، والكلمات الأخيرة التي نطق بها حفيد بن الخطاب .. تعرضها علينا زوجته البرّة فاطمة :

قالت : اشتد عدم استقراره من الألم ليلة ، فسهر وسهرنا معه ، فلما اصبحنا أمرتُ وصيفاً له يقال له (مرثد) فقلت له : يا مرثد كن عند أمير المؤمنين فإن كانت له حاجة كنت قريباً منه . ثم انطلقنا ، فضربنا برؤوسنا لطول سهرنا ، فلما انفتح النهار ، استيقظت فتوجهت إليه ، فوجدت مرثداً خارجاً من البيت نائماً ، فايقظته فقلت : يا مرثد ما أخرجك ؟ قال : هواخرجني قائلاً لي : اخرج عني !! فوالله اني لأرى شيئاً ما هو بانسٍ ولا جان . فخرجت فسمعته يتلو هذه الآية (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ، ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين)[١٣] . قال مرثد : فدخلت عليه فوجدته قد وجه نفسه (للقبلة) ، واغمض عينيه ، وانه ميت ، رحمه الله [١٤] .

---

(١٣) سورة القصص آية ٨٣ .

(١٤) الطبري ٦-٧٧٦ ، وانظر ابن عبد الحكم ص ١١٦ - ١١٧ ، وابن سعد : طبقات ٥-٣٠١ .

معالم على الطريق ...

وبعد .. فما الذي علمتنا إياه رحلتنا هذه مع عمر بن عبد العزيز الخليفة المسؤول ؟

ان هناك الكثير الكثير علمتنا إياه هذه الرحلة عبر حياة فذة مشحونة بالتوتر الروحي ، والانجاز التاريخي ، وارادة الأبطال المؤمنين .. ولا يمكننا باسطر معدودات ان نستعرض هذه التعاليم .. ولكن اشارات سريعة يمكن ان تقال هنا ، ويبقى المجال مفتوحاً دائماً للاقتباس من السفر العظيم الذي خطه الرّباني المجاهد .

لقد علمتنا هذه الرحلة كيف يغدو (الإسلام) دافعاً ملحّاً للنفوس التي تتوق إلى الارتفاع دائماً إلى فوق ، واجتياز المواقع والمنازل ، صاعدة على المنحنى الذي ينتظر من أولئك الأفذاذ الذين يحركهم الإسلام والإيمان إلى بلوغ منتهاه ..

وعلمتنا كيف يكون التغيير الداخلي ، النفسي ، منطلقاً لتشكيل التاريخ وصياغة العالم . ذلك التغيير الذي سماه الرسول عليه السلام (الجهاد الأكبر) والذي اعتبره القرآن الكريم أساساً لقيام الثورات في حياة الأمم والشعوب ، (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

وعلمتنا ان كثيرين من الذين تحيطهم مظاهر الحياة الفارغة ، التافهة ،

وتحاصرهم من الخارج مغريات من شتى الأصناف ، وتشده عيونهم الألوان التي يعشي وهجها الأبصار .. ان هؤلاء جميعاً مستعدون ، ما داموا يمتلكون خلفية صافية من الفطرة والادراك والفهم العميق للأشياء ، لفك هذا الحصار والانطلاق — بحرية — إلى عالم القيم والمثل العليا. وكان عمر ابن عبد العزيز مثالاً واضحاً لانسان يمتلك الفطرة السليمة ، وتحاصره المغريات من الخارج ، فيحطم الحصار وينطلق صوب القمة[1] .

وعلمتنا ان الخوف والاشفاق الدائم من الموت والعقاب ، والحياء العميق من المخالفة عن أمر الله مهما صغرت ودقت ، والحب الخالص لله الودود ، والاعتقاد المتأصل بروية الله المباشرة لحياة الإنسان الداخلية في أبعد ابعادها ، هذا الشعور هو الوسيلة التي يمكن بها — وحدها — تحويل ارادة التغيير الداخلي إلى عمل وممارسة اخلاقية شديدة المراس . وتشتد حاجة ارادة التغيير هذه إلى مزيد من تجربة الخوف والحب والاشفاق ، كلما تعرض الإنسان لمزيد من الترف والغنى والاغراء وامكانات الاستجابة لنداءات الشيطان . وهنا لا بد من اقتباس عبارات قالها النووي في هذا المجال : « ان عمر لم يكن فيه شيء من الغلو والإسراف أو الزهد الاعجمي ، فقد كان بعيداً عن كل ذلك ، إنما هي الطبيعة الدينية ، ونتيجة الإيمان القوي والشعور بالمسؤولية ، ومعرفة قيمة الحياة ، واستحضار الآخرة ، ونتيجة (الحب) الذي إذا ملك القلب ، واستولى على الشعور ذابت الرغبات وتغيرت القيم والأقدار . ولولا هذه المؤاخذة الشديدة للنفس ، ولولا هذا الحذر الشديد من ملاذ الحياة والتمتع بالمباحات ، لما استطاع مثل عمر — وهو أكبر ملوك الأرض في عصره ، وهو في دمشق : عاصمة العالم المتمدن يومئذ — ان يحفظ نفسه من الاندفاع إلى الترف ، وان يضرب مثلاً عليا لامرائه وعمال مملكته في الورع والزهادة والتحرز من الشبهات

---

(١) انظر في هذا المجال تفاصيل حياة عمر في السنوات التي سبقت توليه الخلافة ومواقفه العظيمة خلال امرته على المدينة، انما لم نأت عليها في هذه الدراسة ، رغبة في تخطي الاساليب الدارجة في كتابة التراجم ، والتي التزمت معظم الاحيان اطاري الزمان والمكان .

ولما استطاع ان يخفف من غلواء المدينة المترفة ، ويحدّ من شدتها وشرتها »[٢] .

ثم ان هذه الرحلة علمتنا كيف يكون (الإيمان) دافعاً حضارياً ، فضلا عن كونه الأساس المبدأي ، أو المعامل ، الذي يشد القيم المبعثرة والارادات مختلفة الاتجاه ، واعمال الناس ومنجزاتهم إلى هدف محدود ويضع لها الاطارات التي تجعل من مجموع هذه القيم والأهداف والانجازات والأعمال وحدة حضارية متميزة ، فهو فضلا عن هذا كله يقوم بدور المحرّك ، أو الدافع الداخلي ، الذي يدفع الإنسان والجماعات ، في نطاق الحضارة الواحدة ، إلى التقدم دوماً بحضارتهم صوب آفاق جديدة ومكاسب أكثر غنى ، عن طريق استغلال امكانات الزمان والمكان إلى أقصى مدى ممكن ، ذلك ان ايمان الناس يعني رغبتهم في تقديم مزيد من الأعمال ، والمسارعة في الخيرات — كي ينالوا ثواب الله ، وينجوا من عقابه على التفريط بما منحهم من امكانات قبل فوات الأوان — تلك (المسارعة) التي ترد مراراً في القرآن كصفة ملازمة للمؤمنين والتي تعني ضرورة الاسراع في استغلال الامكانات المسخّرة للانسان : من مال أو سلطة ، وزمان أو مكان ، وعلم أو بطولة .. ولقد رأينا هذا كله يبدو واضحاً في مدى محدود قضاه عمر بن عبد العزيز في الخلافة ، ورأينا كيف انه كان يسارع لتحقيق مزيد من المنجزات الحضارية في شتى الميادين .

ولقد علمتنا هذه الرحلة — أخيراً وليس آخراً — أكثر الحقائق أهمية في تاريخ البشرية عموماً ، وتاريخ المسلمين خصوصاً ، تلك هي من الانقلاب الذي أحدثه عمر : في هذه الفترة القصيرة ، في حياة الناس واهدافهم واهتماماتهم وفي ميادين العمل جميعاً : سياسة وحرباً ، ادارة واجتماعاً واقتصاداً ، وتربية وتثقيفاً ، والنجاح العظيم الذي حققه هذا الانقلاب في شتى ابعاده ، ازاء ظروف صعبة معقدة ، وركام عقود طويلة من السنين ، انحرفت بكثير من المفاهيم والقيم والمبادىء الإسلامية ، واحدثت فصلاً وثنائية ، بدرجة أو أخرى بين عقيدة الإسلام وشريعته وبين الواقع الذي يعيشه الناس .. ان تمكن عمر

(٢) رجال الفكر والدعوة ص ٣٣ — ٣٤ .

من اعادة التوحد بين الشريعة والواقع ، وربط اجهزة الدولة جميعاً بالاطارات التي رسمها القرآن والسنة ، وتوجيه حياة الناس ومعطياتهم وفق ما يريده الله ورسوله .. هذا النجاح يشير بوضوح إلى امكان تنفيذ البرنامج الإسلامي ، وتطبيق شرائع الإسلام وعقائدياته على واقع الحياة ، في أية فترة يمكن ان يستلم فيها السلطان رجال يمتلكون الذكاء والحصافة والمرونة ، إلى جانب الإيمان العميق والتقوى الدائبة التي تشد أعينهم ابداً إلى القيم العليا التي جاءوا ليحققوها وإلى المخاطر التي تهدر هذه القيم والأهداف .. التقوى التي تقضي على رغائبهم الخاصة ومطامحهم الشخصية ، وتوجه طاقاتهم جميعاً كي تصب في المحيط الواسع الذي يذيب كل العقبات ، ويهدم كل السدود التي تسعى للوقوف ازاء العودة بالحياة والأحياء إلى طريق الله .. تلك هي الحقيقة الكبرى التي علمتنا إياها الرحلة عبر حياة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ، ذلك الذي قاد ثورة اسلامية ضد أوضاع شاذة في مختلف الجبهات ، وتمكن بذكائه وحصافته ومرونته وايمانه وتقواه : من احراز النصر العظيم !!

فهرس بأهم المصادر

ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن الشيباني .

الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت – ١٩٦٥ م .

البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر .

فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة – ١٩٥٦ – ١٩٥٧ م .

ابن الجوزي : جمال الدين أبو الفرج .

سيرة عمر بن عبد العزيز ، تحقيق محب الدين الخطيب ، مطبعة المؤيد ، القاهرة – ١٣٣١ هـ .

ابن عبد الحكم : أبو محمد عبد الله .

سيرة عمر بن عبد العزيز ، تحقيق أحمد عبيد ، الطبعة الخامسة ، دار العلم للملايين بيروت – ١٩٦٧ م .

ابن خياط : خليفة .

تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، مطبعة الآداب ، النجف الأشرف – ١٩٦٧ م .

الدينوري : أبو حنيفة أحمد بن داود .

الأخبار الطوال ، تصحيح فلاديمير جرجاس ، ليدن ، بريل – ١٨٨٨ م .

ابن سعد : محمد .

كتاب الطبقات الكبير ، تحقيق ادوارد سخاو ، ليدن ، بريل – ١٣٢٢ هـ .

السيوطي : عبد الرحمن بن أبي بكر .

تاريخ الخلفاء ، ادارة المطبعة المنيرية ، القاهرة – ١٣٥١ هـ .

الطبري : محمد بن جرير .
تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة- ١٩٦٠م .
ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا إسماعيل .
البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، القاهرة - ١٣٥١ - ١٣٥٨ هـ .
المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين .
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الأندلس ، بيروت - ١٩٦٥ م .
اليعقوبي : محمد بن أبي يعقوب بن واضح .
تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ، بيروت - ١٩٦٠ م .
ارنولد : سير توماس و .
الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن ورفاقه ، الطبعة الثانية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة - ١٩٥٧ م .
ترتن : م . س .
أهل الذمة في الإسلام ، ترجمة وتعليق حسن حبشي ، الطبعة الثانية ، دار المعارف القاهرة - ١٩٦٧ م .
الدوري : عبد العزيز .
مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، دار الطليعة ، بيروت - ١٩٦٩ م .
دوزي : ر .
تاريخ مسلمي اسبانيا ، الجزء الأول ، ترجمة حسن حبشي ، دار المعارف ، القاهرة - ١٩٦٣ م .
فلها وزن : يوليوس .
تاريخ الدولة العربية ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر (الألف كتاب) ، القاهرة - ١٩٥٨ م .
فلوتن : فان .
السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم ، مطبعة السعادة ، القاهرة - ١٩٣٤ م .
الندوي : أبو الحسن علي .
رجال الفكر والدعوة في الإسلام ، الطبعة الثانية ، دار الفتح ، دمشق - ١٩٦٥ .

فهرس الأعلام

غ

ف

المحتوى